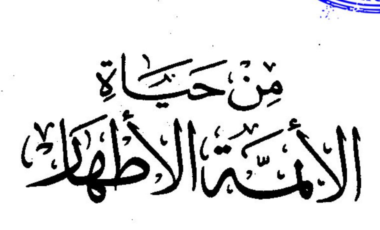
حياة الأئمة الأطهار

الشهيد مرتضي مطهري


من حياة
الأئمة الأطهار



الأستاذ مرتضى المطهري

الدار الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م



المركز الرئيسي: بيروت - كورنيش المزرعة - الحسن سنتر
هاتف ٨١٦٦٢٧ ص.ب. ١٤/٥٦٨٠
فرع حارة حريك. مفرق الحلباوي.

المقدمة

مقارنة نهج سيد الشهداء (ع)
مع نظيره عند سائر الأئمة الأطهار (ع)

هناك موضوع ، من الجدير أن يتم بشأنه البحث والتحقيق ، وهو موضوع مقارنة نهج سيد الشهداء (ع)، مع نظيره عند سائر الأئمة الأطهار (ع).

فقد يظن بعض الناس ، أنَّ نهج الإمام الحسين (ع)، يتناقض مع نهج سائر المعصومين (ع)، مثل نهج الإمام الحسن ، والإمام الباقر ، والإمام الصادق ، وحتى نهج أمير المؤمنين ، صلوات الله عليهم أجمعين . كما أنَّ الحسين (ع)، له منهج خاص به ، يختلف مع مناهج الأئمة الآخرين (ع).

إنَّ هذا في الواقع شيء يولِّد في القلوب مشكلة كبيرة ، وعقدة مستعصية ، لأنَّ المفروض أن لا يكون هناك تناقض بين المعصومين ، عليهم السلام ، أضف إلى ذلك أن الموالي يجب أن يعرف كيف ينبغي أن يتصرف على الصعيد العملي . . . هل يتبع هذا المنهج أم ذاك ؟.

ولكي يتضح الموضوع بشكل أفضل أقول :

إن الأسلوب الذي عرفت به الشيعة في تعاملهم مع غيرهم ، خصوصاً مع الحكام الظالمين ، يرجع إلى موضوع بيَّنه أئمة الدين(ع)، وركزوا عليه، وهو موضوع (التقية[1]، بحيث أصبحت كلمتا (الشيعة) ، و(التقية) مثل

---

(١) التقية : باللسان : من حمل على أمر يتكلم به ، وهو معصية لله ، فتكلم به مخافة الناس ، =

كلمتي (حاتم) و(الجواد)، إحداهما لازمة، والأخرى ملزومة. وكل الأئمة (ع) كانوا يمارسون التقية، ويقولون بها.

فكيف ثار الإمام الحسين من بينهم، وخالف مبدأ التقية؟[١] وإذا كانت التقية حقاً، فلماذا لم يلتزم الإمام الحسين بها، برغم أن ظروفه (ع) آنذاك، كانت توجب التقية بحسب الظاهر.

وإذا لم تكن التقية حقاً، إذن فلم التزم بها سائر الأئمة (ع)، بل وأمروا بها؟ إن هذه المسألة، إنما هي بحث أصولي، بغض النظر عن اتفاق مناهج الأئمة بشأنها، أو اختلافها. فيمكن من الناحية الكلامية، والأصولية، أن نبحث، هل أن التقية يمكن أن تكون حقاً؟ وهل أنها تتفق مع العقل والقرآن، أم لا؟

هنا لا بد أن نقول: إنّ التقية، مهما كان مشهوراً، أو معروفاً أنها من مختصات الشيعة، إلاّ أن ذلك ليس له أساس من الصحة، إذ إن التقية موجودة أيضاً عند غير الشيعة[٢]. وهذه المسألة مثل مسألة تحريف القرآن التي اعتبرها

= وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن ذلك لا يضره (عن ابن عباس في (الدرّ المنثور) للسيوطي).

(١) إن الإمام الحسين(ع) كان عازماً على عدم مبايعة يزيد، ولو أدى ذلك إلى قتله، إذ لم يكن من الممكن أن يبايع الإمام الحسين يزيد كما صالح الإمام الحسن معاوية، فالظروف مختلفة، ولو فرض وبايع الإمام الحسين يزيداً، لخفي حاله، واعتقدوه امام حق، وبذلك يستطيع يزيد وهو الخمير السكير، أن يتمكن من تبديل الدين، ومن هنا يقال: إن الحسين (ع) فدى دين جده، بنفسه وأهله وولده، وما تزلزلت أركان دولة بني أمية إلاّ بقتل الحسين (ع). أما مرافقته (ع) للنساء والأطفال فإن لذلك أسباباً عديدة في المنظور الدنيوي وأقصى غاية القول: إن الله شاء أن يراهن سبايا!

(٢) لا ريب أن التقية عند الإمامية الإثني عشرية، مسألة معروفة مشهورة عندهم، فقد روي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «من لا تقية له، لا دين له» و«التقية ديني، ودين آبائي». لكن التقية عند أهل السنة تحتاج إلى توضيح. وإشارة الأستاذ المحاضر عليه الرحمة، تستوجب ذلك. فقد أخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في (سننه). عن طريق عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الا أن تتقوا منهم تقاة﴾ قال: التقاة: هي التكلم باللسان، والقلب مطمئن بالإيمان. والتقية جائزة إلى يوم القيامة (الدرّ المنثور). وعن ابن عباس في قوله =

بعضهم من مختصات الشيعة ، والحال أنه لو كان هناك من بين الشيعة ، من يقولون بتحريف القرآن ، فإن من بين السنّة ، عدداً لا يقل عنهم يقولون أيضاً بذلك[1]. وهذا الأمر ذكرناه بعنوان المثال ، ولا نريد الدخول إلى بحث في تحريف القرآن.

إن الموضوع الذي نحن بصدده ، يمكن التوسع فيه ، بحيث يكون أشمل من موضوع الإلتزام بالتقية . فهناك في بعض الأمور الأخرى - أيضاً - يمكن أن يلاحظ للوهلة الأولى ، تعارض ، أو تناقض في سيرة الأئمة الأطهار بين بعضهم البعض . . . فمن الممكن مثلاً أن يعمل الرسول عملاً بكيفية معينة ، بينما يقوم أمير المؤمنين (ع) بالعمل نفسه ، ولكن بكيفية أخرى . أو أن يعمل الإمام الباقر ، أو الإمام الصادق ، صلوات الله عليهما ، العمل ذاته ، بطريقة تختلف عنهما كليهما .

إنَّ هذه التعارضات والتناقضات الظاهرية ، كثيراً ما تشاهد وتلاحظ ، وسأقوم لاحقاً بذكر بعض منها على سبيل المثال

وحيث أنَّ جميع الأئمة معصومون ، كما نعتقد ، وحيث أن فعلهم

= تعالى : ﴿ من كفر بالله . . . ﴾ الآية ، قال : أخبر الله سبحانه أن من كفر بالله ، من بعد إيمانه ، فعليه غضب من الله ، وله عذاب عظيم ، فأما من أكره ، فتكلم بلسانه وخالفه قلبه بالإيمان ، لينجو بذلك من عدوه ، فلا حرج عليه لأن الله سبحانه إنما يؤاخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم (سنن البيهقي) . وقال الغزالي : « إن عصمة دم المسلم واجبة ، فمهما كان القصد سفك دم مسلم ، قد اختفى من ظالم ، فالكذب فيه واجب (احياء علوم الدين) . وقال السيوطي : « ويجوز أكل الميتة في المخمصة ، وإساغة اللقمة في الخمر ، والتلفظ بكلمة الكفر » (الأشباه والنظائر) . وأخرج أبو بكر الرازي ، في تفسير قوله تعالى : ﴿ الا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ قال : يعني أن تخافوا تلف النفس ، أو بعض الأعضاء ، فتتقوهم بإظهار الموالاة ، من غير اعتقاد لها (أحكام القرآن) (راجع مع الصادقين : ص ١٨٦) .

(١) يمكن بالعودة إلى كتاب (البرهان على عدم تحريف القرآن) العثور على عدة روايات من طرق العامة عند أهل السنّة يثبتون بالاستدلال بها على تحريف القرآن . وهو ما ينكره الشيعة الإمامية ، ولو تفرد أحد علمائهم بالقول بالتحريف فهذا لا يضرّ اجماع علمائهم على عدم التحريف .

جميعاً حجة مثل قولهم ، إذن كيف يمكن لنا أن نتصرف عملياً ؟ وأي سيرة نقتفي ، وأي عمل نتبع ؟

نحن من حيث أننا نقبل إمامة أهل البيت (ع)، ونعتبر أقوالهم ، وأفعالهم ، حجة ، ونعتقد بأن الرسول الأكرم (ص)، أمرنا بالرجوع إليهم ، فإننا من ناحية الآثار ، والمأثورات الدينية ، أغنى من أهل السنّة والجماعة . . . فعندنا من الأحاديث والأخبار ، وعندنا من الحكم الأخلاقية، والإجتماعية ، وكذلك لدينا من الأدعية القيمة التي هي بحدّ ذاتها ، باب عظيم ، من أبواب المعارف ، والتعاليم الإسلامية ، في شتى المجالات ، أكثر مما عندهم .

ولهذا فإن أهل الإحصاء يقولون مثلاً : إنّ تمام الصحاح الستّة[1] لأهل

---

(١) إن أمهات الكتب الحديثية وأصولها وأشهرها عند أهل السنّة والجماعة ، هي ستة :

١ ـ صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل بن المغيرة بن بُرْدِ زْبَة (البخاري) بلداً نسبة إلى بخارى ـ بالقصر ـ أعظم مدينة وراء النهر ، بينها وبين (سمرقند) مسافة ثمانية أيام ، الجعفي ولاءً ، لأنّ جده المغيرة ، أسلم على يد اليمان بن أخنس الجعفي ، والي بخارى الفارسي نسباً ، من أبنا فارس ، المتوفى بـ (تمرتنك) ، قرية بظاهر (سمرقند)، على ثلاث فراسخ منها ، سنة (٢٥٦ هـ) .

٢ ـ صحيح أبي الحسين ، مسلم بن الحجاج القشيري ، نسبة إلى بني قشير ، قبيلة معروفة من قبائل العرب ، النيسابوري : نسبة إلى نيسابور ، مدينة مشهورة بـ (خراسان) ، المتوفى بها سنة (٢٦١ هـ) .

٣ ـ مسند أبي داوُد ، سليمان بن الأشعث الأزدي ، نسبة إلى الازدابي ، قبيلة باليمن . السجستاني : نسبة إلى (سجستان)، المتوفى بالبصرة سنة (٢٧٥ هـ) .

٤ ـ جامع أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك ، السلمي ـ بضم السين ـ نسبة إلى بني سُليم : قبيلة معروفة. (الترمذي) : نسبة إلى (ترمذ) : مدينة قديمة على طرف نهر بلخ المسمى بـ(جيحون) ، الضرير ، المتوفى بترمذ ، أو ببوغ ، وهي قرية من قرى ترمذ على ستة فراسخ منها ، سنة (٢٧٥ / ٢٧٩ هـ) ، ويسمى بـ (السنن) أيضاً خلافاً ممن ظن أنهما كتابان ، وبـ (الجامع الكبير) .

٥ ـ سنن أبي عبد الرحمن ، أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر (النسائي): نسبة إلى (نسا) : مدينة بـ(خراسان)، وقيل كورة من كورنيسابور ، والقياس : نسوي ، المتوفى=

السنّة ، لا تحتوي من الأحاديث بقدر ما يحتويه كتاب (الكافي)[1] وحده ، حيث يجد المرء فيه ما يجاوز الستة عشر ألف حديث . ولهذا فإنَّ الشيعي لا يرى نفسه محتاجاً للقياس والإستحسان ، وما أشبه ذلك ، والشيعة الإمامية دائماً يفتخرون بهذا الأمر .

وهنا أريد أن أقول بأن هذا الشيء الذي يعتبر مفخرة للشيعة ، يمكن - إذا توجهنا إلى الإشكال المذكور آنفاً - أن يحتسب نقطه ضعف لهم فيقال مثلاً :

بما أن الشيعة ، ليس لهم إمام واحد ، بل إثنا عشر إماماً ، وكل واحد من هؤلاء قد نقلت عنه أحاديث وطرق ورسوم مختلفة، إذن سوف ينشأ ، نتيجة ذلك عند الشيعة ، نوع من الضلال ، والحيرة ، ودوار الرأس ، وبالتالي فإنهم يقعون في هرج ومرج ، ولا يدرون كيف يتصرفون .

وهنا يكون هذا الأمر ذاته ، وسيلة جيدة بيد أولئك الذين يستهدفون الدين بسوء ، ويبحثون عن غطاء شرعي من النصوص الإسلامية لأعمالهم المشبوهة ، وأقوالهم المغرضة . فكل من يريد منهم أن يخطط لعمل منافٍ ،

= بـ (الرملة) بمدينة فلسطين من أرض الشام ، ودفن فيها ، وقيل حمل إلى مكة فدفن فيها بين الصفا والمروة ، وقيل أنه توفي بمكة ، ودفن بها سنة (٣٠٣ هـ) .

٦ ـ سنن أبي عبدالله ، محمد بن يزيد ، المعروف بـ (ابن ماجة) . وهو لقب أبيه لا جده ، ولا أنه اسم لأمه ؛ ، خلافاً لمن زعم ذلك ، وهاؤه ساكنة ، وصلاً ووقفاً ، لأنه اسم أعجمي ، الربعي : نسبة إلى ربيعة مولاهم ، القزويني : نسبة إلى (قزوين) : مدينة مشهورة بعراق العجم المتوفى سنة (٢٧٣ / ٢٧٥ هـ) . (راجع الرسالة المستطرقة لمحمد بن جعفر الكتاني : ص ٢٩ .

(١) الكافي : أحد صحاح الشيعة الإمامية الأربعة ، بعد الاستبصار ، والتهذيب ، ومن لا يحضره الفقيه مؤلفه : : أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٩ هـ) ، ودفن في بغداد ، بباب الكوفة ، كان أوثق الناس في الحديث وأثبتهم ، وصنف الكتاب المذكور في عشرين سنة ، وهو من أجل الكتب الإسلامية ، وأعظم المصنفات الإمامية ، لم يصنف في الإسلام كتاب يوازيه ، أو يدانيه (سنن النبي (ص) للسيد محمد حسين الطباطبائي : ص ٢٣) .

يـأتي بحديث ، أو عمـل ، لأحـد الأئمـة ، كشـاهـد على مشـروعيـة عمله ، وصواب رأيه ، دون أن يسلط الأضواء على الظروف والملابسات التي أحاطت بقول ذلك الإمام ، أو فعله .

ونتيجـة كـل ذلـك هـو التشتت والفـوضى ، وافتقـاد الأصـل الأخـلاقي والإجتماعي الثابت . والويل لأمة لا يكون عنـدها أصـول ثابتـة وواحدة ، بـل يفكـر كل فـرد منهم على هواه ، ويتصـرف كيفما يحلو لـه ، وهذا هـو بالضبط مصداق المثل الذي يقول : إذا كثر الأطباء حول مريض ما ، فإن الأمل بتحسنه وشفائه ، سوف ينعدم تماماً .

وعلى هـذا يحق لنا أن نقـول : إذا لم يبذل العلمـاء جهـوداً مضنيـة في التحقيق والبحث ، بشـأن هذه الـطرق والأساليب المختلفـة التي نلاحـظها في سيـرة الأئمة المعصـومين (ع)، فإن تلك الآثـار السيئة ، التي أشـرنا إليهـا ، سوف تحصل ، وسواء أكان لدينا عدد من الأئمة مختلفي الأسلوب والـطريقة ، أم كان الأئمة كلهم على طريقة واحدة ، ولكننا نرى اختلافاً ظاهـرياً بينهم ، أم حتى لـو كان لنـا إمام واحـد ، ولكنه في المـواطن المختلفة ، أصـدر أحكامـاً متفاوتة ، وقام بأعمال متباينة . . . ولم نتمكن من حلّ الإختلافات الظاهريـة ، بالاعتماد على أصل معين وثابت ، فإن الهرج والمرج، الذي ذكـرناه ، سـوف يسود في مجتمعنا ، ولا مفر من ذلك أبداً .

والآن أذكر ـ على سبيل المثال ـ إننا عندما نراجع سيرة الرسول (ص)، نـرى أنه كـان يعيش الزهـد والفقر من النـاحية المـادية ، يـأكل خبـز الشعير ، ويلبس الثياب الخشنة ، ويسكن الدار المتواضعة ، وأمير المؤمنين (ع) أيضـاً كان كذلك ، ونقرأ القرآن فنجده يقول : ﴿ **لقد كـان لكم في رسـول الله أسـوة حسنـة ، لمن كان يـرجـو الله ، واليـوم الآخـر** ﴾[1] . . . إذن فـالمـطلوب من المسلمين كلهم أن يتبعوا طريقة الرسول (ص)، ويفعلوا مثلما فعل !

ولكننـا عنـدمـا نلتفت لنـرى حيـاة الإمـام الحسن المجتبى ، أو الإمـام

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١ .

الصـادق ، أو الإمـام الـرضـا ، صلوات الله عليهم ، نـراهم على العكس من ذلك ، لم يكونوا يعيشون حياة الزهد والفقر ، كـانوا يـأكلون جيداً ، ويلبسـون الثيـاب الحسنة ، ويتخـذون المـركب الفـاخـر . وبكلمـة مختصـرة : كـانـوا يستفيدون من طيبات الحيـاة بشكل جيـد . وعندمـا حضر حمـاد بن عثمان في مجلس الإمام الصادق (ع)، قال الرجل للإمام (ع): أصلحك الله ذكرت أن عليًّ بن أبي طـالب كان يلبس الخشن ، ويلبس القميص بـأربعة دراهم ، ومـا أشبـه ذلك . . . ونـرى عليك اللبـاس الجديـد ؟ فقـال لـه الإمـام (ع): إنَّ علي بن أبي طـالب كان يلبس ذلـك في زمـان لا ينكـر ، ولـو لبس مثـل ذلـك اليوم ، شهّر بـه ، فخير لبـاس كل زمـان لباس أهله ، غيـر أن قائمنـا إذا قام ، لبس ثياب علي ، وسار بسيرة أمير المؤمنين علي (ع)[1].

ودخل سفيان الثوري على أبي عبدالله الصـادق (ع)، فرأى عليـه ثيابـاً بيضاً كأنها غـرقىء البيض ، فقال له : إن هذا اللباس ليس من لباسك ؟!.

فقال له الإمام : اسمع مني وعِ ما أقول ، فإنه خير لك عاجلاً وآجـلاً ، إن أنت متَّ على السنّة ، ولم تمت على بدعة ، أخبرك أن رسول الله (ص)، كان في زمان مقفر مجدب ، فأما إذا أقبلت الدنيا ، فأحق الناس بها أبرارهـا ، لا فجارها ، ومؤمنوها ، لا منافقوها ، ومسلموها ، لا كفارهـا ، فما أنكـرت يا ثوري . . .[2].

هذه هي الأمور التي تعتبر في الظاهر متعارضـة ، وهذا هـو الشيء الذي يمكن أن يحتسب نقطة ضعف في التشيع .

ولكن كلا ، ليس الأمر في الـواقع كـذلك ، وأنـا هنا أستفيـد من المثال نفسه ، لأوضح نقطة ، تكمن فيها قوة هذا المذهب بالذات . وكمقدمة لذلـك أقول :

---

(١) الامام الصادق (ع): ص ٤٢ .

(٢) الامام الصادق (ع): ص ٤٤ ـ محمـد جواد فضـل الله ـ طـ ـ دار الزهـراء ـ (تحف العقول : ص ٢٥٦).

إنه لو كان هناك إمام معصوم ظاهر ، قدر له أن يعيش بيننا عشرين عاماً فقط - مثلاً - فإنه حتماً لن يقع في هذه الفترة مقدار كافٍ من التطورات ، والتغيرات ، والأحداث المعقدة ، والموضوعات المختلفة ، بحيث يتاح لنا أن نلاحظ عمل هذا المعصوم في الظروف المختلفة ، وطريقة مواجهته للصور والأشكال المتنوعة للموضوعات ، ومن ثم يمكن لنا أن نكتسب القدرة والمهارة اللازمة ، بحيث يسهل علينا معرفة كيفية مواجهة الأمور في هذه الدنيا المتغيرة باستمرار ، وكيفية تطبيق الأصول الدينية الكلية على الموضوعات المختلفة ، ذلك أن الدين له بيان نظري ، وتطبيق عملي [٢] تماماً كالدروس النظرية والعملية في أي علم آخر ، حيث تكون الدروس العملية هي طريقة تطبيق النظريات على الموضوعات الجزئية والمختلفة .

وأما لو عاش الإمام المعصوم بيننا لمدة أطول (٢٥٠ عاماً) مثلاً ، وواجه أنواع وأصناف صور القضايا ، وبين لنا طريقة حلّ كل قضية من ظروفها ، وملابساتها المختلفة ، فإننا - حتماً - سوف نتعرف بشكل أفضل على روح التعاليم الدينية، وبالتالي نتحرر من الجمود الفكري ، وضيق الأفق ، ونتخلص مما يدعي بـ (الاصطلاح المنطقي : أخذ ما ليس بعلة) ، أو (خلط

---

(١) سئل أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (ع) عن الإيمان فأجاب :
« الإيمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان » . (المعجم المفهرس لالفاظ نهج البلاغة : ص ١١٤) . ومن قوله (ع) لبعض أصحابه في علة اعتلها : « . . . وإنما الأجر في القول باللسان ، والعمل بالأيدي والأقدام » (المصدر نفسه : ص ١٠٧) .
وقال (ع) : « . . . الإسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل » (المصدر نفسه : ص ١١١) . ومن كتاب له (ع) لولده الحسن (ع) كتبه إليه بحاضرين ، عند انصرافه من (صفين) : « . . . فإذا عرفت ذلك ، فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله ، في صغر خطره ، وقلة مقدرته ، وكثرة عجزه ، وعظيم حاجته إلى ربه ، في طلب طاعته ، والخشية من عقوبته ، والشفقة من سخطه ، فإنه لم يأمرك إلاّ بحسن . ولم ينهك إلاّ عن قبيح . . . » (المصدر نفسه : ص ٩١) . وهكذا يتبين أنّ الإسلام أو الإيمان ليس معرفة فقط ، ولكنه المعرفة والعمل معاً ، وكما قال الأستاذ المؤلف : هو في النظرية والتطبيق العملي . (المحقق) .

مـا بالعـرض بمـا بـالـذات) ، والـذي يعني أنـه عنـدمـا يكـون هنـاك شيئـان متصاحبان ، أحـدهما لـه دخل في حـدوث شيء ثالث ، بينمـا الآخر ليس لـه دخل ، ولا تأثير ، بالمرة ، بل إن وجوده محض الإتفاق ، لا أكثر . . . هنا قد نقـع في الإشتباه والخـطأ ، ونتصور أن ذلـك الشيء الآخر ، هـو نفسـه الـذي استلزم حـدوث الشيء الثالث ، أو لا أقـل اشترك مـع الشيء الأول في التأثيـر والاستلزام . . .

وفي سيرة أئمة الدين (ع)، لا يوجد شك في أنَّ كُلاًّ منهم كان يحيا في زمان معين ، وأن زمان ومحيط كل واحد منهم ، كانت له اقتضاءات مختلفة .

وحيث أن كل إنسان يتوجب عليه بـالضرورة أن يتبـع مقتضيات زمـانه ، فـإن الدين قـد ترك النـاس أحراراً من هـذه الناحيـة . وفي صوره تعـدد الأئمة المعصومين وتعاقبهم ، أو طول عمر واحـد منهم ، فإن الإنسـان يتمكن بشكل أفضل ، من تشخيص روح التعاليم الدينية، وفرزها عما يكون ممتـزجاً بهـا من مقتضيات الزمان ، فيأخـذ الروح ويتـرك الأمور المختصـة بتلك المقتضيات ، تماماً كالمثال الذي ذكرتـه بشأن الحيـاة الزاهـدة ، حيث كان الـرسول (ص) يعيش الفقر ، بينما لم يكن الإمام الصادق (ع)ـ مثلاً ـ كذلك .

والآن أنقل لكم قصة توضح جوانب هذا الموضوع :

في حــديث معــروف ورد في (الكــافي)[1]، وكــذلــك في (تحف العقـول) ، أن سفيان الثـوري دخل على أبي عبـدالله (ع) فرأى عليـه ثيـابـاً بيضاً . . . ـ إلى أن قال ـ فما أنكرت يـا ثوري ، فـوالله إني لمع مـا ترى ، مـا أتى عليَّ ، قد عقلت ، صباح ولا مسـاء ، ولله في ما لي حق أمـرني أن أضعه موضعاً إلاّ وضعته .

وفي حديث آخر :

« عن معتب قال : قال لي أبو عبدالله (ع) وقد تزيَّد السّعر بـالمدينـة :

---

(١) الكافي : ٥/٦٥ ـ تحف العقول : ص ٢٥٦ .

كم عندنا من طعام ؟ قال : قلت ، عندنا ما يكفينا أشهر كثيرة ، قال : أخرجه ، وبعه . قال : قلت له : وليس بالمدينة طعام !! قال : بعه ، فلما بعته قال : اشتر مع الناس ، يوماً بيوم ، وقال : يا معتب ، اجعل قوت عيالي نصفاً شعيراً ، ونصفاً حنطة ، فإن الله يعلم أني واجد أن أطعمهم الحنطة على وجهها ، ولكني أحب أن يراني الله قد أحسنت تقدير المعيشة »[1].

يريد الإمام بعمله هذا أن يبين لنا كيف أن الإسلام بشكل أساسي يفرض على المسلم أن يكون سلوكه بين الناس مقروناً بالإحسان ، وممزوجاً بالعدل والإنصاف، ولا يهم بعد ذلك أن يضع خبزه في البيت ، أو يشتريه من السوق ، أو يأكل خبز القمح ، أو الشعير ، أو يخلط القمح بالشعير . . .

وهكذا فبملاحظة الإختلاف بين عمل رسول الله (ص)، وعمل الإمام الصادق (ع) فإننا نتفهم روح الإسلام بشكل أعمق ، ولو أن الإمام الصادق ، لم يبين لنا هذا الأمر ، ولم يوضحه ، لكن اعتبرنا هذا الجانب من عمل رسول الله (ص)، والمتعلق بعصره ، الذي كان يعيش فيه ، جزءاً من الدين الإسلامي ، وبضم الآية (٢١)[2] من سورة الأحزاب ، التي تأمرنا بالتأسي بالرسول (ص)، إلى هذا الأمر .

ولو شكلنا من الموضوع قضيتين : صغرى وكبرى ، واستنتجنا وجوب اتباع حياة الفقر ، في كل الأحوال ، لكبلنا الناس بالقيود ، إلى يوم القيامة ، ولكن بيان الإمام الصادق (ع)، وتوضيحه ، واختلاف أسلوبه مع أسلوب النبي (ص)، كان درساً ذا مغزى ، أخرجنا من الجفاف ، والجمود الفكري ، وعرّفنا على روح الدين ، ومعنى تعاليمه .

طبعاً يبين لنا الإمام الصادق (ع) هنا حقيقة الأمر ، ولكن على فرض أنه لم يفعل ذلك فإنه ينبغي أن يكون لنا من التعقل ، وقوة الإجتهاد ، ما

---

(١) البحار : ٤٧/ ٥٩ ـ الكافي : ٥/ ١٦٦ .

(٢) ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجوا الله واليوم الآخرة ، وذكر الله كثيراً ﴾.

نتوصل به إلى أن هذه الأمور ليست متناقضة ، ولا متعارضة ، وهذا الجمود الفكري موجود بكثرة ، وخصوصاً بين « الأخباريين » ، الذين يحرمون حتى شرب الدخان .

وهكذا نجد أنّ إحدى الطرق التي يمكن اتباعها لحلّ التعارضات الموجودة ، في السير المختلفة هي ما يصطلح على تسميته بـ « الحل العرفي »، أو « الجمع العرفي » الذي يتم عن طريق ملاحظة اختلاف مقتضيات الزمان ، ويمكن استخدام هذه الطريقة، حتى في حل التعارضات القولية، مع أنّ فقهاءنا لم يتوجهوا إلى ذلك في السابق .

مثال آخر : قيل لعلي (ع) في حديث « غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود » ، الذي كان (ع) يرويه ، ولكنه لم يعمل به ، أي لم يصبغ ، ولم يتخضب . فقال عليّ (ع): إنّ هذا الأمر خاص بزمان النبي (ص)، وكان خدعة حربية لكي لا يظن الأعداء أن المسلمين آنذاك عبارة عن مجموعة من الشيوخ الطاعنين في السن ، لا يقوون على الكر والفرّ ، أما اليوم « فامرؤ وما اختار » .

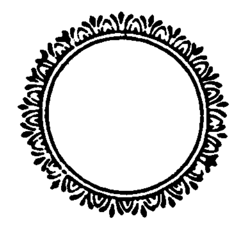
ولو لم يكن هذا التوضيح من أمير المؤمنين (ع)، لكنا نفرض على الناس إلى يوم القيامة ، أن يتخضبوا ، ويصبغوا لحاهم .

إذن هذا طريق من الطرق لحلّ التناقض ، وهذا الأمر بالطبع يحتاج إلى مطالعات واسعة .

هنا أتذكر ، أنّ أحد العلماء المطلعين ممن يتمتع باستقلالية التفكير ، كان يقول في معرض الكلام ، عن أخبار التفويض التي كثيراً ما تقرع السمع ، والتي مفادها أن الله سبحانه يعطي للإنسان مجالاً للإختيار خارج الأصول الكلية : « في بحثنا حول مسألة التفويض ، يجب أن نتوجه إلى هذه النكتة المهمة، وهي أن لدينا عدداً من المسائل تشكل روح التعاليم الدينية، وهي الأوامر الالهية الكلية . وهذه المسائل غير قابلة ، بأي شكل من الأشكال ، للتغيير والتبديل ، وهي ناظرة إلى المصالح الكلية ، والسامية لعالم البشر . . .

ومـا دامت البشريـة ، فهذه المسـائل والأوامـر ، موجـودة ومطروحـة ، وما دام الإنسان إنساناً ، فعليه أن يطبق هذه الأوامر ، ويلتزم بها »[1] .

* * *



(١) ألقيت المحاضرة في (٢١ شهر رمضان ١٣٩٠ هـ) في حسينية إرشاد . . .

الفصل الأول

مشكلات الامام علي (عليه السلام)[1]

ومن كلام له (ع): « دعوني والتمسوا غيري ، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت ، والمحجة قد تنكرت ، واعلموا إني إن أجبتكم ، ركبت بكم ما أعلم . . . »[1].

نحن نعلم أنّ علياً (ع) ، لم يكن ليكف عن البيان والتصريح في كل المناسبات وذلك في عهد خلافة الخلفاء ، بأن الخلافة حق خالص له ، ولا ينبغي لأحد أن ينازعه فيه .

ولكننا نرى أنه امتنع ، وكره قبول الخلافة (وذلك بعد مقتل عثمان ، على أثر تمرد دام عليه) ، حينما توجه الناس إلى بيته ، وأحاطوا به ، وأصروا عليه بشدة أن يبايعوه ، ليستلم هو بنفسه زمام الأمور[2] .

والجمل التي ذكرتها في البداية ، مقتبسة من كتاب (نهج البلاغة) . يقول (ع) : « دعوني والتمسوا غيري » : أي اتركوني واختاروا غيري خليفة

---

(١) نهج البلاغة : خطبة رقم ٩٠ .

(٢) راجع الكامل لابن الأثير : ١٩٠/٣ .

لكم . ثم يبين الإمام بعد ذلك علة امتناعه ، لئلا يتصور أحد أنه لا يعتبر نفسه لائقاً للخلافة ، وأنه أكفأ الناس بعد رسول الله (ص) ، وأقدرهم على تسيير دفة الأمور . . . ويوضح بأن الأوضاع مضطربة جداً ، وأن مستقبلاً أشد اضطراباً يلوح في الأفق . . . فيقول : « فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان » ، أي إنَّ أمامنا أحداثاً خطيرة ، وغامضة ، والمستقبل الذي ينتظرنا ليس مستقبلاً واضحاً مشرفاً ، بل هو مستقبل ينذر بتفجر المشاكل والفتن .

« وإن الآفاق قد أغامت » : أي إن الضباب قد غطى الآفاق ، وملأ الأجواء ، حتى لم يعد المرء يرى أمامه .

« والمحجة قد تنكرت : أي أصبح الطريق الواضح المعروف ، طريقاً غامضاً ، مجهول المعالم ، حتى لم يعد الناس يعرفونه ويشخصونه .

ولكنه (ع)، يذكر في النهاية جملة بعنوان إتمام الحجة ، فيقول : « واعلموا إني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم » : أي إذا استلمت زمام الخلافة ، فإني سوف أقودكم وفق علمي ، واجتهادي ، وليس وفق ما تريدونه أنتم .

وكان آخر ما قاله لهم في تلك الخطبة :

« وإن تركتموني فأنا كأحدكم ، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه امركم ، وأنا لكم وزيراً ، خير لكم في أميراً »[١] .

هذه الكلمات التي صدرت من علي (ع) ، تبين أنه كان يتوقع مشاكل كثيرة ، تحدث في عهد خلافته ، وهي من التعقيد والغموض بحيث علم بأنه سوف يصعب على الناس في كثير من الأحداث المقبلة ، أن يتقبلوا أوامر القيادة الشرعية ، ويتفهموها ، وكان هذا هو السر في كراهته لقبول الخلافة ، وقد حدث ما توقعه الإمام فيما بعد .

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة : ص ٣٦ - خطبة (٩٢) - الكامل لابن الأثير : ١٩١/٣٧ .

فماذا كانت تلك المشاكل التي واجهها (ع) ؟

أذكر فيما يلي بعضاً منها ، بصورة سريعة ، ومجملة ، لكي أصل إلى مشكلة المشاكل ، وكبرى المعضلات ، التي واجهها علي (ع) ، وهي مشكلة الخوارج[1]، فأفصّل الكلام فيها بعض الشيء .

١ ـ مشكلة مقتل عثمان (مشكلة النفاق) :

إنَّ أولى المشاكل التي وقعت ، والتي قال علي (ع) بشأنها أن هناك مستقبلاً مظلماً ينتظر المسلمين ، هي ذيول حادثة مقتل عثمان ، حيث استلم علي (ع) الخلافة ، في وضع غير عادي ، فقد قتل الثوار الغاضبون ، الخليفة السابق ، ولم يسمحوا حتى بدفنه[2]، ثم انضم هؤلاء الثوار أنفسهم إلى صف علي (ع) ، فماذا كان رأي بقية المسلمين ؟

بالطبع لم يكن عامة الناس يفكرون كما يفكر الثوار . . .

كما أن علياً (ع) نفسه ، لم يكن تفكيره ينسجم ، لا مع الثوار ، ولا مع مخالفيهم ، ولا مع عامة الناس . . .

ونراجع ملف القضية ، فنرى من جانب عثمان وحاشيته ، كل هذا الظلم ، والجور ، وإلّا جحاف ، وإعطاء الإمتيازات للأقارب ، وأفراد العشيرة . . .

ومن جانب آخر ، نرى الطوائف الغاضبة ، والثائرة ، من (الحجاز)، و(المدينة)، و(البصرة) ، و(الكوفة) ، و(مصر) ، جاءوا من كل مكان

---

(١) الخوارج ؛ يسمون الشراة والحرورية ، والمحكمة ، ويجمعهم إكفار عثمان وعلى كل من أتى كبيرة وأصول فرقهم خمس : الأزارقة والأباضية ، والصفرية ، والبيهسية ، والنجدات . ثم تشعبوا ، وأنشىء مذهبهم عند التحكيم عبدالله بن الكوا وعبد الدين وهب ، وفارقا علياً ، ولهم وقائع في التاريخ ، وأكثر مذهبهم في الجزيرة والموصل ، وكثبان ، ومن مصنفيهم أبو عبيد ، وأبو الضياء وغيرهما (المنة والأمل في شرح الملل والنحل لأحمد ابن المرتضى اليماني : ص ٢٦).

(٢) راجع مروج الذهب : ج ٣ ص ٩٠.

معترضين، ومنتقدين، وعثمان يرفض أن يلبي طلباتهم[١].

ومن العجيب في الأمر أن علياً (ع)، كان هو السفير بين الثوار والخليفة، وهو يخالف خط عثمان، ولكنه في الوقت نفسه، لا يريد أن يفسح في المجال أمام الثوار لقتل الخليفة، فيفتح باب الفتنة أمام المسلمين، وهذا الموضوع له قصة مفصلة.

وكان علي (ع) ينتقد موقف عثمان بشدة، ويحاول أن يصرفه عن الطريق الذي كان يسير فيه، لعلَّ نار الثوار تهدأ، فتخمد بذلك الفتنة[٢].

ولكن عثمان، ولا من يقف في صفه، كانوا مستعدين للإنصراف عن طريقهم وطريقتهم.

ولا الثوار كانوا حاضرين لأن يكفوا عن مطالبهم، ويفكوا الحصار الذي ضربوه حول بيت الخليفة.

فكانت النتيجة أن نفذ الثوار تهديدهم، دون أن يكون لعلي يد في ذلك[٣].

إن علياً (ع)، كان يعلم أن مقتل عثمان سوف يصبح مسألة توجب إثارة الفتنة[٤]، خصوصاً عند الإلتفات إلى نكتة مهمة كشف عنها مؤخراً علماء

---

(١) راجع مروج الذهب: ج ٣ ص ٨٧.

(٢) قال علي (ع) مخاطباً عثمان: «أوكل ما أمرتنا به من شيء، نرى طاعة الله والحق في خلافه، اتبعنا فيه أمرك؟ لعمر الله لا نفعل!» (مروج الذهب: ج ٣ ص ٨٥).

(٣) قال أمير المؤمنين عليّ (ع): «... والله لقد دفعت عنه (يعني عن عثمان) حتى خشيت أن أكون آثماً». (المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة: ص ٨٤ ـ الخطبة ٢٤٠).

(٤) قال أمير المؤمنين (ع) لعثمان: «... وإني أنشدك الله ألا تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه كان يقال: يُقتل في هذه الأمة إمام، يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبس أمورها عليها، ويبث الفتن فيها، فلا يبصرون الحق من الباطل، يموجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً، فلا تكون لمروان سيقة، يسوقك حيث شاء...» (المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة: ص ٥٧).

الإجتماع ، والمؤرخون المحققون الذين طالعوا تاريخ الإسلام بدقة وتمعن ، ونلاحظ أن (نهج البلاغة) ـ أيضاً ـ قد أشار إلى هذه المسألة ، وهي أن بعض المؤيدين لعثمان كان لهم ـ أيضاً ـ يد في قتله[1] ، فكانوا يريدون أن يقتل عثمان لكي تقوم فتنة في عالم الإسلام ، فيصطادون صيدهم في المياة العكرة .

وكان لمعاوية على الخصوص يد قوية في مقتل عثمان ، فعمل في الخفاء على أن تستعر نار هذه الفتنة ، ليستفيد هو بالتالي ، من مقتل الخليفة ، في تحقيق أطماعه ومآربه .

وهنا أريد أن أركز على نقطة هامة في هذه المشكلة التي واجهها علي (ع) ، وهي أنه نجد تفاوتاً واضحاً بين مخالفيه ، ومخالفي النبي (ص) في زمانه :

فالنبي (ص) كان يواجه مجموعة من الكفار ، وعبدة الأوثان ، وكانوا يحاربونه تحت شعار الوثنية ، فكانوا ينكرون الله والتوحيد علناً ، وكان أبو سفيان يصرّ على شعار (أعلُ هبل !)[2] ، فسهل على الرسول (ص) مواجهتهم ، ومقاومتهم بهذا الشعار الواضح (الله أعلى وأجل) .

أما علي (ع) فكان يواجه طبقة من العلماء المنافقين[3]، يتظاهرون

---

(١) « . . . إن عثمان قتل ومعه في الدار ثمانية عشر رجلاً من بني أمية ، منهم مروان بن الحكم » (مروج الذهب : ج ٣ ص ٩١.

(٢) (راجع الكامل لابن الأثير : ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) قال علي (ع) لجماعته بعد رفع المصاحف : « فإني إنما أقاتلهم ليدينو لحكم الكتاب ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ، ونسوا عهده ، ونبذوا كتابه . فقال له مسعر بن فدكي التميمي ، وزيد بن حصين الطائي ، في عصابة من القراء ، الذين صاروا خوارج بعد ذلك : يا علي أجب إلى كتاب الله عزّ وجلّ ، إذ دعيت إليه ، وإلاّ دفعناك برمتك إلى القوم ، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان!» (الكامل في التاريخ لابن الأثير : ج ٣ ص ٢١٦) . « . . . فقام زيد بن حصين الطائي ، وكان من أصحاب البرانس المجتهدين . . . » (راجع وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري : ص ٩٩) ، (تاريخ الطبري : ج ٥ ص ٤٩).

بالإسلام ، ولكنهم لم يكونوا في الحقيقة مسلمين ، فكانت شعاراتهم شعارات إسلامية ، وأهدافهم ضد الإسلام .

وكان معاوية بن أبي سفيان مثل أبيه ، يملك الروح السفيانية نفسها ، والأهداف الشيطانية ذاتها ، ولكن تحت شعار الآية القرآنية : **﴿ ومن قتل مظلوماً ، فقد جعلنا لوليه سلطان ﴾**[1] : صحيح أن هذا الشعار ، شعار جميل ، ولكن ألّا يوجد من يسأل معاوية : من هو ولي الدم الشرعي بالنسبة لعثمان ؟ إن نسب معاوية لا يتصل بنسب عثمان ، إلّا بأربعة أظهر صاعدة ، أي إنهما يشتركان في الجد الرابع ، في حين أن عثمان له أولاد ، وأرحام أقرب إليه من معاوية ، فكيف يتخطاهم معاوية جميعاً ، وينصب نفسه ولياً للدم ؟

ثم ما هي علاقة علي (ع) بمقتل عثمان ؟ ليس لعلي (ع) أي يد في قتله ، ولكن شخصاً مخادعاً ، مخاتلاً ، مثل معاوية ، لا يهمه كل ذلك ، إنه يريد فقط أن يستغل الحادثة لصالحه ، بأي صورة كانت .

وكان معاوية قد أوعز في وقت سابق إلى عيونه وجواسيسه، الذي بثهم حول عثمان ، بأن يرسلوا إليه فوراً ثوب الخليفة الملطخ بالدم ، عندما يسقط صريعاً .

وفعلاً ما إن قتل عثمان ، حتى قاموا بتنفيذ الأمر ، قبل أن يجف دم القتيل ، وبعثوا بالثوب الملطخ مع أصابع امرأة عثمان ، إلى معاوية ، على جناح السرعة .

وما أن استلم معاوية ثوب الخليفة ، والأصابع المقطوعة ، حتى بدأ يلعب لعبته ، فأمر أن تعلق أصابع امرأة عثمان إلى جانب منبره ، وشرع في الصباح : « يا أهل الشام ، قد كنتم تكذبونني في علي ، وقد استبان لكم أمره ، والله ما قتل خليفتكم غيره ، وهو أمر بقتله ، وألّب الناس عليه ، وآوى

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٣٣.

قتلتـه ، وهم جنده وأنصـاره ، وأعوانـه . . . »[1] وجلس هناك يصـرخ ويبكي على الخليفـة المظلوم! ، وظل مدة في الشـام على هذا الحـال ، يقرأ التعـازي على روح عثمان ، ويستدر دموع الناس عليه ، كيما يعبئهم للمطالبة بدمه .

فيا ترى ، ممن يزمعون أن يطلبوا بدم عثمان ؟!

إن مؤامـرة معاويـة تقضي بأن يـطلبـوا دم عثمـان من علي (ع) ، لأنـه بزعمهم شريك للقتلة في دم الخليفة ، والـدليل على ذلـك ، أن الثوار الـذين هجموا على بيت عثمان ، وقتلوه ، يقفون الآن في صف علي ، ويؤلفون قسماً من جيشه وعساكره !!

هـذه هي المشكلة المفتعلة التي اتخـذت من قبـل أشخـاص مغـرضين ذريعة ، لإشعال نار حربين عظيمتين : (الجمل) ، و(صفين) .

٢ ـ التشدد في إجراء العدالة :

وهنـاك مشكلة أخرى واجههـا علي (ع) ، تتعلق من جهـة بـأسلوبـه في الحكم ، ومن جهـة أخرى بـالتغيير الـذي تعرض لـه المجتمع الإسـلامي إبان خـلافة « الثـلاثة » : وهي أنـه (ع) ، كـان رجـلاً صلبـاً ، لا يلين في تـطبيق أحكام الإسلام .

فبعد النبي (ص)، ولسنوات عديدة ، تعود المسلمون شيئـاً فشيئاً على مسألة إعـطاء الإمتيازات لـلأفراد المقـربين من الخليفة ، والسلطة الحـاكمة ، ولكن عليـاً (ع) ، أبدى تصلبـاً شديـداً إزاء هذه المسـائـل ، وكـان يقـول : « . . . فـإن في العـدل سعــة ، ومن ضـاق عليــه العـدل ، فــالجـور عليــه أضيق »[2]، حتى إنّ أصحـابه جـاؤوا إليه يـوماً وقـد عاتبـوه على التسـويـة في العـطاء ، فقال لهم : « أتـأمرونّي أن أطلب النصـر بالجـور فيمن وليت عليه ،

---

(١) (راجع جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت : ج ١ ص ٣٢٧) . (تاريخ ابن الأثير : ج ٣ ص ٢٧٧) .

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة : ص ١٩ .

والله لا أطور به ما سمر سمير»[1] أي تطلبون مني أن أسعى لتحقيق أهدافي بالظلم، وغمط حقوق الناس ؟ كلا لن يكون مني هذا أبداً ، وإن طال الزمان .

٣ ـ الصراحة والصدق في السياسة :

والمشكلة الثالثة التي واجهها علي (ع) ، في عهد خلافته ، هي مسألة صدقه وصراحته في مجال الحكم والسياسة ، ولم يستحسن ذلك أيضاً بعض أصحابه ، وقالوا في ذلك : إنَّ هذا غير مقعول ، لأنَّ السياسة لا تتطلب هذا القدر من الصراحة والعفوية ، ولا بد أن يشوبها شيء من المراوغة ، والدَّهاء لأن ذلك بمثابة ملح السياسة ، حتى إن بعضهم قالوا : إنَّ علياً ليس عنده سياسة أصلاً ، على العكس من معاوية الذي هو في نظرهم سياسي داهية ، فكان علي (ع) يقول : « والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر ، لكنت من أدهى الناس ، ولكن كل غدرة فجرة ، وكل فجرة كفرة ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة »[2] .

فالتقوى هي التي حالت بينه (ع) ، وبين أن يخوض مع الخائضين في المؤامرات والألاعيب السياسية الماكرة ، ودفعته إلى الإلتزام بالصدق ، والإستقامة في كل مجالات الحياة ، حتى في السياسة والحكم .

وقد يفهم من العبارة الأخيرة : « ولكل غادر لواء » أن الإمام يقصد تحذير الناس من الإنخداع والسير ، وراء الحاكم الغادر الفاجر ، وإلاّ حشدوا تحت لوائه يوم القيامة ، ويا له من مصير سيء !

٤ ـ الخوارج : مشكلة علي (ع) الرئيسة :

قبل الدخول في هذا الموضوع ، لا بأس من عرض مقدمة سريعة له ، وهي أن المسألة الأساسية التي يستهدفها الإسلام، ليست بالدرجة الأولى تعبئة

---

(١) المصدر نفسه : ص ٤٦ .

(٢) المعجم المفهرس للألفاظ نهج البلاغة : ص ٧٥ .

المسلمين ـ أو المجموعة الطلائعية منهم ـ تحت راية الجهاد والثورة ، وخوض غمار الإنتفاضات ، والحروب بهم .

وإنما هي قبل كل ذلك تربية الطلائع تربية إسلامية واقعية بكل أبعادها ، كما هو مفاد الآية الكريمة : ﴿ **يتلوا عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾[1] .

فقد علم النبي (ص) طبقة من المسلمين الأوائل ، وفقههم في الدين ، وسار بهم خطوة خطوة ، وبث في روحهم تدريجياً التعليم والتربية الإسلامية ، حتى صاروا يفهمون ما هو معنى الإسلام بشكل عميق وراسخ .

وبقي (ص) في مكة ثلاثة عشر عاماً ، وتحمل خلالها أنواع الأذى والتعذيب من قريش ، ولكنه كان على الدوام يعطي الأمر بالصبر والتريث .

وكم حدث أن طلب منه أصحابه أن يأذن لهم بالدفاع عن أنفسهم قائلين : يا رسول الله ـ كم ينبغي أن نتحمل الأذى ، وإلى متى يستمر هؤلاء في ابتزازنا وإذلالنا ؟ وإلى متى يظلون يطرحوننا على رمال البطحاء الساخنة ، ويضعون على صدورنا كتل الصخر اللاهبة ؟ وكم ينبغي لنا أن نسمح لهم بأن يلهبوا أجسادنا بسياطهم ؟ ولكن الرسول (ص) لم يكن ليعطي الإذن بالجهاد ، والدفاع .

ولما استفحل أمر قريش أكثر ، أعطى (ص) الإذن بالهجرة ـ فقط ـ لمجموعة من المسلمين إلى الحبشة ، وأجّل مسألة المواجهة المسلحة مع الكفار إلى إشعار آخر ، وإلى أن يبلغ المسلمون المستوى المطلوب للقتال ، والمواجهة العسكرية .

وهكذا كان النبي (ص) مدة بقائه في مكة ، يربي ويعلم ، وبعبارة أخرى : كان يعمل على إيجاد النواة الأساسية للإسلام ، وحتى أولئك النفر الذين أرسلهم للهجرة ، وكانوا حوالي ألف رجل وامرأة ، اختارهم بحيث

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٤ .

يكـون أكثرهم من الـذين تربـوا تربيـة إسلاميـة كاملة ، وأصبحـوا من العارفين بروح الإسلام .

فـالشرط الأول لأيـة حركـة ، أو نهضـة ، هـو إيجـاد قـاعـدة تعليميـة ، وتربوية ، تتكون من الأفراد الذين تلقـوا التعليم والتربيـة اللازمين ، وأصبحـوا مـطلعين على الأصول ، والأهـداف ، والخـطط العمليـة المـطلوبـة ، ويمكن إيجاد هؤلاء بصورة نواة مركـزية أولاً ، ثم جعـل من يلتحق بهم ، بعد ذلـك ، من الأفراد ، تلاميذ لهم ، يكيفون أنفسهم وفقاً لطريقتهم ، ومنهجهم ، وهـذا هو سرّ النجاح في الإسلام .

ولـلأسف ، ففي عهد الخلفـاء ـ وخصوصـاً في عهد عثمـان ـ لم يتابـع هؤلاء مسألة التعليم والتربية كمـا فعل النبي (ص) ، وحصـل فتور وتـراخ في هذا الأمر البالغ الأهمية . في الوقت الذي ازدادت فيه الفتـوحات الإسـلامية، ومعلوم أن الفتـوحات لـوحدهـا ، لا تضـع شيئـاً ذا بـال، إذ ينبغي أولاً إعـداد الأفراد اللائقين ، القادرين على حمل المسؤوليات الجسيمة .

وإذا كـان لا بد من القيـام بالجهـاد والفتوحـات ، والتـوسـع الإقليمي ، فينبغي أن يكـون ذلك بـالتناسب مـع تعميق الفكر الإسـلامي ، ونشر الثقـافـة الإسـلاميـة ، حتى تتمكن الشعـوب التي تـدخــل في الإسـلام ـ أو تلك التي تنجذب إليه ـ أن تتفهم الدين الإسلامي . وتتعرف على أصول وحقائق وأهداف الإسلام ، وتحيط علماً بقشر الدين ، وتليّه معاً .

ولكن على أثر الغفلة التي حصلت في زمان الخلفاء ، كانت النتيجـة أن إحـدى الـظواهـر الإجتمـاعيـة التي حـدثت ، هي بـروز طبقـة من النـاس بين المسلمين ، يحبـون الإسـلام ويؤمنـون بـه ، ولكنهم لا يعلمــون إلاّ ظـاهــر الإسلام ، وقشره فقط ، ولا يعـرفون شيئـاً عن روح الإسلام وجـوهره ، وهـذه الطبقة ، جـلّ همها العبـادة والصلاة ، دون البحث عن المعـرفة ، أو محـاولة التعرف على الأهداف الإسلامية .

وكانت طبقة من الأفراد المتنسكين، الزاهدين ، المتظاهرين بالقداسة ،

وهي قداسة فارغة من المحتوى والمضامين ، ولما حدث أن تمردوا وأعلنوا العصيان على علي (ع) أرسل إليهم الإمام عبدالله بن عباس ، وعندما رجع بخبرهم ، وصفهم هكذا : « لهم جباه قرحة لطول السجود ، وأيد كثفنات الإبل ، عليهم قمص مرحضة ، وهم مشمرون » . يقول : كانت آثار الجروح بادية على جباهم ، لأنهم كانوا يطيلون السجود على رمال الأرض من شدة الخشوع ، وكذلك ظهرت الأورام والدماميل في أيديهم لذات السبب ، وهم يلبسون ثياباً قديمة تحكي عن الزهد الشديد ، وقيافتهم بشكل عام تدل على التصميم والجد .

ويصف علي (ع) هذه الطبقة المتنسكة الجاهلة هكذا : « جفاة طغام ، عبيد ، أقزام ، جمعوا من كل أدب ،وتلقطوا من كل شوب ، ممن ينبغي أن يفقه ويؤدب ، ويعلم ويدرب . . . ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا من الذين تبوأوا الدار والإيمان . . . . »[1] : أي هم طائفة من الناس ، غلاظ القلوب ، أوغاد ، ذوو نفوس منحطة ، عبيد لأهوائهم ، ليس عندهم إرادة حرة ، ولا فكر مستقل ، إنهم مجموعة من الأرذال والأوباش ، ليس لهم أصل ولا فصل ، ولا يدري أحد من أين جاءوا ، ولا كيف ظهروا . . . كان ينبغي لهم أن يجلسوا كتلاميذ في الصف الأول لمدرسة الإسلام ، ويتعلموا دروس الدين من البداية . . . إنهم لا يدرون ما القرآن ، ولا يعرفون معناه ، ولا يفهمون سنّة النبي (ص) . . . ليسوا من المهاجرين والأنصار الذين تربوا على يد رسول الله (ص)، ولا من الذين التحقوا بهم ، وسلكوا سبيلهم .

وهكذا استلم علي (ع) زمام الخلافة ، في ظروف ظهرت فيها طبقة كهذه بين المسلمين ، وكانوا ينتشرون في كل أنحاء الدولة الإسلامية ، وحتى بين صفوف عساكر علي (ع) كان لهم وجود أيضاً .

وفي حرب (صفين)، عندما أحسَّ معاوية أن الهزيمة أصبحت منه قاب قوسين أو أدنى ، استشار أصحابه ، فأشار عليه عمرو بن العاص برفع

---

(١) المعجم المفهرس : ص ٨٣.

المصاحف على أسنة الرماح ، ودعوة معسكر علي (ع) ، إلى تحكيم القرآن ، لحسم الخلاف[١].

وكان جوهر هذه الخطة، هو الإستفادة من هذه الطبقة بالذات ، وتحريكها بهذه الخدعة ، للتمرد على القيادة الشرعية ، وبالتالي يتعادل التوازن العسكري بين الطرفين ، أو ينقلب لصالح معسكر معاوية .

وهكذا رفعوا المصاحف على الأسنة ، وقالوا : « هذا كتاب الله عزّ وجلّ ، بيننا وبينكم ، من ثغور أهل الشام ، بعد أهل الشام ، ومن ثغور أهل العراق ، بعد أهل العراق! »[٢] .

فكان أثر هذه الحيلة أن كفت هذه الطبقة التي تكلمنا عنها ، فوراً عن القتال، وقالوا : « نجيب إلى كتاب الله عزّ وجلّ ، وننيب إليه ».

ثم جاؤوا إلى علي (ع) ، بعد أن حلت القضية حسب زعمهم ، حيث دخل القرآن في وسط المتحاربين ، ولم يعد للحرب أي معنى !

فقال لهم علي (ع) : فاحفظوا عني نهيي إياكم ، واحفظوا مقالتكم لي ، أما أنا فإن تطيعوني تقاتلوا ، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم !

قالوا له : إما لا فابعث إلى الأشتر . فليأتك . وكان مالك الأشتر حينذاك يواصل التقدم ، وينتقل من نصر إلى نصر ، فطلبوا من علي (ع)، أن يأمر مالكاً بالرجوع لأن القتال مع القرآن غير جائز .

وضغطوا كثيراً فأرسل علي (ع) إلى الأشتر ، يزيد بن هانىء السبيعي ، أن أئتني . فأتاه فبلغه ، فقال : قل له : ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي، إني قد رجوت أن يفتح لي ، فلا تعجلني .

فرجع يزيد بن هانىء إلى علي (ع) فأخبره . فارتفع الرهج ، وعلت

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٥ ص ٤٩.

(٢) تاريخ الطبري : ج ٥ ص ٤٨.

الأصوات من قبل الأشتر ، فقال له القوم : والله ما نراك إلّا أمرته أن يقاتل ! قال (ع) : من أين ينبغي أن تروا ذلك ! رأيتموني ساررته ؟ أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية ، وأنتم تسمعونني !

قالوا : فابعث إليه فليأتك ، وإلّا والله اعتزلناك . قال له (ع) : ويحك يا يزيد ! قل له : أقبل إليَّ فإنَّ الفتنة قد وقعت، فأبلغه ذلك ! فقال له: ألرفع المصاحف ؟ قال يزيد : نعم . قال الأشتر : أما والله لقد ظننت حين رفعت أنها ستوقع اختلافاً وفرقة ، إنها مشورة ابن العاهرة ! ألّا ترى ما صنع الله لنا ؟ أينبغي أن أدع هؤلاء وأنصرف عنهم ؟

قال يزيد بن هانىء : فقلت له : أتحب أنك ظفرت ها هنا ، وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به ، يفرج عنه ، أو يُسَلَّم ؟ قال : لا والله ، سبحان الله ! قال يزيد : فإنهم قد قالوا : لترسلن إلى الأشتر فليأتينك أو لنقتلنك كما قتلنا ابن عفان .

ورجع مالك ، وبرزت قضية الحكمين ، فتحمس لها القوم ، وألحوا على إجراء التحكيم .

وكان معاوية قد عيَّن عمرو بن العاص الماكر ، أحد الحكمين . فاقترح عليّ (ع) ابن عباس ، العالم النابه ، ولكنهم رفضوا وقالوا : ما نبالي أنت كنت أم ابن عباس ، لا نريد إلّا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر . فقال علي (ع) : فإني أجعل الأشتر ! فرفضوا قائلين : « وهل سعَّر الأرض غير الأشتر ! » وهكذا كلما أقترح الإمام أحداً ، رفضوه إلى أن قالوا : نحن لا نرضى إلّا بأبي موسى الأشعري !!.

من هو أبو موسى الأشعري هذا ؟ وهل كان من أفراد جيش علي (ع) ؟ كلا ، وإنما كان قبل ذلك حاكماً على الكوفة ، ولما تولى علي (ع) ، الخلافة ، عزله عن منصبه هذا ، ولذا كان أبو موسى - في الواقع - إنساناً يحمل في قلبه الحقد والعداء لعلي (ع). وهو نفسه الذي قال فيه أمير المؤمنين (ع) : « . . . فإنه ليس لي بثقة ، قد فارقني ، وخذل الناس عني ،

ثم هرب مني ، حتى آمنته بعد أشهر ! »[1].

وهكذا جاؤوا بهذا الشخص ، واختاروه من طرفهم لإجراء التحكيم على الرغم من رفض الإمام الخليفة الشرعي لهذا الإختيار .

وما إن بدأت عملية التحكيم التي كانت أشبه بالمهزلة منها بالجد ، حتى خرج أبو موسى الأشعري ، منهزماً ، أو متفقاً ، قل ما شئت ، أمام خدعة عمرو بن العاص المعروفة في التاريخ .

وعند ذلك انتبه القوم إلى خطئهم ، ولكن طريقة اعترافهم بهذا الخطأ كانت بحد ذاتها ، خطأ آخر أدهى وأمرّ ، فلم يقولوا : أخطأنا يوم طلبنا إيقاف الحرب مع معاوية ، إذ لم تكن محاربتنا لجنود معاوية وهم يرفعون المصاحف خدعة ، محاربة للقرآن .

وكذلك لم يقروا بخطئهم في تعيين أبي موسى حكماً ، في حين كان ينبغي لهم أن يقبلوا بتعيين ابن عباس ، أو مالك الأشتر ، وإنما قالوا : إنَّ قبولنا بالتحكيم في دين الله كفر من الأساس ، فالقرآن يقول : ﴿ **إن الحكم إلاّ لله** ﴾[2]، وجاءوا إلى علي (ع) ، وقالوا له : لا حكم إلاّ لله ، تب من خطيئتك . وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقي ربنا .

فقال لهم علي (ع) : قد أدنكم على ذلك فعصيتموني ، وقد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً ، وشرطنا شروطاً ، وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا .

فقال له حرقوص بن زهير السعدي : ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه وتستغفر الله كما فعلنا نحن .

وكان جواب الإمام (ع) لهم : لقد التبس الأمر عليكم ، فالتحكيم ليس بكفر ، وقد أخطأتم في فهم القرآن . إن آية ﴿ **إن الحكم إلاّ لله** ﴾ . تعني أن القانون يوضع من قبل الله تعالى ، أو من قبل شخص أذن الله له في ذلك .

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٥ ص ٥١.

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٥٧.

والتحكيم لم يكن بمعنى الخضوع لغير حكم الله ، فالحكمان كانت وظيفتهما الحكم طبقاً لنصوص القرآن ، لا أكثر ولا أقل .

تعامل أمير المؤمنين (ع) مع الخوارج :

فكان ردّ فعلهم أن انفصلوا عن خط علي (ع)، وخرجوا عليه ، وأصبحوا فرقة تدعى بالخوارج . ثم إنهم عملوا ما في وسعهم لإيذاء الإمام ، والإساءة إليه . ولكن الأمير (ع) استعمل أقصى حد ممكن من المداراة معهم . ما دام أنهم لم يشهروا السيف، حتى إنه لم لم يقطع حقوقهم في بيت المال ، ولم يقيد حرياتهم . وكانوا يأتون إليه أمام الناس، ويتجسرون بحضرته إلى حدّ توجيه الإهانات الوقحة ، ولكنه (ع) كان يعتصم بالحلم ، ولا يرد عليهم .

فمثلاً بينما كان الإمام (ع) يوماً على المنبر يخطب. كان أحد هؤلاء يثير الصخب والضجيج ، ويصدر أصواتاً غير مهذبة.

وفي يوم آخر سأله أحد الناس مسألة ، فأجابه بجواب بليغ أثار تعجب الحاضرين واستحسانهم ، فارتفعت أصواتهم بالتكبير ، ولكن خارجياً كان بينهم فقال : « قاتله الله ما أفقهه ! » فأراد أصحاب علي (ع) أن ينقضوا عليه ، فقال لهم الإمام : رويدكم ، ماذا تريدون منه ؟ إنه سبني ولكم فقط أن تردوا عليه سبابه لا أكثر . أتركوه وشأنه .

وفي يوم ثالث ، كان علي (ع) منشغلاً بالصلاة ، والناس يصلون خلفه (طبعاً لم يكن الخوارج يقتدون به ، لأنهم سبق أن أفتوا بكفره) ، وبينما كان يقرأ الحمد والسورة جاء أحدهم ، ويدعى « ابن اكلوا » وأخذ يقرأ هذه الآية بصوت عال : ﴿ **ولقد أوحى إليك ، وإلى الذين من قبلك : لئن أشركت ليحبطنَّ عملك ، ولتكونن من الخاسرين** ﴾[1]، فكان يريد أن يقول : يا علي ، نحن نقر بأنك أول من دخل في الإسلام ، ونعترف بأن لك سوابق

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٦٥.

عظيمة ، وخدمات جليلة للدين ، وأنك من المجتهدين في العبادة . . . ولكن لأنـك كفرت ، وجعلت لله شـريكاً (إشـارة إلى مسألـة التحكيم)، فقـد حبط عملك ، وليس لك أجر عند الله !!

فماذا كان من علي (ع) ؟ إنه ما إن بدأ الخارجي بتـلاوة هذه الآيـة حتى توقف الإمام (ع) عن القراءة ، عملاً بـالآية الكـريمة : ﴿ وإذا قـرىء القرآن فاستمعوا له ، وانصتوا ﴾[1]. ولما انتهى من التلاوة ، عاد الإمام إلى قراءته ، وهكذا ظل الخـارجي يكرر الآيـة؛ ، وفي كل مـرة ، كان الإمـام (ع) يسكت وينصت ، ثم يعود ويواصل .

وفي المرة الرابعة : واصل الإمام صلاته ، ولم يلتفت، وقرأ هذه الآية ؛ ﴿ فاصبر إنَّ وعدَ الله حقّ ، ولا يستخفنَّك الذي لا يوقنون ﴾[2].

أصـــول مذهب الخوارج :

هل اقتنع الخـوارج بهذا القـدر من الإيذاء ؟ كـلا ، ولو كـانوا فعلوا لمـا كونوا مشكلة كبيرة بالنسبة إلى علي (ع) . ولكننا نراهم أخذوا يتجمعون شيئاً فشيئاً ، حول بعضهم ، وشكلوا حزباً ، بل فرقة إسلامية منشقة (عنـدما أقـول إسـلامية ، لا أعني أنهم في الـواقع جزء من المسلمين ، فهم في نظرنـا كفار خرجوا من الـدين) ، وابتدعـوا مذهباً جديـداً في دنيا الإسـلام ، واصطنعـوا لمذهبهم أصولاً وفروعاً وقالوا : ليس منّا إلاّ من يعتقد بالدرجة الأولى بأن كـلاً من عثمان ، وعلي ، ومعاويـة ، وكذلـك من رضي بالتحكيم ، جميعهم كفـار على السواء ، ونحن أيضاً بدورنا كفـرنا ، ولكننـا تبنا ، وكـل من لا يتوب ، لا نعتبره مسلماً أبداً .

وقالوا أيضاً : إن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، مسألة مطلقة ، لا تقيـد بأي شـرط ، فيجب القيام ضـد الإمام الجـائـر ، أيـاً كـان ، وفي كـل

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٤ .

(٢) سورة الروم ، الآية : ٦٠ (راجع الطبري : ج ٥ ص ٧٣ .

الظروف ، ولو حصل اليقين بعدم جدوى هذا القيام ! وهذه الفتوى صبغتهم بصبغة بالغة العنف والخشونة .

ووضعوا أصلاً آخر لمذهبهم ، يحكي عن جهالتهم، وضيق نظرهم ، فقالوا : إنَّ العمل جزء من الإيمان ، وليس لدينا إيمان منفك عن العمل . فالإنسان لا يصبح مسلماً بتلفظ الشهادتين ، بل ينبغي أن يضم إلى ذلك أداء فريضة الصلاة والصيام ، والعبادات المفروضة كافة ، وكذلك أن لا يشرب الخمر ، ولا يلعب القمار ، ولا يزني ، ولا يكذب ، وأن يتجنب الكبائر جميعها ، لكي يصح إطلاق اسم المسلم عليه ، وإذا كذب المسلم كذبة واحدة ، خرج أصلاً من الإسلام ، وأصبح كافراً نجساً ، وإذا اغتاب ، أو شرب الخمر ، ولو لمرة واحدة ، وهكذا ، فمرتكب الكبيرة عندهم خارج عن دين الإسلام .

واصطنعوا ـ أيضاً ـ سلسلة من الأصول الأخرى ، التي يستفاد من مجموعها أنهم اعتبروا أنفسهم المسلمين الوحيدين على وجه الأرض ، وأخرجوا بقية الطوائف بذلك عن حظيرة الإسلام .

وحيث أن أحد أصول مذهب الخوارج هو الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر مطلقاً ، دون أي قيد أو شرط ، كما ذكرنا ، وحيث أنهم اعتبروا علياً (ع) كافراً ، إذن لم يبق أمامهم طريق إلّا القيام ضده ، والثورة عليه ، فنصبوا خيمة خارج معسكر علي (ع) ، وأعلنوا التمرد والعصيان رسمياً ، وبلا سابق إنذار .

واتبعوا في تمردهم أساليب بالغة الغلظة والخشونة ، ولأنهم لم يكونوا يعتبرون الآخرين من المسلمين ، فقد قرروا أن لا يزوجوهم ، ولا يتزوجوا منهم ، وحرموا أيضاً ذبائحهم .

والأكثر من ذلك ، أنهم أهدروا دمهم ، وجوزوا قتل أطفالهم ونسائهم ، وارتكبوا سلسلة من أعمال السلب والنهب ، والقتل ، ضد المسلمين ، وأصبحت أوضاعهم بذلك بالغة الغرابة حقاً .

وكمثال واحد على أعمالهم الإجرامية : إنه كان أحد صحابة النبي (ص) يمرّ بمنطقتهم ، بصحبة زوجه الحامل ، فاعترضوا طريقه ، وطلبوا منه أن يتبرأ من علي (ع) ، فلم يفعل ، فما كان منهم إلاّ أن قتلوه أبشع قتلة ، وبقروا بطن امرأته بالرماح ، لأنه بزعمهم كافر ، مهدور الدم[1] .

وبقدر ما كانوا يستبيحون حرمات الآخرين ، كانوا يتشددون فوق الحد ، في المحافظة على حرمات أتباعهم ، فمثلاً كان جماعة منهم يمرون ببستان نخيل ، يتعلق بأحد الموالين لهم ، فمدَّ واحد منهم يده ، واقتطف حبة من التمر ، وضعها في فمه ، فما كان منهم إلاّ أن إنهالوا عليه ، يهددونه ، ويتوعدونه ، ويغلظون له القول ، لأنه بنظرهم تعدى على مال أخيه المسلم[2] .

مواجهته (ع) للخوارج :

وأخذ أمرهم يستفحل أكثر فأكثر ، إلى أن وجد الإمام (ع) نفسه مضطراً إلى أن يضرب معسكراً في مقابلهم ، وكان عددهم قد بلغ حوالي اثني عشر ألفاً ، وأصبحوا يشكلون خطراً جدياً ، بحيث لا تجوز المهادنة معهم ، وإرخاء الحبل لهم ، أكثر من ذلك .

وأرسل إليهم ابن عباس مندوباً عنه ، يناقشهم ويفاوضهم ، ولكنه لم يستطع أن يصنع شيئاً معهم ، وعاد خالي الوفاض[3] .

فذهب إليهم أمير المؤمنين (ع) بنفسه ، وكان حديثه معهم مؤثراً ، بحيث أن كثيراً منهم ، ندموا على عملهم ، وطلبوا قبول توبتهم ، فأمر علي (ع) ، بنصب راية أمام معسكره ، وأعلن أن كل من يأوي من الخوارج إلى هذه الراية، فهو في أمان .

---

(١) هو عبدالله بن خباب ، وكانت زوجه وهي حامل ، معه . (راجع تفاصيل القصة في تاريخ الطبري : ج ٥ ص ٨٢) .

(٢) تاريخ الطبري : ج ٥ ص ٨٢ .

(٣) المصدر السابق : ج ٥ ص ٧٣ .

وكـان الذين رجعـوا ، وتجمعوا تحت رايـة الأمان ، ثمـانية آلاف رجـل منهم ، أمـا الأربعة آلاف البـاقون ، فـأصروا على مـوقفهم ، وأعلنوا استحـالة رجوعهم عن عقيدتهم .

وعنـد ذاك شنَّ عليهم الإمـام بجيشــه هجومــاً عنيفـاً ، وأعمل فيهـم السيف ، برغم كونهم من العابدين الزاهدين ، والمصلين الخـاشعين ، الذين كثرت الثفنات والقروح في أيديهم ، وجباههم ، من كثرة السجود .

وظل يضرب منهم الرقاب إلى أن أتى عليهم جميعـاً ، ولم ينجُ منهم إلاّ أقل من عشرة أشخاص ، بينهم عبد الرحمٰن بن ملجم .

وهنا لا بدّ لنا من وقفة نتأمل فيها هذا الموقف الخطير الذي اتخذه الإمام تجـاه هذه الفـرقة الضـالة ، وهـل أن اتخاذ مثـل هـذا المـوقف ، أمـر ميسـور لشخص آخر غير الإمام علي (ع) ؟

إنَّ عامة المسلمين آنـذاك ، وخصوصـاً الذين كـانوا يقـاتلون تحت لواء علي (ع) ، كانوا ينظرون إلى أفراد هـذه الفرقـة على أنهم من المسلمين وإن اختلافهم مع القيادة لا يخرجهم من حظيرة الإسلام ، سيما وأنهم أهل عبادة ، وزهادة ، وآثار القداسة بادية على محاياهم ، وهم يحـرمون على أنفسهم حتى الصغـائر ، ويتعصبـون للدين بشكل يصعب على أي أحـد ليس عنـده بصيـرة حادة ، وبصر نافذ ، أن يحكم عليهم بالكفر ، ويجوز قتلهم .

وفي الواقع لا يمكن أن يتجرأ أحد على قتل أفراد مسلمين متـدينين ، لا يفارق ذكر الله ، وقراءة القرآن ، شفاههم ، إلاّ نوعان من الناس :

النوع الأول : أناس لا يعتقدون بالله واليوم الآخر ، ولا بالإسلام ، مثل جماعة يزيد ، الذين قتلوا الحسين (ع) ، وأصحابه .

النـوع الثاني : أنـاس يملكون من العلم والبصيـرة ، ما يتمكنـون به من اختراق ستار القداسة والجـلالة ، ليصلوا إلى الجـوهر الخبيث الكـافر . وهـذا النوع ينحصر في فرد واحد ، وهو شخص الإمام علي (ع) .

يقول أمير المؤمنين (ع) ، في (نهج البلاغة) : « أنا فقأت عين الفتنة ، ولم يكن ليجترىء عليها أحد غيري ، بعد أن ماج غيهبها ، واشتد كلبها . . . »[1]

يقول (ع) بافتخار : أنا الذي وجهت ضربة قاصمة للخوارج ، ولم يكن أحد غيري يملك الجرأة على تصفية أولئك المنشقين ، وإخماد فتنتهم ، وقد تمَّ هذا الأمر كما يقول الإمام « بعد أن ماج غيهبها ، واشتد كلبها . . . . » .

والشق الأول من هذه العبارة : يشير فيه إلى ظلمات الشبهات والشكوك التي كانت ترسل أمواجها بين المسلمين لتغمرهم ، وتجعل هذا الأمر ملتبساً عليهم ، بحيث لا يتمكنون أن يخرجوا من دائرة الحيرة والتردد في أمر هؤلاء .

والشق الثاني : يشير فيه إلى استعار هذه الفتنة ، وقابليتها الكبيرة للإنتشار بين المسلمين ، باحتكاكهم مع هؤلاء ، تماماً مثل انتشار مرض الكلب بين الذين يحتكون مع الكلاب المسعورة .

فكما أن كل من يرى كلباً مسعوراً ، يعطي لنفسه الحق بأن يقتله ، حتى لا يعض الآخرين ويسعرهم ، فإن الإمام (ع) يقول :

لقد رأيت هؤلاء الكلاب المسعورة ، فأدركت خطرهم على الإسلام ، والمسلمين حالياً ، وعلى مرّ العصور والأجيال ، ورأيت أن لا مفرّ من إعدامهم ، وإلاّ فإنهم سرعان ما ينقلون مرضهم إلى غيرهم ، ومن ثم يغرقون المجتمع الإسلامي في بحار الحماقة والجهل ، والجمود ، والتحجر الفكري .

مميزات الخوارج :

كان للخوارج عدة مميزات :

واحدة منها : هي الشجاعة الفائقة ، وروح الفداء العظيمة التي كانوا

---

(١) المعجم المفهرس : ص ٣٦.

يتحلون بها ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن تصرفاتهم كانت تصدر عن عقيدة راسخة ، ولهم قصص عجيبة مذكورة في التاريخ تبين مدى إقدامهم ، وتضحياتهم في الحرب .

والميزة الأخرى : أنهم متنسكون، يجتهدون كثيراً في العبادة ، وهذا ما أوقع سائر المسلمين في الشك والشبهة ، حيالهم ، ولذلك لم يكن أحد غير علي (ع) يمتلك الجرأة على قتلهم .

والميزة الثالثة : هي الجهل الزائد ، والحماقة العجيبة التي كانت تسيطر عليهم ، وتجعل أفكارهم جامدة متحجرة ، ولا يتنازلون عن قناعاتهم الباطلة ، أمام الدليل والبرهان .

والميزة الرابعة : هي الدور الذي مثلوه ، ويمثله اليوم أشباههم ، وهم مع الأسف كثيرون في عالمنا الإسلامي ، وهو الدور المتمثل في مساعدة المنافقين والمغرضين في تمرير خططهم ، وتنفيذ أهدافهم المعادية للإسلام والمسلمين .

وكان مما خاطبهم به علي (ع) :

« ثم أنتم شرار الناس ، ومن رمى به الشيطان مراميه . . . »[1]، عجيب ! كيف يخاطب الإمام أولئك العباد الذين نهكتهم العبادة والزهادة ، بهذه العبارة العنيفة ، في حين أن الآخرين عندما كانوا ينظرون إليهم ، كانوا لا يرون إلّا أنهم أناس مسلمون ، جديرون بالإحترام .

ولكن تحليل الإمام لهم ، والذي استوجب مخاطبتهم بهذه الصفة ، هو أنهم ، برغم مظهرهم الخارجي ، فإنهم ليسوا في الواقع ، إلّا وسيلة فعالة بيد الشيطان ، فهم بمنزلة السهام التي يضعها في قوسه ، ويطلقها ليصيب بها أهدافه الخبيثة .

---

(١) المعجم المفهرس : ص ٤٧ .

ولقد استفاد أفراد منافقون مثل عمرو بن العاص ، ومعاوية ، من هؤلاء المتدينين القشريين ، كأدوات للوصول إلى ما يريدون .

لقد كان ابن العاص ، ومعاوية ، وأشباههما ، يعرفون تماماً من هو علي (ع) ، لأنهم كانوا من العلماء ، والمسلّمين بحقائق الأشياء .

فهذا معاوية ، كما يشهد التاريخ ، كان كلما يأتي إليه أحد صحابة علي (ع) المقربين ، بعد استشهاده (ع) ، كان يطلب منه أن يصف علياً ، وعندما كان يسمع الوصف ، كانت دموعه تجري بغزارة ، ويقول : « هيهات أن يلد الدهر رجلاً مثل علي ! »[1].

ولما كان حب الدنيا قد غلبه ، ولما كان يعلم أنه غير قادر على مواجهة هذه الشخصية العظيمة بالطرق الإعتيادية ، فإنه لم يجد أمامه من يعينه لتحقيق أهدافه ، إلاّ هؤلاء الخوارج ، السريعي الإنخداع ، والذين كانوا مستعدين لتكرار كل ما يلقنه لهم المغرضون ، من اتهامات زائفة ، حتى لو وصل الأمر إلى اتهام علي (ع) ، بالكفر والشرك .

وهذه المصيبة استمرت عبر العصور ، وإلى يومنا هذا ، فلم يسلم علماؤنا ، ورجالنا المخلصون ، على مرّ الزمن ، من توجيه أبشع التهم إليهم على هذا النسق الذي ذكرناه . .

وأنقل لكم هنا هذه القصة ، لكي يتنبه المسلمون ، ولا يكونوا أمثال خوارج (النهروان) ، ولا يسمحوا لأنفسهم أن يكونوا سهاماً في جعبة الشيطان.

اتصل بي أحد الأصدقاء يوماً ، وقال : سيدي ! لقد سمعت أمراً عجيباً : إن (إقبال الباكستاني) الذي أقمتم له حفلاً تأبينياً قبل فترة ، هو نفسه الذي يقولون إنه وجه في كتابه إلى الإمام جعفر الصادق (ع) ، الإهانة ، والشتائم ! .

---

(١) راجع تاريخ المسعودي : ج ٣ ص ٢٤٤ .

فقلت : ما هذا الكلام ؟ قال : أنظر الصفحة الفلانية من الكتاب الفلاني .

قلت : هل قرأت ذلك بنفسك ؟ قال : كلا ، ولكن الخبر نقله لي أحد أصدقائي الثقات .

فانصعقت حينها ، وقلت في نفسي متعجباً : كيف أن بعض أصدقائي من أمثال السيد (سعيدي) ، والذين كانوا قد قرأوا (ديوان إقبال) من أوله إلى آخرة ، لم يتنبهوا لشيء من هذا القبيل !

ثم إني اتصلت بالسيد (غلام رضى سعيدي) ، وطرحت عليه المسألة ، فتحيَّر وقال : لا لم أقرأ شيئاً كهذا .

فقلت : عجباً ! أيمكن لأحد أن يطلق كذبة كبيرة كهٰذه ؟

وبعد قليل تذكر شيئاً ، فجاء وقال : لقد أدركت السر ، فالقصة هي : إن هناك شخصين ، أحدهما يدعى جعفر ، والآخر صادق ، وعندما جاء الإنجليز ، واحتلوا بلاد الهند ، ثار المسلمون ضدهم ، فتواطأ هذان مع الأجانب ، ووجها طعنة من الخلف إلى تلك النهضةُ الإسلامية ، وتسببا في القضاء عليها .

فأخذ (إقبال) يذمهما في كتابه ، وأنا أظن أنَّ الإشتباه الذي وقع ، ناشيء من هنا .

فقلت : سوف نرى بأنفسنا .

فأحضرنا الكتاب ، وفتحنا الصفحة التي أشار إليها صاحب الهاتف ، فإذا بـ(إقبال) يكتب هكذا : « في أي مكان في الدنيا رأيت خراباً ، فاعلم إن وراءه جعفراً ، أو صادقاً . وقبلها بصفحتين يقول :

جعفر من «البنغال»، وصادق من «دكن»
كلاهما عار الدين، وعار الدنيا، وعار الوطن

إنه يذكر جعفراً « البنغالي »، وصادقاً « الدكني »، فهل الإمام جعفر (ع) من أهل « البنغال » أم من أهل « دكن » ؟.

وبعد ذلك قمنا بتحقيق تاريخي ، فاتضح لنا إن الإنجليز، عندما احتلوا الهند ، كان هناك زعيمان شيعيان : أحدهما يدعى (سراج الدين) ، والآخر (طيغو سلطان) (يظهر أن الأول كان في جنوب الهند ، والثاني في شمالها) ، فثار هذان البطلان ضد الإنجليز (حيث مدحهما (اقبال)، في كتابه ، غاية المدح). وهنا قام الإنجليز باصطناع شخص لهم باسم جعفر ، في جبهة (سراج الدين) ، وآخر باسم صادق في جبهة (طيغو سلطان)، وكان هذان الشخصان من الخونة المتواطئين ، فقاما بنقل الأخبار والأسرار للمستعمرين ، مما ساعدهم في سحق هاتين الإنتفاضتين ، وبالتالي تمكنوا من بسط نفوذهم على بلاد الهند لمدة ثلاثمائة سنة .

والآن وبعد مرور ثلاثة أشهر على إقامة ذلك الحفل التأبيني ، فإنه يندر أن يمر يوم دون أن أواجه السؤال نفسه ، وأجد من يقول لي : يا سيدي إن هذا الشاعر الذي تنشدون قصائده في مدح الحسين (ع) ، لماذا يتعرض للإمام جعفر الصادق (ع) بالشتم ؟

والشيء المضحك الذي آلمني كثيراً ، هو أن القضية انعكست في المحافل غير الإسلامية ، فأصبحوا يقولون هناك بسخرية : إن (إقبال الباكستاني) هجا « جعفر البنغالي »، و« صادق الدكني » ، بينما المسلمون ، حيثما جلسوا ، كانوا يقولون إن (إقبالاً) شتم الإمام الصادق (ع) وأهانه !!.

إننا في الواقع نشعر بالخجل أمام تلك المحافل ، عندما نرى مستوى تفكير المسلمين منخفضاً إلى هذا الحد .

هذا هو حال المسلمين اليوم ، وهو حالهم بالأمس أيضاً ، فعندما كان رسول علي (ع) ، عند معاوية في الشام ، وكان اليوم إذ ذاك يوم أربعاء ، أمر معاوية أن يؤذن في الناس لصلاة الجمعة، وفعلاً اجتمع الناس ، وصلى فيهم صلاة الجمعة !ـ ولم يعترض عليه أحد ! وبعد ذلك استدعى الرسول سراً ،

وقال له : « إذهب إلى علي وقل له : إني قادم إليك بمائة ألف سياف ، مستعدين أن يصلوا خلفي صلاة الجمعة في يوم الأربعاء ، ولا يناقشوني في ذلك . فاحسب حسابك ، واحزم أمرك[1].

واليوم نرى أن حسينية (إرشاد) أصبحت تتعرض للضغوط، لأنها بحثت في يوم من الأيام ، قضية (فلسطين)، وطلبت من الناس أن يساعدوا الفلسطينيين . فانتقل هذا الخبر إلى (اسرائيل) عن طريق جواسيسها الموجودين في هذه المملكة ، (والذي يحزّ في النفس، أن كثيراً من مسلمينا جواسيس لإسرائيل أيضاً) ، ولا يمرّ يوم إلّا وتتعرض فيه حسينية (إرشاد) للحملات الإعلامية ، وبثّ الشائعات من قبل إسرائيل وعملائها في الداخل .

وأنا هنا لا أريد منكم شيئاً إلّا أن أقول لكم : لتكن عيونكم مفتوحة ، حققوا جيداً ، ولا تنخدعوا بالإشاعات المغرضة ، واعلموا إن عناصر اليهود في هذه المملكة ، وكل الممالك الإسلامية الأخرى ، كثيرون ، وإن أياديهم ، وجواسيسهم ، وأموالهم ، تعمل بشكل مستمر لا يتوقف . لا تكونوا من خوارج (النهروان) ، فإلى متى نظل نشهر السيد على الإسلام باسم الإسلام .

وإذا لم نكن نتعظ من هذه الدروس ، فمم إذن نتعظ ؟ لماذا نجتمع كل عام ، نقيم المجالس باسم علي(ع)؟ أليس لأن حياة علي(ع) تعطينا دروساً ؟ وأليس من الدروس البارزة في حياة علي(ع)، مقاومة خط الخوارج ، ورفض القشرية ، والتحجر في الدين ، ومحاربة النفاق ، ومكافحة الجهل ، والجهالة ؟؟

إن علياً لا يريد الشيعي الجاهل ، ولا يحب الشيعة الذين ينخدعون بالشائعات التي يختلقها اليهود والمحتالون ، فيقولون مثلاً : إن (إقبال الباكستاني) سبَّ إمامكم جعفر الصادق (ع)، وبعد ذلك ، وبسرعة البرق ، يقوم الشيعة أنفسهم بنشر هذا الخبر بين المسلمين ، دون أن يقرأوا كتاب

(١) راجع مروج الذهب : ج ٣ ص ٢٢٣ .

(إقبال) أولاً ، أو على الأقل يذهبون إلى السفارة الباكستانية ، أو إلى أي مكان آخر ، ويسألوا عن تاريخه ، ليتأكدوا بأنه ليس ناصبياً ، وإنما هو من أشد الموالين والمخلصين لأهل بيت النبي (ص).

افتحوا عيونكم ، وآذانكم ، ولا تقولوا فوراً عندما تسمعون خبراً ما : « هم يقولون هكذا » ، بل تحققوا في الأمر جيداً ، وبعد ذلك قولوا قولكم فيما بينكم ، وبين الله .

وها كم مثالاً آخر من التاريخ ، يحكي عن قصر النظر ، وضحالة التفكير العجيبين !

فهذا عبد الرحمٰن بن ملجم ، يقتل علي بن أبي طالب (ع)، فيقوم بعض المسلمين يصفقون له ، وينشد أحدهم :

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا[1]

ثم يقول في بيت آخر ما مضمونه : بأنه لو وضعت أعمال الخلق جميعاً في كفة ميزان يوم القيامة، ووضعت ضربة ابن ملجم في الكفة الأخرى ، لرجحت كفة هذا اللعين[2].

هكذا يصنع الجهل والحمق في المسلمين ، ويجعل الإسلام بينهم مظلوماً .

استشهاد علي (ع):

كان عبد الرحمٰن بن ملجم ، أحد أولئك التسعة نفر ، القديسين الزهاد ، الذي نجوا من القتل في معركة (النهروان) حيث اجتمع هؤلاء ،

---

(١) من أبيات لعمران بن حطان الخارجي (مروج الذهب : ج ٣ ص ٦٦٨ ـ ورد عليه أبو بكر بن حساد الباهري (راجع الكامل لابن الأثير : ج ٣ ص ٣٩٥) .

(٢) يقصد الأستاذ المحاضر قول عمران بن حطان الرقاشي الخارجي في قوله :

إني لأذكره يوماً فأحسبه ... أمضي البرية عند الله ميزانا

راجع (مروج الذهب : ج ٣ ص ١٦٨ ـ شرح النهج ج ٥ ص ٩٣).

وذهبوا في يوم من الأيام إلى مكة ، وأبرموا بينهم عهداً ، عند الكعبة المشرفة ، بأن يغتالوا كلًا من علي (ع)، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، لأن هؤلاء الثلاثة ـ بزعمهم ـ هم سبب كل تلك الفتن التي عصفت بالعالم الإسلامي ، وبقتلهم وإزالتهم من الساحة ، سوف تستتب أمور المسلمين ، وانتخبوا من بينهم ابن ملجم ، لاغتيال علي (ع)، وكان قرارهم أن يكون التنفيذ ليلة التاسع عشر من شهر رمضان[1].

يقول ابن أبي الحديد : في شرح سبب هذا التوقيت بالذات : « ولما كانت ليلة الجمعة التاسعة عشرة من شهر رمضان ، ليلة شريفة ، يرجى أن تكون ليلة القدر ، عينوها لفعل ما يفتقدونه قربة إلى الله ، فليعجب المتعجب من العقائد ، كيف تسري في القلوب ، وتغلب على العقول ، حتى يرتكب الناس عظائم الأمور ، وأهوال الخطوب لأجلها ! »[2].

وجاء ابن ملجم إلى (الكوفة) ، وظل مدة طويلة هناك ينتظر الليلة الموعودة ، وفي هذه الأثناء تعرف على فتاة تدعى (قطام)، وكانت خارجية مثله ، فعشقها ، ووله بها ، وربما كان يريد إلى حد ما أن ينسى ما كان يجول في ذهنه من أفكار جهنمية ، فذهب إليها ، وعرض عليها الزواج ، فوافقت ، ولكن مهرها ثقيل جداً !

فقال لها أطلبي ما تشائين . فقالت : عندي أربعة شروط :

الأول : ثلاثة آلاف درهم . قال : حسناً . قالت :

---

(١) تعاهد ثلاثة من الخوارج ، أو كلف ثلاثة منهم بقتل علي (ع) ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، وتواعدوا واتفقوا على أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه ، الذي يتوجه إليه ، حتى يقتله ، أو يقتل دونه ، وهم عبد الرحمٰن بن ملجم ، وكان من (تجيب) ، وكان عدادهم في مراد ، فنسب إليهم ـ وحجاج بن عبدالله الصريمي ، ولقبه (البرك) ـ وزادويه مولى بني العنبر . . . واتعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من شهر رمضان ، وقيل ليلة إحدى وعشرين (راجع المسعودي : ج ٣ ص ١٦٤ ـ الكامل لابن الأثير : ج ٣ ص ٢٨٩ ـ الطبري : ج ٥ ص ١٤٤).

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي : ج ٦ ص ١١٦ .

والثاني : عبد . قال حسناً . قالت :

والثالث : قينة . قال : حسناً . قالت :

وأما الشرط الرابع : فهو رأس علي بن أبي طالب !!

هنا اضطرب ابن ملجم ، فقد كان يعتقد أنه بهذا الزواج إنما يبعد نفسه عن التفكير في قتل علي (ع)، فقال : وما يشفيك ؟ قالت : ثلاثة آلاف ، وعبد، وقينة ، وقتل علي بن أبي طالب ، قال : هو مهر لك ، فأما قتل علي فلا أراك ذكرته لي ، وأنت تريدينني ! قالت : بلى ، التمس غرّته ، فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي ، ويهنئك العيش معي ، وإن قتلت ، فما عند الله خير من الدنيا وزينتها ، وزينة أهلها .

قال : فوالله ما جاء بي إلى هذا المصر إلّا قتل علي ، فلك ما سألت(1) فظل عبد الرحمٰن أياماً يفكر في أبعاد هذا الأمر . وبعد تنفيذه لجريمته الغظمى أنشد ابن أبي مياس المرادي في قتل علي (ع):

لم أر مهراً ساقه ذو سماحة ... كمهر قطام من فصيح وأعجم

ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب علي بالحسام المسمَّم

فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ... ولا قتل إلّا دون قتل ابن ملجم(2)

وعندما كان علي (ع) على فراش الموت ، كان ينظر إلى تيارين من الأحداث يخلفهما وراءه :

أحدهما : تيار معاوية الذي كان على رأس القاسطين ، والمنافقين .

والآخر : تيار القديسين المزيفين ، وهم الخوارج المارقون .

وهذان التياران يضاد أحدهما الآخر . فكيف يتصرف أصحاب علي (ع) من بعده ؟

---

(1) تاريخ الطبري : ج ٥ ص ١٤٤ .

(2) المصدر السابق : ج ٥ ص ١٥٠ .

يقول علي (ع) في وصيته : « لا تقاتلوا الخوارج من بعدي ، فليس من طلب الحق فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأدركه »[1]، يريد أن يقول : صحيح أن الخوارج قتلوني ، ولكن لا تقتلوهم أنتم من بعدي ، لأن قتلهم بعد ذلك ، لن يكون لصالح الحق والحقيقة ، وإنما سيكون لصالح معاوية وجماعته . فخطر معاوية خطر من نوع آخر ، لأن هؤلاء أرادوا الحق ، ولكنهم بحمقهم وجهلهم ، لم يصلوا إليه ، ولكن معاوية ، منذ البداية ، كان يريد الباطل على علم ، وقد وصل إلى هدفه .

وهكذا نرى علياً (ع)، لم يكن يحمل في قلبه حقداً شخصياً ، على أي أحد ، وعندما كان يتكلم ، فإن كلامه كان موزوناً ، وموضوعياً ، يهدف من ورائه المصلحة العامة ، دون أن يكون للعواطف أي أثر فيه .

وعندما أسروا (ابن ملجم) ، وأحضروه إلى أمير المؤمنين ، وهو على فراش الموت ، تحدث معه الإمام بصوت خافت ، من أثر الضربة ، وقال له بعتاب : « أي عدو الله! ألم أحسن إليك ؟ قال : بلى . قال : فما حملك على هذا ؟

قال : شحذته أربعين صباحاً ، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه .

فقال علي : لا أراك إلّا مقتولاً به ، ولا أراك إلّا من شر خلق الله[2] .

وغادر علي (ع)، هذه الدنيا ، بعد منتصف ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك ، وكان ذلك في مدينة الكوفة العظيمة ، وكان أهل الكوفة جميعهم ، ما عدا تلك الشرذمة الباقية من خوارج (النهروان) ، يريدون أن يشاركوا في تشييع جنازة أمير المؤمنين (ع).

ولكن ما إن فاضت روحه الشريفة ، حتى قام أبناؤه : الحسن ، والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، وأبو الفضل العباس ، ونفر من خواص

---

(١) المعجم المفهرس : ص ٢٦.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير : ج ٣ ص ٣٩٠.

الشيعة ، ربما كانوا لا يتجاوزون الستة أشخاص ، بغسله وتكفينه سراً ، ودفنوه ليلاً في مكان يبدو أنه(ع)،كان قد عينه لهم سابقاً ، وهو مدفنه الشريف الحالي نفسه ، والذي تذكر الروايات أن عدداً من الأنبياء العظام ـ أيضاً ـ مدفونون في تلك البقعة نفسها . ثم أخفوا مكان القبر ، ولم يطلعوا أحداً من الناس عليه .

وفي الصباح ـ فقط ـ علم الناس أن أمير المؤمنين (ع) ، دفن ليلة البارحة ولكن أين ؟ لا يدرون . وحتى إن بعض المؤرخين كتبوا : أن الإمام الحسن (ع) أرسل جنازة وهمية إلى المدينة ، لكي يظن الناس أنَّ جثمان علي (ع)، قد تم نقله ، ودفن هناك .

وهذا التمويه كان يقصد منه أن لا يقوم ، من تبقّى من الخوارج ، بالتجسار على نبش قبر أمير المؤمنين (ع)، وإخراج الجثمان الشريف ، وطالما كان للخوارج وجود ، ونفوذ ، بين المسلمين .

لم يكن أحد غير أولاد علي (ع)، وأولاد أولاده (الأئمة الأطهار (ع)، يعلم بمكان دفنه (ع).

وظل الحال كذلك إلى أن انقرض الخوارج بعد مائة عام تقريباً ، وبعد أن انقضى عهد نبي أمية ، وجاء عهد بني العباس ، وزال من يُخشى انتهاكه لحرمة القبر الشريف . وعندها قام الإمام الصادق (ع) لأول مرة بإظهار محل قبر أمير المؤمنين (ع)[1].

---

(١) قال ابن الأثير في تاريخه (الكامل) : « ولما قتل ـ علي (ع) ـ دفن عند مسجد الجماعة ، وقيل في القصر ، وقيل غير ذلك . والأصح أن قبره هو الموضع الذي يزار ، ويتبرك به » (الكامل : ج ٣ ص ٣٩٦) . وقال الطبري وابن سعد : ودفن عند مسجد الجماعة في قصر الإمارة (الطبري : ج ٥ ص ١٥٢ ـ طبقات ابن سعد : ج ٦ ص ١٢ . أقول : قصة مدفنه (ع) في الغري في منطقة النجف القريبة في الكوفة . مشهورة جداً ، ولا حاجة بنا إلى تخريفات كثير من المؤرخين الذين كانوا في القديم أتباعاً للسلطات الظالمة . (راجع علي من المهد إلى اللحد للسيد محمد كاظم القزويني : ص ٥٩٩) . وروى المجلسي في (البحار) قال : « عن الحسن بن علي الحلال عن جده قال : قلت للحسين بن علي (ع) : أين دفنتم =

يقول (صفوان) الذي نشاهد اسمه في سند رواة (دعاء علقمة) الذي يقرأ بعد (زيارة عاشوراء) :

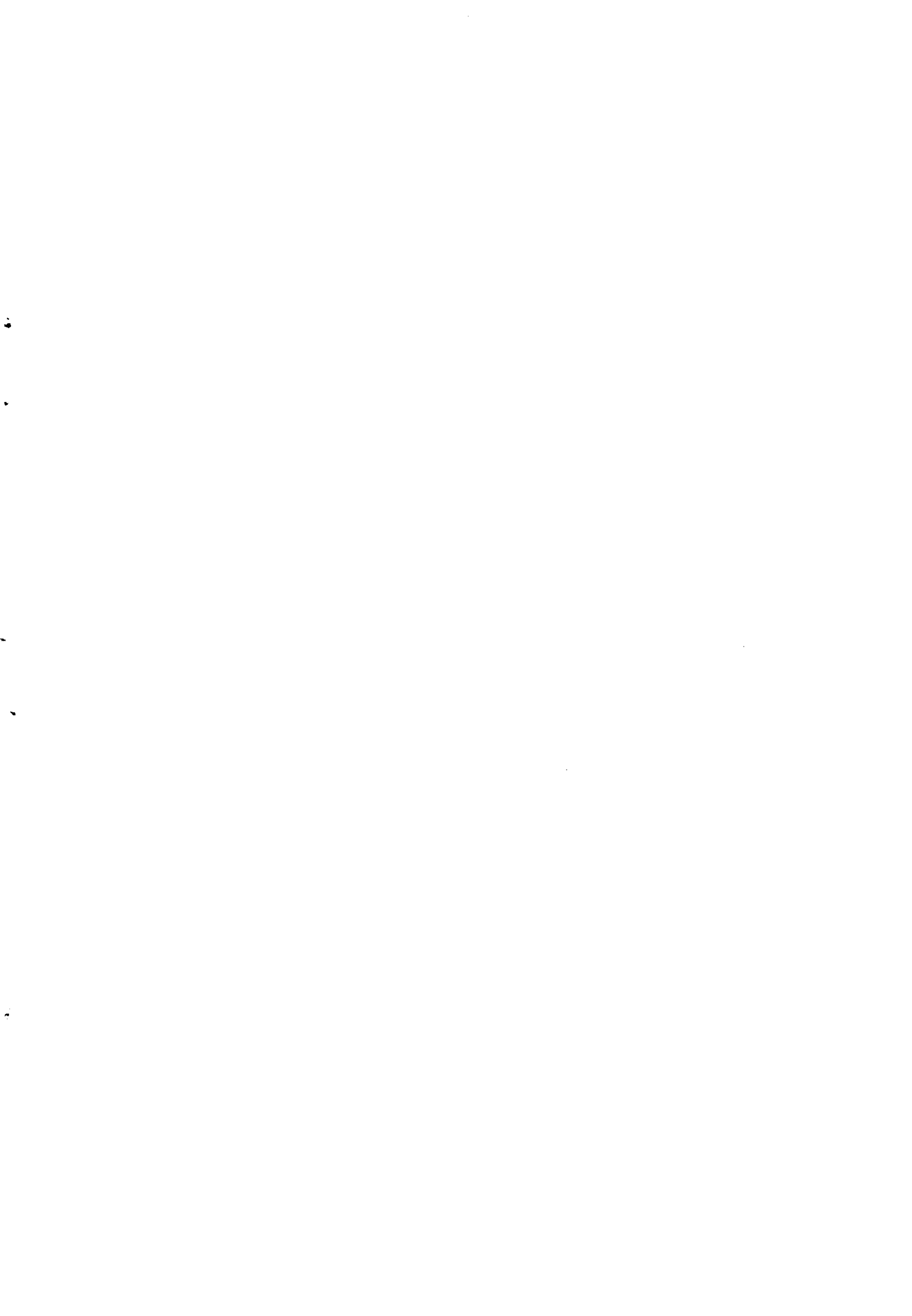
« كنت عند الإمام الصادق (ع) في الكوفة ، فجاء بنا إلى بقعة ، وقال : هنا قبر علي (ع)، وأمرنا أن ننصب عريشاً على القبر ، ومنذ ذلك الوقت أصبح قبر أمير المؤمنين (ع) معروفاً للناس . . . »[1].

السلام عليك يا أبا الحسن . السلام عليك يا أمير المؤمنين .



= أمير المؤمنين (ع) ؟ قال : خرجنا به ليلاً من منزله ، حتى مررنا به على منزل الأشعث ، حتى خرجنا به إلى الظهر بجنب الغري » ، قلت : وهذه الرواية هي الحق ، وعليها العمل ـ وقد قلنا فيما تقدم إنَّ أبناء الناس أعرف بقبور آبائهم من غيرهم من الأجانب ، وهذا القبر الذي بالغري ، هو الذي كان بنو علي يزورونه قديماً وحديثاً ويقولون : هذا قبر أبينا ، لا يشك أحد في ذلك من الشيعة ، ولا من غيرهم أعني بني علي من ظهر الحسن والحسين ، وغيرهما من سلالته ، المتقدمين منهم . والمتأخرين ما زاروا ولاوقفوا إلاّ على هذا القبر بعينه » . (البحار : ج ٤٢ ص ٣٣٨) .

(١) راجع البحار : ج ٤٢ ص ٣٣٩.



الفصل الثاني
صلح الامام الحسن (ع)

القســم الأول

إن مسألة صلح الإمـام الحسن (ع)، كـانت منـذ القـدم ، وعلى مـرّ الـزمن ، مـورد استفهـام وتسـاؤل : وفي زمـاننـا الحـاضـر ، تكثـر الأسئلة والإستفسـارات في هذا البـاب ، وخصوصـاً عندمـا تجري المقـارنة بين صلح الإمـام الحسين (ع) مع معـاوية ، ومحـاربـة الإمـام الحسين (ع) ليـزيـد ، ورفض التسليم له .

وقـد يتراوى ـ لأولئـك الذين لا يتعمقـون في بحث هـذه المسـألـة ، إن هذين الأسلوبين متضادان في جـوهرهمـا ، ولهذا زعم بعضهم أن طبـع الإمام الحسن (ع) ، وروحه ، يختلف أساساً عن طبعٍ وروح الإمام الحسين (ع)، وعلى هذا فالإمام الحسن (ع) كان بطبيعته رجلاً مسـالماً ، بينما كانت طبيعة الإمام الحسين (ع) هي التمرد والثورة .

وبحثنا هنا هو : إنَّ قبول الإمام الحسن (ع) ، بتوقيـع معاهـدة الصلح مع معاويـة ، ورفض الإمام الحسين (ع) كـل أشكال التسـوية والمهـادنة مـع يزيد ، ناشيء عن روحيتين مختلفتين ومتضادتين ، بحيث لو افترضنا أن الإمام الحسين (ع) كان في مكان الإمام الحسن (ع)، لقاتـل إلى آخـر قطـرة من دمـه ، وكـذلك لـو كـان الإمام الحسن (ع) ، في (كـربلاء) ، مكـان الإمام

الحسين (ع). لم تكن تقع الحرب أصلاً ، ولكانت النتائج تختلف عما حصل فعلاً ؟ .

أم إنَّ هذا الأمر يرتبط فقط بالظروف المختلفة ، حيث أوجبت ظروف الإمام الحسن (ع)، شيئاً ، بينما أوجبت ظروف الإمام الحسين (ع)، شيئاً آخر ؟ .

طبعاً نحن نوافق من سبقنا من الباحثين ، على أن اختلاف الظروف والأحوال هو الذي تسبب في اختلاف القرار ، سلماً أو حرباً ، وأن الدافع في كل الأحوال كان توخي المصلحة العامة ، لا غير .

ولكن قبل أن نبحث في تلك الظروف المختلفة ، ينبغي أن نطرح مبحثاً أساساً ، يرتبط بالموضوع الذي نحن بصدده ، وهذا المبحث يتعلق بمسألة الجهاد في الإسلام ، لأن كلا الموقفين المختلفين (موقف الإمام الحسن (ع) ، وموقف الإمام الحسن (ع) يرجعان بالتالي إلى هذه النقطة بالذات ، والتي بينتها التعاليم الإسلامية).

إذن سوف نقوم بعرض كليات الإسلام ، في باب (الجهاد) ، حيث لم نشاهد من الباحثين ، من تطرق إلى هذا الموضوع في بحثه لمسألة صلح الإمام الحسن (ع).

ثم بعد ذلك نستعرض حيثيات صلح الإمام الحسن (ع)، وحيثيات حرب الإمام الحسين (ع) ، لكي نتوصل إلى الأسس التي بني عليها موقف كل من هذين الإمامين .

النبي (ص) والصلح :

إن هذا الأمر في الواقع ، لا يختص بصلح الإمام الحسن (ع) بالذات ، فالنبي (ص) ـ أيضاً ـ كان منذ بدء الدعوة في (مكة) ، وحتى إلى السنة الثانية من الهجرة في (المدينة) ، كان يتبع أسلوب السلم والمسالمة مع الأعداء ، وقد كان يتحمل كل ألوان الأذى في مشركي (مكة)، وكان يرى

تبرّم المسلمين الذين كانوا يعيشون تحت أشد أنواع الإضطهاد ، وكان بعضهم يموت تحت التعذيب[1]، ولكنه لم يصدر الأمر بالجهاد .

وكان أمضى ما فعله (ص) أن أذن لهم بالهجرة من الحجاز إلى الحبشة [2] . ولكن عندما هاجر النبي (ص) إلى (المدينة)، واستتب له الأمر هناك ، نزلت الآية الكريمة : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير** ﴾[3]. وعندها بدأ عصر الجهاد ، والقتال في الإسلام .

فهل الإسلام دين حرب ، أمّ دين سلام .

إذا كان دين سلام ، إذن كان ينبغي أن يستمر على هذا المبدأ إلى النهاية ، بحيث يقال : إن الحرب ليست من الدين ، وإن وظيفة الدين هي الدعوة وحسب ، قبله الناس أم لم يقبلوه .

وإذا كان دين حرب ، إذن فلِمَ مكث رسول الله(ص) ثلاثة عشر عاماً في (مكة) ، ولم يحارب المشركين المعتدين ، ولم يأذن للمسلمين حتى بالدفاع عن أنفسهم ؟

أم إنَّ الأمر ليس كذلك ، وإنما الإسلام دين سلام ، ودين حرب ، معاً ، فهو يسالم في ظروف معينة ، ويقاتل في ظروف أخرى ؟

---

(١) قال الطبري : « ثم إن قريشاً تذامروا على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله (ص) الذين أسلموا معه . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، يعذبونهم ، ويفتنونهم عن دينهم . ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب . . . (راجع تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٣٢٧) .

(٢) كانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله(ص) من أهل الإسلام، فافتتن من افتتن ، وعصم الله منهم من شاء . فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله (ص) أن يخرجوا إلى (الحبشة) . . . فذهب إليها عامتهم لما شهروا بـ(مكة)، وخاف عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات ، يشتدون على من أسلم منهم . . » راجع تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٣٢٨ .

(٣) سورة الحج ، الآية ٣٩ .

ننظر مرة أخرى إلى حياة رسول الله (ص) ، بعد الهجرة إلى (المدينة) ، فنرى أنه كان في بعض الأحيان يحارب المشركين ، وكذلك اليهود والنصارى ، وفي أحيان أخرى ، كان يبرم اتفاقيات السلام مع الأعداء ، كما حدث في (صلح الحديبية)[1] ، حيث هادن مشركي (مكة) ، وهم ألدَّ الأعداء لله ولرسوله ، ووقع معاهدة الصلح معهم ، على الرغم من اعتراض معظم اصحابه ، كما وقع (ص) في فترة معنية ، معاهدة عدم تعرض مع يهود (المدينة)[2] ، فكيف كان كل ذلك ؟

علي (ع) والصلح :

وكذلك نرى أن أمير المؤمنين (ع) ، كان يقاتل في مكان ، ويتجنب القتال في مكان آخر . فبعد وفاة رسول الله (ص) ، وعندما اغتصبت منه الخلافة ، وهي حقه الشرعي ، لم يرفع السيف ، وكان يقول : « لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري ، ووالله لأسلمَّن ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور إلاّ عليَّ خاصة . . . »[3] .

وكان يواجه العنف والخشونة باللين والهدوء ، إلى درجة أن الزهراء (ع) ، لم تتمالك مرة أن تساءلت قائلة : « مالك يا بن أبي طالب ! اشتملت شملة الجنين ، وقعدت حجرة الظنين . . . »[4] : أي ما الذي جرى يا عليّ حتى انطويت على نفسك كما يفعل الجنين في بطن أمه ، وجلست في حجرتك منعزلاً ، كما يفعل المتهم الذي يخجل من مواجهة الناس ؟

لقد كنت ذلك الأسد الهصور الذي يهرب الشجعان بين يديه في

---

(١) راجع تفاصيل قصة (صلح الحديبية) في الطبري : ج ٢ ص ٦٢٠ ـ الكامل لابن الأثير : ج ٢ ص ٢٠٠ ـ.

(٢) راجع مروج الذهب : ج ٣ ص ٢٩ ـ البداية والنهاية لابن كثير ـ ج ٣ ص ٢٢٤ ـ مكاتيب الرسول للأحمدي : ص ٢٤٠ ـ لسان العرب مادة (دسع) (عقب) (عقل) (فرح) (وتغ) .

(٣) المعجم المفهرس : ص ٢٨ .

(٤) عوالم العلوم والمعارف للشيخ عبدالله البحراني (فاطمة الزهراء) : ص ٤٧٧ ـ الاحتجاج للطبري : خطبة الزهراء (ع).

ساحات الوغى ، فكيف تسلطت اليوم عليك هذه الثعالب ؟

فكان جواب الإمام لها : « . . . نهنهي عن وجدك يا ابنة الصفوة ، وبقية النبوة ، فما ونيت عن ديني ، ولا أخطأت مقدوري ، فإن كنت تريدين البلغة ، فرزقك مضمون ، وكفيلك مأمون ، وما أعد لك أفضل مما قطع عنك ، فاحتسبي الله ، فقالت : حسبي الله وأمسكت »[1]، أي ما مضمونه : إنَّ وظيفتي آنذاك كانت الحرب، واليوم وظيفتي هي القعود والسكوت .

ويمر خمسة وعشرون عاماً ، وعلي (ع)، ذلك الإنسان المسالم الذي يبدو أنه لا يبحث إلا عن الهدوء والاستقرار .

وعندما يثور الناس على عثمان ـ تلك الثورة التي أدت إلى مقتله ـ لا نرى علياً بين الثائرين ، ولا حتى بين المؤيدين لهم . كان مجرد وسيط بين الثوار وعثمان ، يحاول جهده أن تصل القضايا إلى نتيجة تُلبَّى فيها مطالب الثوار العادلة ، من جهة ، وليسلم الخليفة من القتل ، من الجهة الأخرى .

وهذا المعنى نجده في « نهج البلاغة » ، كما يشهد عليه التاريخ بصورة قطعية فكان يقول لعثمان إبان تفاقم الأمور : « وإني أنشدك الله الا تكون إمام هذه الأمة المقتول ، فإنه كان يقال : يقتل في هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، ويلبس أمورها عليها ، ويبث الفتن فيها ، فلا يبصرون الحق من الباطل ، يموجون فيه موجاً ، ويمرجون فيه مرجاً ، فلا تكونن لمروان سيقة، يسوقك حيث شاء ، بعد جلال السن ، وتقضي العمر . . . »[2].

وقبيل خلافة عثمان ، وعندما جاء الناس إلى علي (ع)، وقالوا له : ماذا ستفعل الآن ؟ وما هو موقفك تجاه هذه المؤامرة التي حيكت ضدك ؟ كان جوابه (ع): « والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور

---

(١) المصدر السابق : ص ٤٧٨ .

(٢) المعجم المفهرس : ص ٥٧ .

إلّا عليٍّ خاصة . . . »[1].

ولكن بعد انقضاء عهد عثمان ، وبعد أن بايع المسلمون علياً (ع) بالخلافة ، أخذ (ع) يسلك طريق الحرب والقوة ، وخاض عدة حروب دامية مع أصحاب (الجمل) ، وأصحاب (صفين) ، وأصحاب (النهروان) . إلّا أنه بعد قضية تمرد الخوارج ، على أثر حيلة رفع المصاحف ، إشارة إلى رغبة معسكر معاوية في تحكيم القرآن بين الطرفين المتحاربين ، مما أدى إلى ظهور الإنقسام في معسكر علي (ع)، ولم يعد رأي أمير المؤمنين (ع) يجد له آذاناً صاغية ، نجد أنه (ع) قبل التحكيم مكرهاً ، وقرر الإنتقال من الحرب إلى المفاوضات السلمية التي كان من المحتمل أن تؤدي إلى إقرار السلام ، لولا أن الطرف المقابل ، واصل أسلوب المكر والخديعة ، وتبين للناس أن طلب التحكيم ما هو إلّا لعبة سياسية من أجل إزاحة علي (ع) من الساحة ، بعد أن افتضح أمر عمرو بن العاص ، وشرع هو وخصمه يتبادلان الإتهامات والشتائم قبل أن ينزلا من على منبر التحكيم .

وهكذا نلاحظ من دراستنا لسيرة النبي (ص)، وسيرة علي (ع)، أنهما مرًا في حالات عديدة ، ومختلفة ، فمرة كانا يختاران طريق القيام والحرب ، ومرة طريق المهادنة والصلح .

وهنا قد يسأل سائل : لماذا كان النبي (ص)، أو علي (ع)، يلجآن أحياناً إلى المصالحة ، والمسالمة ، في حين أنَّ أقصى ما كان يمكن أن يحدث لهما ، لو قاتلا في هذه المواضع ، أن يُقتلا ، تماماً كما قتل الإمام الحسين (ع)، على أثر قيامه في (كربلاء) ، وكذلك نلاحظ أن الأئمة الذين جاؤوا بعد الإمام الحسين (ع) ، كان حالهم شبيهاً بحال الإمام الحسن (ع) في صلحه ومسالمته ، فهل كانوا يخشون الموت ، أو يتهربون من الشهادة ؟

كلا وحاشاهم . . . إذن فالمسألة ليست هي صلح الإمام الحسن (ع)،

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٨ .

وحرب الإمام الحسين (ع)، بل هي مسألة ينبغي أن تبحث بصورة أكثر شمولاً .

ولذلك أذكر فيما يلي فقرات من « كتاب الجهاد » في الفقه ، لكي نتوصل إلى مجموعة من الأصول الكلية في هذا الباب ، ومن ثم ندخل في بحث المصاديق والجزئيات :

موارد الجهاد في فقه الشيعة[1]:

نحن نعلم أن الدين الإسلامي يأمر بالجهاد . والجهاد في الإسلام على عدة أنواع :

النوع الأول : هو الجهاد الإبتدائي ، والذي يعني جواز غزو المسلمين لبلاد الكفار والمشركين ، ولو من دون سابق خصومة ، وذلك بهدف إزالة الكفر والشرك ، ونشر الإسلام .

وشرط هذا النوع من الجهاد أن يكون الفرد المجاهد بالغاً ، عاقلاً ، حراً . وينحصر الوجوب في الذكور دون الإناث ، وكذلك يشترط فيه إذن الإمام المعصوم ، أو نائبه الخاص ، وعلى هذا ، فإن هذا النوع من الجهاد ، من زاوية نظر فقه الشيعة ، ساقط عن المسلمين في زماننا الحاضر .

والنوع الآخر : هو الجهاد الدفاعي ، وذلك في حالة تعرض حوزة الإسلام لخطر الأعداء ، الذين يقصدون واحداً ، أو أكثر ، من الأمور التالية :

١ ـ الإستيلاء على الأراضي الإسلامية .

٢ ـ الإستيلاء على الأفراد ، بمعنى الهجوم على المسلمين ، وأخذ بعضهم أسرى .

٣ ـ الغارات المقصود منها إبادة المسلمين .

---

(١) ما سوف يذكر هنا من أحكام الجهاد ، فنقول عن كتاب « الشرائع » للعلامة المحقق ، وكتاب « مسالك الأفهام » الذي هو عبارة عن شرح الشهيد الثاني لكتاب « الشرائع » .

٤ ـ الإستيلاء على أموال المسلمين ، ومن ذلك السيطرة على المناجم ، وآبار البترول الخاصة بهم ، وأخذ الإمتيازات بالقوة لإستغلالها .

٥ ـ انتهاك حرمات المسلمين ومقدساتهم ، والإعتداء على أعراضهم ، ونواميسهم .

ويمكن تلخيص ذلك بأنه إذا تعرض أي شأن من الشؤون المحترمة للمسلمين ، من دماء ، وأموال ، وأعراض ، أو تعرضت أراضيهم لخطر من قبل العدو، فيجب هنا على عموم المسلمين ، من رجال ونساء ، أحرار وغير أحرار ، وربما يجب حتى على غير البالغين أن يشاركوا في الجهاد ، لدفع خطر العدو .

وفي هذا النوع من الجهاد لا يشترط إذن المعصوم ، ولا نائبه المعين من قبله شخصياً .

ومن موارد الجهاد الدفاعي في زماننا هذا ، هو الوضع الذي أوجده الصهاينة ، باحتلال جزء من الأراضي الإسلامية ، وأقاموا في (فلسطين) دولة إسرائيل الغاصبة . . . هنا يجب على كل المسلمين في الوطن الإسلامي الكبير ـ قريبين كانوا أم بعيدين ـ أن ينهضوا ويقاتلوا ، من أجل إخراج العدو الغاصب ، وإرجاع (فلسطين) إلى حوزة الإسلام .

تقول العبارة الفقهية في ذلك : « ولا يختص ـ أي الجهاد الدفاعي ـ بمن قصدوه من المسلمين ، بل يجب على من علم بالحال ، النهوض ، إذا لم يعلم قدرة المقصودين على المقاومة » أي إن المسلم ، إذا علم بوجود الحاجة إليه ـ سواءً أكان قريباً من مكان الإعتداء أم بعيداً ـ فإن الجهاد يجب عليه ، وكلما كان أقرب ، كان الجهاد أوجب .

النوع الثالث : هو ما يصطلح عليه بالجهاد الخاص ، وأجره مثل أجر الجهاد العام ، سواء الإبتدائي ، أم الدفاعي ، والذي يُقتل فيه يعتبر شهيداً ، ولكنه يختلف عنه في بعض أحكامه ، فمثلاً في الجهاد العام لا يغسل

الشهيد ، ولا يكفن ، بل يُدفن دون غسل ، وبملابسه نفسها التي تضرج بدمائه فيها .

ومن موارده أنه إذا كان هناك ، على سبيل المثال ، فرد مسلم ، يعيش في بلد الكفار ، ثم تعرض ذلك البلد إلى غزوة من قبل طائفة أخرى من الكفار ، بحيث يخشى ذلك الفرد على حياته من التلف ، فوظيفته هنا أن يحفظ حياته بكل صورة ممكنة ، وإذا توقف حفظ حياته على اشتراكه في القتال ضد الغزاة ، وجب عليه ذلك ، وإذا قتل فهو شهيد .

ومن موارده الأخرى ، أنه إذا تعرض الفرد المسلم لهجوم عدو ، أو سطو لص ، يستهدف حياته ، أو ماله ، أو عرضه وناموسه ، فإنه يجب عليه أن يقاومه ، ولو كان العدو ، أو اللص ، مسلماً ، وفي حالة الدفاع عن المال ، فللمعتدى عليه الحق في المقاومة ، ولو كان احتمال تعرضه للقتل (٥٠ ٪) .

أما في حالة الدفاع عن النفس والعرض ، فتجب المقاومة ، حتى لو كان احتمال التعرض للقتل (١٠٠ ٪) ، ولا يجوز هنا الإستسلام بأي حال من الأحوال ، وإلّا اعتبر المعتدىٰ عليه شريكاً في الجريمة .

والنوع الرابع : هو ما يسمى قتال أهل البغي : أي إذا نشبت بين المسلمين حرب داخلية ، وأرادت طائفة منهم أت تعتدي على طائفة أخرى ، فوظيفة المسلمين هنا بالدرجة الأولى ، أن يتوسطوا لحل النزاع ، والمصالحة بين الطرفين .

وإذا أعرضت إحدى الطائفتين عن الصلح ، وأصرّت على القتال ، فيجب على المسلمين آنئذٍ أن يقاتلوا هذه الطائفة ، حتى تخضع وتنصاع لشروط الصلح ، والقرآن يقول في ذلك : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التي تبغي ، حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾[1] .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ٩.

ومن موارد هذا الجهاد : أنه إذا خرج جماعة من المسلمين على الإمام العادل لزمانهم، فإنه يجب على المسلمين أن يقاتلوا هذه الجماعة ، لأنّ الحق هو مع الإمام العادل بصورة قهرية .

وهناك نوع آخر من الجهاد ، وفيه بعض الإختلاف من بين الفقهاء ، وهو القيام الدموي ، دفعة واحدة ، بقصد الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

الصلح في فقه الشيعة :

وهناك أيضاً مسألة أخرى مطروحة في « كتاب الجهاد » ، وهي مسألة الصلح الذي يصطلح عليه بين الفقهاء بـ (الهدنة) ، أو (المهادنة) .

فالهدنة : تعني الصلح . والمهادنة : تعني المصالحة . والمقصود من كل ذلك : هو عقد اتفاق لوقف الحرب ، أو لعدم التعرض ، أو ما يصطلح عليه اليوم باسم اتفاقية التعايش السلمي[1].

وهنا أذكر بعض عبارات (المحقق) في « الشرايع » يقول : « المهادنة ، وهي المعاقدة على ترك الحرب مدة معينة » . فالإسلام يجيز هنا للمسلمين أن يعقدوا صلحاً أو هدنة ، مع الطرف المقابل ، ولو كان في حدّ ذاته قابلاً للقتال ، كأن يكون ذلك الطرف مشركاً . ولكن ليس لمدة مجهولة ، بل ينبغي تحديد المدة ، قصيرة كانت أم طويلة ، وذلك كما فعل النبي (ص) في (الحديبية) ، حيث وقع معاهدة صلح مع المشركين ، لمدة عشر سنوات .

ويقول بعد ذلك : «وهي جايزة إذا تضمنت مصلحة للمسلمين » . فمثلاً

---

(١) قال ابن منظور في (هدن): « الهدنة والهدانة : المصالحة بعد الحرب . . . وهادنه مهادنة : صالحة . . . وأصل الهدنة : السكون بعد الهيج ، ويقال للصلح بعد القتال والموادعة بين المسلمين والكفار وبين كل متحاربين ، هدنة، وربما جعلت للهدنة مدة معلومة ، فإذا انقضت المدة، عادوا إلى القتال . . . والهدنة، والهدون ، والمهدنة : الدعة والسكون. . . » (لسان العرب).

إذا احتل العدو منطقة إسلامية ، فيجب على المسلمين هنا أن يقاتلوا لتحرير هذه المنطقة ، ولكن إذا اقتضت المصلحة أن يوقعوا هدنة مع ذلك العدو المحتل نفسه ، فيجوز لهم ذلك . مع تحديد مدة الهدنة ، لأن احتلال العدو للأرض الإسلامية ، لمدة غير محدودة ، لا يمكن أن يكون مصلحة للمسلمين .

ولكن كيف يكون الأمر ، بحيث تقتضي مصلحة المسلمين توقيع الصلح مع العدو ؟ يقول : « إما لقلتهم . . . » : أي إن عددهم قليل ، لا يسمح لهم بمقاومة العدو « أو لما يحصل به الإستظهار » : أي إذا كانت عندهم خطة للحصول على القوة ، أو الحصول على الدعم والإمداد من مكان آخر ، « أو لرجاء الدخول في الإسلام » : أي أن يكون لديهم أمل بأن يدخل الطرف المقابل « إذا كان كافراً » في الإسلام ، عن طريق التأثير المعنوي لدين الإسلام ، وانهزام العدو نفسياً ، أمام قوة الحق وحجته ، كما حصل في صلح (الحديبية) ، « ومتى ارتفع ذلك ، وكان في المسلمين قوة ، لم يجز » : فإذا زالت الموانع ، ورأى المسلمون أنهم يملكون القوة ، والقدرة الكافية لدحر العدو ، عندها لا يجوز لهم أن يستمروا في مهادنة العدو المحتل ، بل يجب عليهم قتاله وإخراجه .

وهكذا رأينا كيف أن الصلح مع العدو جائز في بعض الحالات ، وذلك من زاوية نظر الفقه الإسلامي والصلح نوعان :

أ ـ فقد يكون بمعنى إمضاء اتفاق ، أو معاهدة بين طرفين متحاربين ، كما فعل النبي (ص) في الحديبية مع المشركين ، وكما فعل الإمام الحسن (ع)، مع معاوية .

ب ـ وقد يكون بمعنى ترك الحرب ، وسلوك طريق المسالمة ، وذلك كما حدث في صدر الإسلام ، حيث كان المسلمون الأوائل في مكة قليلين عددياً ، ولو أنهم لجأوا إلى القتال والمواجهة آنذاك ، لأبيدوا جميعهم ، ولقضي على الإسلام من جذوره ، ولم يبق له أي أثر . ففي هذه الحالة اقتضت المصلحة ، التريث وعدم اللجوء إلى استخدام القوة ، ففي مدة

المهادنة والمسالمة، كان يوجد احتمال زيادة عدد المسلمين ، ونمو قوتهم ، وكذلك كان يوجد احتمال التأثير المعنوي على المشركين ، وهزيمتهم روحياً .

وهنا أجد من اللازم أن أقوم بشرح لـ(صلح الحديبية)، لأنه قائم على هذه الأسس ، كما أنه يشكل القاعدة التي استمدَّ منها صلح الإمام الحسن (ع)، أصوله ودوافعه .

صلح الحديبية[1]:

قام رسول الله (ص)، في زمانه ، بإبرام صلح مع مشركي قريش ، أثار حيرة كثير من أصحابه ، بل واستياءهم أيضاً ، ولكنهم بعد عامين من إبرام ذلك الصلح ، أدركوا أن ما عمله الرسول (ص)، كان صحيحاً تماماً .

وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة ، وبعد أن كانت قد وقعت بين المسلمين والمشركين عدة حروب دامية في (بدر) ، و(أُحد) ، وغيرها ، ووصلت العداوة بين الطرفين إلى حدها الأقصى ، وأصبح كل طرف يطلب الآخر بالثارات ، ويضمر له الحقد والضغينة .

وفي تلك السنة رأى الرسول (ص) ، في منامه رؤيا ، يبشره الله تعالى فيها ، بأنه سيدخل هو والمسلمون (مكة) ، فاتحين منتصرين[2] .

---

(١) الحديبية : هي قرية متوسطة ، ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بويع رسول الله (ص) تحتها، وقال الخطابي في (أماليه) : سميت الحديبية بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع . وبين الحديبية ومكة مرحلة ، وبينها وبين المدينة تسع مراحل . وفي الحديث إنها بئر . وبعض الحديبية في الحل ، وبعضها في الحرم ، وهو أبعد الحل من البيت ، وليس هو من طول الحرم ، ولا في عرضه ، بل هو في مثل زاوية الحرم ، فلذلك صار بينها وبين المسجد أكثر من يوم ، وعند مالك بن أنس أنها جميعها من الحرم . وقال محمد بن موسى الخوارزمي : اعتمر النبي (ص) عمرة الحديبية ، ووادع المشركين لمضي خمس سنين وعشرة أشهر للهجرة النبوية (معجم البلدان لياقوت الحموي الرومي البغدادي ج ٢ ص ٢٢٩) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ج ٢ ص ٣٢٢ . والآية : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، ،

وفي شهر ذي القعدة من تلك السنة ـ وهو من الأشهر الحرم التي كان المشركون في زمان الجاهلية يحترمونها ، ويقدسونها ، ويحرمون فيها القتال ـ عزم رسول الله (ص) على أن يذهب مع جمع من المسلمين إلى (مكة)، لأداء فريضة الحج ، على أن يرجع بعد ذلك إلى المدينة ، ولم يكن يقصد أي شيء غير هذا . أعلن (ص) عزمه هذا فتجمع حوالي سبعمائة من الأصحاب (وعلى قول ألف وأربعمائة) ، وسار الرسول (ص) بهم بعد أن أحرموا من خارج المدينة ، لأن حجهم كان « حج قرآن»[1] ، وساقوا أمامهم الهدي والقلائد .

وكان زي المسلمين . وهيئتهم ، والقرابين التي تسير أمامهم ، كل ذلك يدل على أنهم حجاج فقط ، ولم يكن عندهم أي نية للغزو والقتال . ومن حيث أن التهيوء والمسير ، كان يجري بصورة علنية ، فقد وصل الخبر سريعاً إلى قريش ، التي خرجت على الفور ، رجالاً ونساءً ، كباراً وصغاراً ، واعترضوا طريق المسلمين في مكان يقال له (الحديبية)، وأقسموا بأن لا يسمحوا لمحمد (ص) وأصحابه ، أن يدخلوا (مكة) ، ولو أدى الأمر إلى القتال في الشهر الحرام ، فخالوا بذلك حتى القوانين الجاهلية المعتبرة عندهم .

= لتدخلن المسجد الحرام ، إن شاء الله ، آمنين محلقين رؤوسكم ، ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ﴾ سورة الفتح ، الآية : ٢٧ .

(١) ينقسم الحج إلى ثلاثة أقسام هي : حج الأفراد ـ حج القران ـ حج التمتع . والفرق بين حج الأفراد والقران من جهة ، وبينهما وبين حج التمتع من جهة أخرى هو : إن حج الأفراد والقرآن، يجبان على أهل مكة ، أو من لا يزيد بعد أهله عنها ، على ستة عشر فرسخاً (ثمانية وأربعين ميلاً شرعياً) أي نحو (٨٦ كلم) ، ويجب في حج الأفراد والقران تقديم الحج على العمرة . أما حج التمتع فهو واجب على من يبعد أهله عن (مكة) ما يزيد على (٨٦ كلم)، ويجب في هذا لحج ، تقديم العمرة على الحج . وسمي هذا الحج بحج التمتع لأن الحاج يتمتع بفترة تحلل ، بين العمرة والحج ، يباح له فيها ما يحرم على المحرم ، ويتكون هذا الحج من عبادتين واجبتين، وهما : عمرة التمتع وحج التمتع . (الحج عبادة وتربية : ص ٤١) .

ولما رأى النبي (ص) ذلك ، أمر أصحابه بالنزول ، وضرب الخيام . وبدأ الرسل ينتقلون بصورة منتظمة بين المعسكرين .

وفي البداية جاء عدد من الرسل ، على التوالي ، من قبل قريش ، واستفسروا من الرسول (ص) عن قصده ، وسبب مجيئه ، فأخبرهم (ص) بأنه جاء للحج فقط ، وسوف يعود إلى (المدينة) ، بعد إتمام المراسم .

وكان كلما يأتي رسول ، ويرى أوضاع المسلمين ، ويسمع منطقهم ، يرجع إلى قريش ، ويطمئنهم أنّ النبي (ص) لا يقصد الحرب مطلقاً ، وليست عند المسلمين أية نية للعدوان ، ولكن المشركين أصروا على موقفهم .

فقرر النبي (ص) والمسلمون ، أن يدخلوا (مكة) ، متحدّين بذلك منع قريش ، وحدثت (بيعة الرضوان) ، حيث جدد المسلمون البيعة مع النبي (ص)، وعاهدوه على الثبات والقتال معه إلى آخر قطرة من دمائهم .

ولما علمت قريش بتصميم المسلمين القاطع ، وبيعتهم الدموية ، أرسلت رجلاً يدعى (سهل بن عمرو) مندوباً من طرفها ، إلى النبي (ص)، يعرض عليه الصلح ، وإبرام اتفاقية بين الطرفين بهذا الصدد ، فأعلن النبي (ص) موافقته ، وجرت مفاوضات بين المسلمن والمشركين ، كانت نتيجتها توقيع معاهدة صلح تقضي بأن يرجع الرسول (ص) في تلك السنة إلى (المدينة)، على أن يأتي في السنة التالية ، ويعطي حق البقاء في (مكة) ثلاثة أيام ـ فقط ـ يؤدي فيها العمرة ، ثم يرجع .

وكانت سائر البنود التي تضمنتها وثيقة الصلح ، حسب الظاهر ، ليست لصالح المسلمين ، ومن أبرزها هذا البند ، وهو : إن كل من التحق من المشركين بالمسلمين في (المدينة) ، فأن لقريش الحق في استرجاعه ، بينما لا يحق للمسلمين بالمقابل أن يسترجعوا من إلتحق منهم بقريش .

ولكن النبي (ص)، اشترط شرطاً واحداً في مقابل كل شروط قريش التعسفية ، وهو أن تمنح قريش الحرية للمسلمين في (مكة)، وترفع الضغوط

والقيود عنهم ، وكان (ص) يؤكد ويصرّ على هذا الشرط في المفاوضات .

استاء المسلمون كثيراً من هذا الصلح ، وقالوا : يا رسول الله ، لقد سرنا حتى وصلنا قريباً من (مكة) ، فهل من الصحيح أن نرجع دون أن نؤدي المناسك ؟ إنًّ هذا عار ، فلا بد أن نمضي قدماً .

فقال لهم الرسول (ص): كلا فالرأي هو الصلح ، وسوف نلتزم ببنود المعاهدة . ثم أمر (ص) بذبح القرابين ، وحلق رأسه علامة الخروج من الإحرام .

وفي البداية أبدى المسلمون تردداً ، ولكنهم انصاعوا بعد ذلك مكرهين لأمر الرسول (ص)، فذبحوا أضحياتهم ، وحلقوا رؤوسهم.

وكان أكثرهم إظهاراً لاستيائه ومعارضته عمر بن الخطاب ، الذي جاء إلى أبي بكر وقال له : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نُعطى الدنية في ديننا ؟

وجاء بعضهم إلى رسول الله (ص)، وقالوا : ألم تخبرنا يا رسول الله بأنك رأيت في المنام أننا ندخل (مكة)؟ قال : بلى . قالوا : فلمذا إذن لم تصدق رؤياك قال : أنا لم أر في المنام بأننا ندخل (مكة) في هذا العام بالذات ، وإن الرؤيا صادقة ، وسوف ندخل (مكة) حتماً بإذن الله[١].

قالوا : إذن فما هذا البند الذي ينص على استرجاع المشكرين لكل من يلتحق بنا منهم ، في حين أن ليس لنا الحق باسترجاع من يلتحق بهم منا ؟

قال (ص): إذا أراد شخص منّا أن يلتحق بالمشركين ، فهو مسلم مرتد ، ونحن لا حاجة لنا بالمرتدين ، ولا يهمنا استرجاعهم ، حتى دون هذه المعاهدة .

---

(١)راجع السيرة النبوية لابن هشام : ج ٢ ص ٣١٦ وما بعدها .

وإذا إلتحق شخص منهم بنا ، فإنا نقول له : إذهب الآن ، وعش مع بقية المسلمين حالة الإستضعاف في (مكة)، وسوف يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً .

وكان (لسهيل بن عمرو) الذي مرّ ذكره ، ولد ، وكان في جيش المسلمين ، وبعد التوقيع على المعاهدة ، فرَّ ابنه الآخر (واسمه أبو جندل)، من (مكة) ، وإلتحق بالمسلمين في (المدينة) ، فجاء سهيل ، وطالب النبي (ص) بإرجاع ابنه بموجب الإتفاق الموقع .

وفعلاً أمر النبي (ص) أبا جندل بالعودة إلى (مكة) ، على الرغم من توسله واستغاثته ، ومناشدة بعض المسلمين للرسول (ص)، أن يستثني هذا الشخص فقط ، ولكنه (ص) قال : حتى هذا يجب أن يرجع ، ويجب أن ننفذ الإتفاق بدقة[1] .

وبعد توقيع (صلح الحديبية)، زالت كثير من القيود التي كانت تكبل المسلمين في (مكة) ، وأصبح بإمكانهم التبليغ للدين الإسلامي بحرية ، وفي خلال سنة واحدة ، أو أقل ، دخل من قريش في الإسلام ، عدد يفوق ما دخله منهم في العشرين سنة التي تلت البعثة[2] .

وبعد ذلك أخذت الأوضاع تتبلور بشكل سريع لصالح المسلمين ، بحيث أن قريشاً ما لبث أن رأت أن بنود المعاهدة التي أرادت أن تقيد بها خصومها ، قد بدأت تتميع ، وتفقد محتواها بالنسبة لها ، وأخذت (مكة) تشهد نشاطاً واسعاً ، مادياً ومعنوياً ، لصالح الإسلام .

وفي أطراف قضية (صلح الحديبية) نروي هذه القصة اللطيفة : كان هناك رجل من المسلمين في (مكة) يدعى (أبا بصير) ، وكان رجلاً شجاعاً ، وقوياً ، وحدث أن فرَّ (أبو بصير) هذا من (مكة) بعد توقيع

---

(١) المصدر نفسه : ج ٢ ص ٢١٨ .

(٢) السيرة النبوية : ج ٢ ص ٣٢٢ (قول الزهري).

الصلح ، فلما قدم رسول الله (ص) كتب فيه أزهر بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة ، والأخنس بن شريف بن عمرو بن وهب الثقفي ، إلى رسول الله (ص)، وبعثا رجلاً من بني عامر بن لؤي ، ومعه مولى لهم ، فقدما على رسول الله بكتاب الأزهر ، والأخنس ، فقال رسول الله (ص):

« يا أبا بصير ! إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ، ولمن معك من المستضعفين ، فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك » .

قال : يا رسول الله ، أتردُّني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟

قال (ص): يا أبا بصير ! انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً .

فانطلق معهما حتى إذا كان بـ (ذي الحليفة)[1] ، جلس إلى جدار ، وجلس معه صاحباه ، فقال أبو بصير : أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر ؟ فقال : نعم . قال : أنظر إليه ؟ قال : أنظر ، إن شئت . فاستله أبو بصير ، ثم علاه به حتى قتله ، وخرج المولى سريعاً حتى أتى رسول الله (ص)، وهو جالس في المسجد .

فلما رآه رسول الله (ص)، قال : إنَّ هذا الرجل قد رأي فزعاً . فلما انتهى إلى رسول الله (ص) قال : ويحك! مالك ؟ قال : قتل صاحبكم صاحبي .

فوالله ما برح متى طلع أبو بصير متوشحاً بالسيف ، حتى وقف على رسول الله (ص)، فقال : يا رسول الله وفت ذمتك، وأدى الله عنك ! أسلمتني بيد القوم ، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه ، أو يعبث بي ، فقال رسول الله (ص): ويل أمه محشّ حرب[2] لو كان معه رجال ! .

---

(١) ذو الحليفة : قرية بينها وبين المدينة ستة أميال، أو سبعة، ومنها ميقات أهل المدينة.

(٢) محش حرب موقد حرب ومهيجها.

ثم خرج أبو بصير حتى نزل (العيص) ، من ناحية (ذي المروة)، على ساحل البحر ، بطريق قريش التي كانوا يأخذون عليها إلى الشام .

وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول رسول الله (ص) لأبي بصير : « ويل أمه ، محش حرب لو كان معه رجال »، فخرجوا إلى أبي بصير بـ (العيص) ، فاجتمع إليه منهم قريب من سبيعن رجلاً ، وكانوا قد ضيقوا على قريش ، لا يظفرون بأحد منهم إلاّ قتلوه ، ولا تمرُّ بهم عير إلاّ اقتطعوها ، حتى كتبت قريش إلى رسول الله (ص) تسأل بأرحامها إلاّ آواهم ، فلا حاجة لهم بهم ، فآواهم رسول الله (ص)، فقدموا عليه (المدينة)[1].

وعلى أي حال ، فقد هيأ (صلح الحديبية) الأرضية المعنوية للمسلمين ، لكي يزيدوا من نشاطهم ، بعد أن حصلوا على الحرية في (مكة)، وأخذ الناس يدخلون في الإسلام جماعات جماعات ، وزالت بالتدريج تلك القيود التي كانت تكبل المسلمين في الماضي .

والآن نأتي إلى ظروف زمان الإمام الحسن (ع)، وظروف زمان الإمام الحسين (ع)، ونتساءل : هل إنها كانت مختلفة ؟

ثم نتساءل : هل إنَّ الإمام الحسن (ع)، لو كان مكان الإمام الحسين (ع)، لكان يفعل مثل ما فعل الإمام الحسين (ع)، وبالعكس ، لو كان الإمام الحسين (ع)، مكان الإمام الحسن (ع)، هل كان يفعل مثل ما فعل الإمام الحسن (ع)؟

إن الجواب المسلم به ، لكل هذه التساؤلات ، هو الإيجاب قطعاً .

وهنا أريد أن أركز على نقطة سبق طرحها ، وهي أنه إذا سألنا أحد : هل إنَّ الإسلام دين صلح ، أم دين حرب ؟ فماذا نجيبه ؟

هنا نرجع إلى القرآن ، فنرى أن فيه أوامر بالحرب ، كما أن فيه أوامر بالصلح . فهناك آيات كثيرة تتعلق بالحرب مع الكفار والمشركين ، منها :

---

(١) راجع السيرة النبوية : ج ٢ ص ٣٢٣ .

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ﴾[1] . وفي باب الصلح يقول القرآن الكريم : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾[2] . وفي مكان آخر يقول : ﴿ والصلح خير ﴾[3] .

فالإسلام لا يتقبل الصلح كأصل ثابت ، بحيث ينبغي أن يكون الصلح ، وترك المخاصمة ، حاكماً في كل الأحوال .

وكذلك لا يتقبل الحرب أصلاً ثابتاً ، فيأمر بالقتال في كل الظروف .

فقرار الصلح والحرب ، في كل زمان ومكان ، تابع للظروف السائدة . وبتعبير آخر : تابع للنتيجة التي يمكن الحصول عليها من جرائه . فالمفروض على المسلمين ـ سواء أكانوا في زمان النبي (ص)، أم في زمان أمير المؤمنين (ع)، أم في زمان الإمام الحسن (ع)، أم الإمام الحسين (ع)، أم في زمان الأئمة الآخرين (ع) ، أن يكون هدفهم الرئيس ، في أي قرار يتخذونه ، هو المصلحة العليا للإسلام والمسلمين ، وأن ينظروا في مجموع ظروفهم ، وأحوالهم المعاصرة ، فإذا كانت الحرب هي الوسيلة الفضلى للوصول إلى الأهداف الحقة ، فعليهم أن يسلكوا هذا السبيل ، وإذا كان الصلح هو الطريق الأفضل ، فينبغي عليهم أن يصالحوا ويسالموا .

ومن الأساس ، فإن طرح مسألة : هل إن الإسلام دين حرب ، أم دين صلح ؟ طرح غير سليم ، فكل من الحرب والصلح ، مربوطان بظروفهما الخاصة ، وبالنتائج المتوخاة من ورائهما .

سؤال وجواب :

سؤال : ليس من الصحيح الإستناد إلى فقه الشيعة في بحث جواز صلح الإمام الحسن (ع)، أو عدم جوازه ، لأن أصول الفقه الشيعي ما هي إلاّ آراء

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٩٠.

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٦١.

(٣) سورة النساء ، الآية : ١٢٨.

الأئمـة (ع)، ورؤيتهم ، ففي أي مـوضـوع ، توضـع بعض القضايـا بعنوان أصول ، ثم بعد ذلك يبنى عليها قضايا ومسائل أخـرى . وفقه «المحـــقق»، وسائر علماء الشيعة ، يبني بنيانه على أصول هي عبارة عن رؤية الأئمة (ع). فكيف يمكن الإستناد إليه في بحث هذه المسألة ؟

جواب : هذه مـلاحظة جيـدة ومناسبـة . . . وصحيحة ، ولكن لم يكن قصدنا أن نقول : إن الإمام الحسن (ع) هنا اتبع فقه الشيعة ، ولكننـا قصدنـا أن نبحث هل إن الكليات الفقهيـة التي ذكرنـاها ، منـطبقة مـع المنطق أم لا ؟ وذلك لأن الإنسان عندما يـطرح مسألـة بصورة كليـة ، فإن ذلـك سوف يسـاعد على حـل المسائـل الجزئيـة الخاصـة ، ولم نكن نقصد الإستنـاد إلى مسـائـل تعبدية بأي حال ، ففي نظرنا ، إن المسائل التي نبحثها الآن في الفقه ، والتي تتعلق بصلح الإمام الحسن (ع)، إنما هي مسائل منطقية ، سـواء اقتبست من آراء الأئمـة (ع)، أو من مكان آخـر . فنرى مثـلاً أن الفقهاء عنـدما يعتبـرون الجهاد مشروعاً في بعض الموارد ، فهل هنا مكان للإعتـراض بأنـه كيف يكون الجهاد في هذه المـوارد مشروعـاً ؟ وكذلـك عندمـا يعتبرون الصلح جـائزاً في موارد أخرى ، فهل الصلح هنا منطقي ، أم هو خلاف العقل والمنطق ؟

لقـد كنا نـريد أن نبيّن أن كـلا الطائفتين من المـوارد التي شـرعـوا فيهـا الحرب ، أو الصلح ، منطبقة تماماً مع المنطق .

وبعد أن قبلنا هذا الأمر من الناحية المنطقية ، عندها ننتقـل لنرى : هـل إن موقف الإمام الحسن (ع)، كـان في المكان الـذي ينبغي أن يجاهـد فيه ، ومع ذلك صـالح ؟ أو إنَّ عمـل الإمام الحسين (ع)، كـان في المكان الـذي يجب أن يصالح فيه ، ومع ذلك جاهد وقاتـل ؟ ذلك لأنَّ الإسـلام يحتوى تلك الدعامتين : دعامة الجهاد ، ودعامة الصلح . أم إن الأمر ليس كذلك ، وإنمـا صـالح الإمـام الحسن (ع)، في المكـان الـذي ينبغي فيـه الصلح ، كمـا أن الإمـام الحسين (ع)، جاهـد في المكان الـذي ينبغي فيـه الجهـاد ، وهكـذا بالنسبة إلى النبي (ص)، وأمير المؤمنين (ع).

وفي حالة النبي (ص)، فإن الأمر قطعي لا يحتاج إلى البحث والنقاش لأنه (ص) صالح في بعض الموارد ، وحارب في موارد أخرى .

سؤال : هل يوجد اختلاف بين فقه إخواننا أهل السنّة ، وبين فقه الشيعة ، بالنسبة إلى أحكام الجهاد ، وما هي موارد هذا الإختلاف إن وجدت ؟

والسؤال الآخر : ذكرتم بصفة عامة إن من الظروف التي توجب الجهاد هو محاولة العدو التسلط على الأموال ، والأنفس ، فهل إن التسلط الفكري مطروح هنا أم لا ؟ وفي هذه الصورة ماذا يكون نوع الجهاد ؟

جواب : يجب أن أطالع فقه السنّة بكشل دقيق ، أولاً ، ثم أجيب على سؤالكم بالتفصيل ، ولكني أقول الآن ، وبصورة إجمالية :

إنه لا يوجد فرق يذكر بيننا وبينهم ، في باب أحكام الجهاد ، وإذا كان هناك من فرق ، فهو في بعض القيود الموجودة لدينا دونهم ، من ناحية أننا في بعض موارد الجهاد ، نشترط وجود الإمام المعصوم ، أو نائبه الخاص ، بينما هم لا يشترطون ذلك .

والمسألة الأخرى التي سألتم عنها ، لم تطرح في الفقه ، في العصور السابقة ، وذلك لأنَّ ظاهرة التسلط الفكري ، أو الإستعمار الثقافي ، ظاهرة جديدة أصلاً ، فينبغي التأمل فيها، والبحث عن حكمها، طبق الأصول الكلية ، في الفقه . وهذا الأمر بالطبع من وظيفة الفقهاء المجتهدين .

القســـم الثـــاني :

أشرنا في القسم السابق ، إلى وجود اختلافات بين ظروف الإمام الحسن (ع)، وظروف الإمام الحسين (ع) أدَّت إلى اختلاف موقفهما من أحداث زمانهما ، والآن نحاول أن نبحث هذه الإختلافات بشيء من التفصيل :

الإختلاف الأول :

بـويع الإمـام الحسن (ع)، بالخـلافـة بعـد أبيـه أميـر المؤمنين (ع)، وورث بـذلـك نـظام حكم ، كـان يتجـه من النـاحيـة الـداخليـة إلى الإنقسـام والضعف ، لأسباب تاريخية خاصة ، ولم يكن يثق بأفراد جيشه وقادته ، بسبب ضعف ولاء الكثير من أصحابه ، وقلـة طـاعتهم ، بينمـا كان نـظام معاويـة في الشام يقوى ، ويزداد تماسكـاً ، يومـاً بعد يـوم ، وكان جيشـه على العكس من جيش الإمـام الحسن (ع)، تام الـطاعة والـولاء ، وعلى أتم استعـداد لتنفيـذ أوامر قيادته .

وعنـدما جلس الإمـام الحسن (ع) على مسند الخـلافة ، كـان معاويـة يحتفظ بصفتـه السابقـة نفسها ، وهي كـونه ذلـك الـوالي المتمـرد العـاصي ، والمعارض للخلافة الرسميـة التي يرى أنهـا ليست على حق ، بسبب ما يـزعم من أن يديها ملطخة بدم الخليفة الأسبق عثمان .

ولم يكن معاوية حتى ذلك الوقت ، يـدّعي الخلافـة لنفسه ، أو يـطالب بإمرة المؤمنين ، بل كان هدفه المعلن ـ فقط ـ الثأر لدم عثمان .

وفعلاً بعد ثمانية عشر يوماً فقط من وفاة أميـر المؤمنين (ع)، عبأ جيشـاً ضخماً ، مجهزاً ، وبدأ تحركه العسكري من أجل غزو العراق ، وفتح عاصمة الخلافة القائمة .

هنـا نلاحظ أنَّ وضـع الإمام الحسن (ع) وضـع خاص ، فهـو الخليفـة الرسمي للمسلمين من ناحية ، ومن الناحية الأخرى، هنـاك شخص معارض ، جاء على رأس جيش قوي لمحاربته حرباً مصيرية ، بينما هو (ع) يـرى جبهته الداخلية ، وحالها المهلهـل ، فماذا يفعـل مع وجـود الإحتمال الكبيـر بهزيمـة جيشه ، وقتله شخصياً ؟

إنـه إذا أراد أن يصرَّ على مـواصلة القتال مـع خصمه إلى النهـاية ، فـإنَّ مقاومته هنـا لمعاويـة ، سوف تكـون نظيـر مقاومـة عثمان للثـوار المعارضين ، وليس نظير مقاومة الحسين (ع) ليزيد .

فقد كان وضع الإمام الحسين (ع)، وضع المعارض في مقابل حكـومة موجودة[1] . وعندما عـرَّض نفسه للقتـل ، فإنـه كان يعلم أن قتله سـوف يكون مشرفاً ، من جهة ، وذا آثار بـالغة النفـع للدين ، من جهة أخـرى ، لأنه نهض في وجه حاكم جـائر ، أشـاع الفساد في الـدولة الإسـلامية ، وحـاول تقويض دعائم الإسلام .

ولكن أن يقتـل الإمـام الحسن (ع)، وهـو على مسنـد الـخـلافـة الإسلامية ، وعلى يدي المعارضة ، فإن ذلـك لن يكون مبعث افتخار شخصي له، ولن يكون ذا فائدة للإسلام ، بل على العكس ، سوف يكون لطمـة تسيء إلى الإسلام أبلغ الإساءة .

وقـد كـانت هـذه الفكـرة ذاتهـا عنـد أميـر المؤمنين (ع) أيضـاً ، فقـد كان (ع) لا يرغب أن يقتل خليفة المسلمين ، بغض النـظر عن كونـه عادلاً ، أو جائراً ، وكـان يبذل كـل ما في وسعـه لتجنيب عثمان مصيـر القتل ، لأنَّ في ذلـك كسراً لهيبـة الدولـة الإسـلاميـة من جهـة ، وفتحـاً لبـاب الفتن من جهـة أخرى ، وكلا الأمرين يوجهان إلى الدين أبلغ الضرر .

ونجـد هـذا الأمـر مـذكـوراً في (نهـج البـلاغـة) : فقـد بـالـغ أميـر المؤمنين (ع) في الدفاع عن عثمان إلى درجة أنه قال في هذا الصدد :

« والله لقد دفعت عنه (عثمان) ، حتى خشيت أن أكون آثماً »[1] .

فلم يكن دفاعه عن (عثمان) تأييداً له ، بـل لأنه كـان لا يريـده أن يقتل وهو يحتل منصب الخـلافة ، وكـان يقول لـه : « وإني أنشدك الله ، إلا تكـون إمام هذه الأمة المقتول »[2] .

---

(١) ينبغي التنبيه هنا إلى أننا نبحث الوضع من الناحية الإجتماعيـة فقط ، بغض النظر عن أن الإمـام الحسين (ع)، كان محقاً في وقوفه أمام يزيد الخليفة الجائر ، وأن معاوية كان على الباطل في وقوفه أمام الإمام الحسن (ع)، الخليفة العادل . فتوزيع المراكز هنـا له داخـل هام في الآثـار الإجتماعية المترتبة عن المواقف المختلفة .

(١) المعجم المفهرس : ص ٨٤

(٢) المصدر نفسه : ص ٥٧ .

فمن العار على الأمة الإسلامية والعالم الإسلامي أن يقتل خليفة المسلمين ، لأن ذلك يعدّ انتهاكاً صارخاً للخلافة الإسلامية الي هي عنوان الدين الإسلامي وعزّه .

وكان (ع) يحاول إقناع (عثمان) بتلبية مطالب الثوار المشروعة ، لكي يفكوا الحصار عنه ، ويرجعوا إلى بلادهم .

ولكن عناد (عثمان) أدى إلى مقتله ، على الرغم من كراهة علي (ع)، لذلك ، وفعلاً فقد حدث بالضبط ما توقعه أمير المؤمنين (ع) من إضرار للإسلام وللحكومة الإسلامية ، نتجت عن مقتل الخليفة الرسمي .

فإذن لو كان الإمام الحسن (ع) قاوم وحارب ، فإنَّ النتيجة ـ كما تدل الشواهد التاريخية ـ سوف تكون قتله ، وهو الإمام والخليفة الشرعي ، بما يستتبع ذلك من الأضرار التي ذكرناها، بينما كان قتل الإمام الحسين (ع) بحسب الظاهر ـ قتل شخص معترض ثائر ، ليست له السّمة الرسمية للخلافة .

والإمام الحسين (ع) نفسه ، له موقف ملفت للنظر في ثورته ، وهو يشبه موقف الإمام الحسن (ع) في جوهره ، فهو وإن كان يعلم أنه مقتول في كل الأحوال ، فإنه لم يشأ أن يبقى في (المدينة) ، لأنه لو قتل فيها ، وهو ابن بنت النبي (ص)، ووصيه الشرعي ، فإن في ذلك هتكاً لحرمة النبي (ص)، وكذلك لم يشأ أن يلجأ إلى جوار (الكعبة الشريفة) في (مكة)، لأنه لو قتل هناك ، فإن في ذلك هتكاً لحرمة بيت الله تعالى ، فكانت خطته : أنه ما دام سوف يقتل لا محالة ، فليكن ذلك في مكان لا تتوجه منه إهانة ، أو هتك لحرمة من حرمات الدين الحنيف .

الإختلاف الثاني :.

إن إحدى أعظم المصائب التي برزت في الكوفة ، كانت ظاهرة الخوارج ، وقد أرجع أمير المؤمنين (ع) ظهور هذه الطائفة من المسلمين إلى تلك الفتوحات الإسلامية المتلاحقة التي لم تخضع لضوابط سليمة ، ولم

تـواكبها استـراتيجية التعليم والتـربية ، ونشـر وتعميق الثقافـة الإسلاميـة ، كما أشـرنا إلى ذلـك من قبل ، ممـا أدى إلى ظهور فئـة من المسلمين السطحيين، الجهلة المغـرورين ، الـذين يتـوهمـون أنهم مسلمـون أكثـر من غيـرهم ، وبالإضافة إلى هذه الفئة ، فقد ظهرت في الكوفة عدة فرق ، وأحزاب أخرى ، مما هيأ الأرضية المناسبة لمعاوية ـ الذي لم يكن ملتزماً بـالدين والتقـوى ، ولا متمسكاً بالأصول الأخلاقية والإنسانية ـ أن يستفيد من هـذه الأوضاع ، فيؤسس طـابوراً خـامساً في جبهـة الإمـام الحسن (ع)، وذلـك بـإرسـال الجـواسيس والعملاء المزودين بالأموال الطائلة ، لشراء الـذمم والضمائـر ، وكذلـك لبث الشائعات المفرضة ، بهدف تدمير الروح المعنوية للناس .

كل هذه العوامل أدَّت إلى ضعف قوى أهل (الكوفة). وتفـرق كلمتهم ، وظهور الكثير من المنافقين والخونة ، وأصبح وضـع الكوفـة مضطربـاً إلى حدّ كبير .

لكن ذلك لا يعني أن جيش (الكوفة) قد تبـدد كلياً ، وزال من الـوجود، بحيث كان يستطيع معاوية أن يغزو (العراق)، ويدخل (الكوفة) فاتحاً ، ببساطة ويسر ، ودون قتال .

فمع كل هذه الواقعيات المؤلمة ، فإن الإمام الحسن (ع)، كان بإمكانه لـو أراد المواجهـة في مقابـل معاويـة ، أن يعد جيشـاً كبيـراً ، يمكن أن يصـل تعداده حسب ما تذكره بعض التواريخ إلى مـائة ألف مقـاتل[1] ، وهـو يكافىء

---

(١) ذكر الطبري وغيره أربعين ألفاً ، وجاء في (شرح النهج) في صدد عتاب المسيب للإمام الحسن على صلحه : « فقـال المسيب بن نجبـة للحسن (ع)، مـا ينقضـي عجبي منـك ، صـالحت معاوية ، ومعك أربعون ألفاً ». ويقول ابن الأثيـر في (الكامـل) : « كان أميـر المؤمنين علي قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت لما ظهر ما كان يخبرهم به عن أهل الشام ، فبينمـا هو يتجهـز للمسير ، قتـل (ع)، وإذا أراد الله أمـراً فلا مـرد له . فلمـا قتل ، وبـايع النـاس ولده الحسن ، بلغه مسير معاوية في أهل الشام إليه ، فتجهز هو والجيش الذين كـانوا بـايعوا عليـاً ، وسـار عن (الكـوفـة) ، إلى لقـاء معـاويـة ، وكـان قـد نـزل (مسكن) فـوصـل الحسن إلى =

إلى حد ما جيش معاوية الجرار الذي كان يبلغ حوالي مائة وخمسين ألف جندي . فماذا كان يمكن أن تكون نتيجة مواجهة عسكرية كهذه ، وفي مثل هذه الظروف ؟

لقد قاتل أمير المؤمنين (ع) معاوية في (صفين)، ثمانية عشر شهراً ، في ذاك الوقت الذي كانت فيه القوات العراقية أكثر عدداً ، وأفضل استعداداً ، وبعد هذه المدة من القتال ، وبعد أن شارف جيش معاوية على الهزيمة النهائية ، انقلب الميزان فجأة بسبب نفسية أهل (الكوفة) الإنهزامية ، وعقليتهم المتحجرة ، التي تأثرت بخدعة رفع المصاحف على الرماح ، وأبت الإنصياع لأوامر القيادة .

فهل يمكن أن يكون الإمام الحسن (ع) أفضل حظاً لو قاتل بأهل (الكوفة) بعد أن اشتدت الفرقة ، وظهرت الخيانة بينهم ، وبعد أن ضعفت شوكتهم عن ذي قبل ؟

لو كان الإمام الحسن (ع) اتخذ قرار الحرب والمواجهة ، لنشبت حرب طاحنة بين فرقتين عظيمتين من المسلمين (أهل الشام ، وأهل العراق)، ولتلف من الجانبين عشرات الألوف من الأرواح ، في حين كان احتمال الإنتصار على معاوية معدوماً ، كما تدل عليه الشواهد التاريخية ، بل إن الإحتمال الأرجح كان هزيمة جيش الإمام الحسن (ع)، ومقتله شخصياً (ع).

فما هو وجه الإفتخار في أن يقتل الإمام الحسن (ع)، وهو الخليفة

= (المدائن) ، وجعل قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري على مقدمته في اثني عشر ألفاً . . . »
ويؤيد هذا أيضاً ابن كثير . وكذلك روى ابن قتيبة أن سليمان بن صرد ذكر للإمام الحسن عند عتابه أيضاً على الصلح : « أما بعد : فإن تعجبنا لا ينقضي من بيعتك معاوية ، ومعك مائة ألف مقاتل من أهل الفرق » .

والأقرب إلى الصحة : أن عدد جيش المقدمة هو (اثنا عشر ألفاً)، وعدد المتطوعين بعد ذلك في الكوفة (أربعة آلاف)، ثم الفصائل التي تواردت على الحسن في دير عبد الرحمٰن، وهذه قرابة (عشرين ألفاً). (راجع أهل البيت ـ توفيق أبو علم : ص ٣٢٤).

الرسمي للمسلمين ، مع تلك الخسائر الكبيرة في أرواح المسلمين ، دون أن يعقب إراقة تلك الدماء ، نتيجة نهائية ، تكون لصالح الإسلام والمسلمين ؟

بينما كان الإفتخار الذي حصل عليه الإمام الحسين (ع)، من جراء قيامه وثورته ، هو تصميمه على إراقة دمه شخصياً ، من أجل حفظ الدين[1]، والحيلولة دون طمسه من قبل نظام يزيد (الخليفة الرسمي) .

وحتى أولئك النفر الذين كانوا معه (ع)، والذين لم يتجاوزوا الإثنين والسبعين رجلاً ، كانوا قد تطوعوا من تلقاء أنفسهم ، وصمموا على الثبات معه ، حتى آخر قطرة من دمائهم ، برغم أنه (ع) كان قد أعطاهم الإذن بالإنصراف[2] عنه ، وتركه وحيداً أمام القوم .

الإختلاف الثالث :

من العوامل التي سببت إصرار الإمام الحسين (ع)، على القيام والخروج ضد النظام الحاكم ، هو أن يزيد ما إن استلم الخلافة ، حتى بدأ بتنفيذ وصية أبيه معاوية ، التي تقضي بإجبار الإمام الحسين (ع) على إعطاء البيعة ، وكتب إلى عامله في المدينة ، الوليد بن عتبة ، « يأمره بأخذ البيعة على أهلها ، عامة ، وخاصة على الحسين (ع) ويقول له : « إن أبى عليك فاضرب عنقه ، وابعث إليَّ برأسه »[3]

وكانوا بذلك يقصدون إضفاء الشرعية على خلافتهم الجائرة ، وكان موقف الحسين (ع) بالطبع هو رفض إعطاء البيعة ليزيد ، وكان مما قاله : « ومثلي لا يبايع مثله »[4] ، لأن من يمثل الإسلام ، لا يمكن أن يبايع من يريد محو الإسلام .

---

(١) إشارة إلى البيت الشهير :

« إن كان دين محمد لم يستقيم إلاّ بقتلي يا سيوف خذيني »

(٢) عوالم العلوم والمعارف (الإمام الحسين (ع)): ص ١٦٥ .

(٣) اللهوف في قتلي الطفوف: ص ١٠ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١١ .

ولكننا عندما ننظر إلى حال الإمام الحسن (ع)، نجد أن معاوية لم يطالبه بالبيعة أبداً ، ولم يكن في بنود الصلح ما يشير إلى شيء من ذلك مطلقاً ، وكذلك لم يدَّع أحد من المؤرخين ، أن الإمام الحسن (ع)، أو أحداً من أهل بيته، أو صحابته ، أعطى البيعة لمعاوية ، ولو كان يُطلب من الإمام الحسن (ع)، مثلما طُلب من الإمام الحسين (ع)، لكان من غير المعقول أن يقبل بتوقيع اتفاقية الصلح مع معاوية .

الإختلاف الرابع :

من العوامل الأخرى التي دعت إلى قيام الإمام الحسين (ع)، هو دعوة أهل (الكوفة) له : فبعد أن ذاق هؤلاء لمدة عشرين عاماً ، حرارة حكومة معاوية ، وعانوا من ظلمه وجوره ، نفذ صبرهم، فكتبوا حوالي ثمانية عشر ألف كتاب[1] ، موقع من قبل رؤسائهم وشخصياتهم ، إلى الإمام الحسين (ع) في (المدينة)، أعربوا فيها : عن أن الأرضية مهيأة ، وأنهم على أتم الإستعداد لمبايعته ، والقتال تحت لوائه ضد جيش يزيد ، ونظامه .

وهنا قد يسأل سائل : لماذا لبى الإمام الحسين (ع) دعوة أهل (الكوفة)، وهو مطلع على أحوالهم جيداً ، ويعلم بخذلانهم لأبيه (ع)، ويعلم بأنّ احتمال خذلانهم له أيضاً وارد جداً ؟

الجواب : من الناحية التاريخية ، لو أنَّ الإمام الحسين (ع) لم يكن يرتب أثراً على كتب أهل الكوفة ورسائلهم ، فمن المسلم به أنه سوف يكون مداناً أمام التاريخ ، وسوف يقول الناس : إن الإمام الحسين (ع) أضاع فرصة ثمينة ، بعد دعوة أهل العراق له ، واستعدادهم لنصرته !

والأهم من ذلك فإنه يواجه من الناحية الشرعية ، مسألة إتمام الحجة ، لأن مبرر قعود الإمام الشرعي هو انعدام وجود الناصر[2] ، أما إذا ارتفع هذا

---

(١) المصدر نفسه : ص ١٥ .

(٢) يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): « أما والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لولا =

العذر ، فقد وجب عليه القيام لا محالة .

والآن نـأتي إلى زمان الإمـام الحسن (ع)، لنرى أن إتمـام الحجة كـان على العكس من ذلك ، فقد أظهر أهل (الكـوفة) آنـذاك ، عدم استعـدادهم الفعلي للقتال ، وكان الوضع الـداخلي في (الكوفـة) من التردي ، بحيث أن الإمام الحسن (ع) كان يحترز كثيراً من أهل (الكوفة)، وعندمـا كان يخـرج إلى الصلاة في المسجد مثـلاً ، فإنـه كان يـرتدي تحت مـلابسـه درعـاً ، لأن عنـاصر الخـوارج ، وعملاء معـاوية ، كـانوا كثيـرين ، وكان احتمـال تعرضـه للإغتيال من قبلهم كبيراً ، وفعلاً حدث في إحدى المرات أن كان الإمام (ع) في حال الصلاة ، فرماه أحـدهم بسهم كاد يقتله حتمـاً ، لولا الـدرع التي كان يرتديها .

هكـذا كانت الكـوفـة في زمـان الإمـام الحسن (ع)، بلداً متفـرقـاً ، مشتتاً ، تتقاسمه صنوف التيارات ، والعقائد المختلفة ، وكان حالها قد بدأ في التـردي منذ الأيـام الأخيرة لعهـد أميـر المؤمنين (ع) حيث كـان (ع) يشـكي بصفـة مستمرة من أهـل (الكوفـة) إلى أن قال فيهم : « أبـدلني الله بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي شراً لهم مني »[1] .

الإختـلاف الخـامس :

عامل الأمـر بالمعـروف ، والنهي عن المنكر ، وهـو أيضفا من العـوامل الدخلية في قيام الإمام الحسين (ع)، فبغض النـظر عن أنهم طلبوا البيعـة من الإمام الحسين (ع)، ولم يكن مستعداً لأن يبـايع ، وكـذلك بغض النـظر عن دعـوة أهل (الكـوفة) ، وإتمـام الحجة على الإمـام الحسين (ع)، بوجـوب

= حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصـر ، وما أخـذ الله على العلماء إلّا يقـارّوا على كظة ظـالم ، ولا سغب مـظلوم ، لألقيت حبلهـا على غـاربهـا (الـدنيـا)، ولسقيت آخرهـا بكـأس أولها . . . » . (راجع المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة : ص ١٧) .

(١) المعجم المفهرس : ص ٢٨ .

القيام ، فإن مسألة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وحدها ، كانت سبباً مستقلاً بذاته لنهضة الإمام الحسين (ع)، وثورته الدامية .

فمنذ اليوم الأول لوصول معاوية إلى الخلافة ، وعلى مدى العشرين سنة التي بقي منها حاكماً على المسلمين ، أخذ يعمل على خلاف الإسلام ، ورأى المسلمون جميعاً جوره ، وجبروته ، وعدوانه ، بعد أن غير أحكام الإسلام ، ونهب بيت مال المسلمين ، وأراق الدماء المحترمة . . . الخ .

ولم يقنع بكل ذلك ، حتى قرر أن يرتكب جرماً أعظم من كل ما ارتكبه ، وهو تعيين ابنه يزيد شارب الخمر ، ولاعب القمار ، وملاعب القردة ، والكلاب ، ولياً لعهده ، واتخاذ الإجراءات التعسفية لوصوله إلى الخلافة من بعده ، بالقوة والإكراه[1] .

وهكذا بعد أن جلس يزيد الفاسق ، الفاجر ، على كرسي الخلافة ، بغير حق ، وأعلن برنامجه المضاد مائة بالمائة ، للإسلام ، أصبح من الواجب ، حسب القوانين الإسلامية ، القيام ضده ، لأنه كما يقول الإمام الحسين (ع) رواية عن جده النبي (ص) : « من رأى منكم سلطاناً جائراً ، مستحلاً لحرم الله ، ناكثاً لعهده ، مخالفاً لسنّة رسول الله (ص)، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يغير عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله »[2] .

ثم يقول الإمام الحسين (ع) بعد ذلك مباشرة : « . . . إلّا وإن هؤلاء لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمٰن . . . . »، فيقرر بذلك أنه قد آن الأوان لوضع هذا الحديث الشريف ، موضع التنفيذ .

كان هذا هو الوضع في زمان يزيد ، أما في بداية زمان معاوية ، فقد كان

---

(١) قام رجل من الأزد ، فأشار إلى معاوية ، وقال : « أنت أمير المؤمنين ، فإذا مت ، فأمير المؤمنين يزيد ، فمن أبى فهذا ! » وأخذ بقائم سيفه فسلّه ، فقال له معاوية : « أقعد فأنت من أخطب الناس » (راجع مروج الذهب : ج ٣ ص ٢١٨) .

(٢) عوالم العلوم والمعارف (الإمام الحسين (ع)) : ص ٢٣٢ .

الوضع يختلف بعض الشيء ، فالإمام الحسن (ع)، كان يعرف ماهية معاوية جداً، وجبلته المعجونة بالمنكر ، ولكن أقصى ما كان مطروحاً آنذاك ، هو أنه عندما يأتي معاوية وجماعته إلى الحكم ، فإنهم سوف يفعلون كذا وكذا من المنكرات ، وهذا الأمر يختلف بالطبع عن كونهم حكموا بالفعل ، وارتكبوا تلك الأفعال المنكرة ، وأصبح الطرف المقابل يمتلك السند والحجة أو ما يعبر عنه بصك الادانة ضدهم .

فإلى ما قبل توقيع الصلح ، لم يكن المسلمون بعد قد رأو بأم أعينهم من معاوية وجماعته ، أنواع الظلم ، والجور ، والإنحراف ، فكيف يمكن إقناعهم بحقيقة الأمر ؟

وربما كان معاوية معروفاً عند الناس ، بأنه حاكم فاسد ، ولكن فساد الحاكم شخصياً مسألة ، وفساد نظامه ، وحكومته مسألة أخرى عند الناس .

وهكذا لم تكن أرضية القيام بعنوان الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، مهيأة بعد ، وهذا ما يسمى اصطلاحاً بانعدام وجود التكليف الفعلي . وتسليم الإمام الحسن (ع) في هذه الحالة لن يلحق الظلم إلّا بشخصه فقط ، وهذا الأمر للإمام أن يصبر عليه ، ويرضى باغتصاب الخلافة منه ، ما دام الغاصب يتعهّد بأن يدير أمور المسملين بشكل طبيعي .

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين (ع) لما اغتصبت الخلافة منه : « والله لأسلمنّ ماسلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلاّ عليّ خاصة » :[1] أي إنّ القيام لا يصبح فرضاً على الإمام ، إلاّ إذا خرجت الأمور عن مجراها الصحيح ، وأصبح الظلم والجور متوجهاً إلى عامة المسلمين ، بما يهدّد دينهم بالخطر .

وبتعبير آخر لا يتحقق الوظيفة الشرعية بالقيام ضد منكر محتمل لم يحصل بالفعل ، مع العلم بأن هذا المنكر من النوع الذي يوجب القيام الدموي .

---

(١) المعجم المفهرس : ص ٢٩ .

لقد كان موقف معاوية في زمان الإمام علي (ع) موقف المعترض الذي لم يكن يهدف إلاّ المطالبة بدم عثمان ، وظلّ موقفه بعد مجيء الإمام الحسن (ع) قائماً على الأساس نفسه .

عندما كانت الترتيبات تجري في المعسكرين استعداداً للحرب ، أرسل معاوية عبدالله بن عامر مندوباً عنه إلى الإمام الحسن (ع)، وزوّده بورقة موقّعة على بياض ، وقال له : أعرض الصلح على الحسن بن علي ، ودعه يكتب ما يشاء من الشروط في هذه الورقة ، وأنا أقبلها كلها ، وبعد أن كتب الإمام الحسن (ع) شروطه في وثيقة الصلح هذه ، أقسم معاوية بكل الإيمان المغلظة ، وأشهد الله ورسوله على أنه سوف ينفذ كل الشروط بدقة ، وأنه سوف يعمل بكتاب الله ، وسنّة النبي (ص)، وسيرة الخلفاء الراشدين، وأنه لن يعيّن خليفة من بعده ، بل ترجع الخلافة إلى الإمام الحسن (ع)، ومن بعده إلى الإمام الحسين (ع)، وأنه لا يطلب من الإمام الحسن (ع) إلاّ تسليم الأمر له إلى إشعار محدد : (أي مدّة حياة معاوية) .

وكانت الشروط التي كتبها الإمام الحسن (ع) في وثيقة الصلح التي وقعها معاوية مسبقاً كما يلي :

١ ـ يُسلم « الأمر » إلى معاوية بشرط أن يعمل بكتاب الله ، وسنّة النبي (ص)، وسيرة الخلفاء الصالحين .

٢ ـ ترجع الخلافة بعد معاوية إلى الحسن (ع)، وإذا حدث له حدث ، فإلى الحسين (ع).

٣ ـ يوقف معاوية لعن أمير المؤمنين على المنابر ، ويأمر أن لا يذكر عليّ (ع) بعد ذلك إلاّ بالخير .

٤ ـ لا يشمل « تسليم الأمر » بيت مال الكوفة الذي يبلغ موجوده خمسة ملايين درهم ، وعلى معاوية أن يرسل إلى الإمام الحسن (ع) مليوني درهم كل عام ، وأن يُقدم بنو هاشم على بني أمية ، في المنح والأعطيات ، وأن يُقسّم مليون درهم بين ذوي الشهداء الذين قاتلوا إلى جانب أمير

المؤمنين (ع) في حربي (الجمل) ، و(صفين) . وكل ذلك يجب أن يؤدى من محل خراج « دار أبجرد »[1] من أعمال شيراز .

٥ ـ أن يكون الناس في كل مكان من أرض الله سواء في الشام أم العراق ، أم اليمن أم الحجاز . . . في أمنٍ وأمانٍ، يتمتع بذلك الأسود والأحمر ، وأن يُغضّ النظر عن أعمالهم السابقة ، وأن لا يؤخذ أهل العراق بالعداوات والأحقاد السابقة ، ويكون أصحاب علي (ع) في أمان أينما كانوا ، وأن لا يتعرض أحد من شيعة علي (ع) للأذى ، وأن لا يخافوا على أرواحهم ، وأموالهم ، ونواميسهم ، وأن لا يتعقب رجال معاوية أحداً منهم ، ولا يصيبوه بمكروه . وأن يعطى كل ذي حق حقه ، وأن لا يسترجع من أصحاب علي (ع) شيء مما في أيديهم ، وأن لا يعمل أحد في الجهر ، ولا في الخفاء ، عملاً من شأنه تهديد حياة الحسن بن علي ، أو أخيه الحسين ـ أو أيّ أحد من بيت رسول الله ـ بالخطر[2] .

والآن لو عرض هذا الأمر على التأريخ ـ فقيل : إن معاوية بوضعه آنذاك جاء إلى الإمام الحسن (ع)، وعرض عليه ذلك الصلح المشرف ، وأرسل إليه ورقة مصالحة موقعة على بياض ، وتعهد بتنفيذ شروطه كلّها، ومن الناحية الأخرى لم يطلب منه إعطاء البيعة ، ولم يطالبه أن يخاطبه بعبارة ـ يا أمير المؤمنين ـ فماذا يكون حكمه (أي التأريخ) ؟

وماذا كان يريد الإمام الحسن (ع) من الخلافة أكثر من العمل بكتاب الله وسنّة رسوله ؟

وهل كان يرضى بقيام حرب تدوم سنين ، ولا تعود إلّا بإراقة دماء عشرات الألوف من المسلمين ، وإحداث الخراب والدمار في البلاد الإسلامية ، من أجل أن يصبح هو الخليفة فقط ؟ هذا مع العلم بأن احتمال قتله (ع) شخصياً كان وارداً ، وبشدة .

---

(١) راج صلح الإمام الحسن (ع)، محمد جواد فضل الله : ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه .

لو لم يقبل الإمام الحسن (ع) في تلك الظروف ، بعرض الصلح هذا من قبل معاوية ، وبهذه الكيفية ، لكان التاريخ يلومه بل يدينه .

فالنبي (ص) وهو قدوة المسلمين وأسوتهم ، صالح في كثير من المواطن ، ولجأ إلى المسالمة ، وكذلك فمن الناحية المنطقية والعقلية لا ينبغي للإنسان أن يستخدم لغة الحرب والدم في كل الظروف والأحوال ، ولا يجعل في قاموسه مكاناً للمسالمة والمهادنة . . هذه فائدة . .

وأما الفائدة الأخرى التي حصل عليها الإمام الحسن (ع) من توقيع معاهدة الصلح مع معاوية ، والتي خطّط لها بوعي ودقة تامين ، فهي فضح معاوية ، وخط معاوية ، بشكل صارخٍ ، أمام الأمة الإسلامية ، وإثبات زيف كل ادعاءاته ، بل وكشف الهوية الإجرامية ، والإنحراف المتأصل في طبيعته[1] . فقد كان الإمام الحسن (ع) يعرف طبيعة معاوية ، واستعجاله للأمور ، واستعداده لقبول أي شرط يملى عليه ، في مقابل حصوله السريع على السلطة . ولذلك أملى (ع) شروطاً ، ويعلم يقيناً أن معاوية لن يلتزم بتنفيذها .

وفعلاً ما إن استتبّ له الأمر ودخل العراق منتصراً ، حتى أعلن أن جميع الشروط التي اشترطها على نفسه قد وضعها تحت قدميه[2] ، وأثبت بذلك أنه لا يزيد عن كونه مجرد سياسي غادر ماكر ، لا عهد له ، ولا ميثاق ، وليس عنده قيم يلتزم بها ، وكل ما يملك عليه فكره ووجوده هو تعطشه للحكم والكرسي . وقد خاطب أهل الكوفة بصراحة قائلاً : « والله ما قاتلتكم لكي تصلوا ، وتصوموا ، وتحجّوا ، وتؤدوا الزكاة ، وإني لأعلم أنكم تفعلون ذلك ، ولكن قاتلتكم لأتأمّر عليكم »[3] . أي إنه يريد أن يخبر الناس بأنه لا

---

(١) إن الإمام المعصوم الذي لا يحتاج إلى من يعلمه ، كان يعلم بإلهامه الإلهي ، أن معاوية لن يفي بالشروط التي قبلها على نفسه ، ومن هنا وقع نتيجة الأنحراف المتأصل فيه . (العسيلي) .

(٢) الإمامة والسياسة : ج ١ ص ١٥١ ـ صلح الإمام الحسن محمد جواد فضل الله : ص ١٥٧ .

(٣) أعيان الشيعة : ج ٤ . ق ١ . ص ٢٦ .

يهمه شيء من أمر الدين والإسلام ، ولا تعنيه مصلحة المسلمين ، وكل ما يريده هو التسلط على رقاب الناس ، وإشباع شهوة الحكم في نفسه الضعيفة .

لقد كان كل شرط من الشروط التي كتبها الإمام الحسن (ع) في ورقة الصلح ، جرساً مدوياً يقرع الآذان ويقول : يا مسلمون . . استيقظوا من غفلتكم ، وافهموا جيداً من هو معاوية ، ومن هم الذين يمثّلهم معاوية ؟! فقد خالف هذا كل الشروط التي وقع عليها ، وأشهد الله ، والرسول ، والمسلمين ، على نفسه ، وأقسم بكل الأيمان المغلظة أن يلتزم بها . . فلم يعمل لا بكتاب الله ، ولا بسنّة الرسول (ص)، ولا بسيرة الخلفاء الراشدين .

وبعد أن كان قد وافق على رجوع الخلافة من بعده إلى أصحابها الشرعيين ، أخذ يطرح بعد بضع سنين من حكمه مسألة ولاية العهد لابنه يزيد . ثم إنه مارس أبشع الأعمال العدوانية بحق شيعة أمير المؤمنين (ع) برغم تعهده بأن لا يصيبهم بأي مكروه[1].

ترى ما هو الفرق بين معاوية وعثمان ؟ لا يوجد فرق ، إذ إنَّ الإثنين أعطيا على نفسيهما ذات التعهد ، ولكنهما لم يلتزما بعهدهما ، إلّا أن عثمان استطاع أن يحتفظ بمكانته بين عامة المسلمين بعنوان أحد الخلفاء الراشدين ، ولكن بالطبع مع الإعتراف بإرتكابه لبعض الزلّات ، بينما عرف معاوية منذ اليوم الأول بأنه مجرد سياسي ماكر ، فخرج بذلك هو والذين جاؤوا من بعده - من زاوية نظر علماء وفقهاء المسلمين عموماً - من قائمة الخلفاء الراشدين الذين جلسوا في مكان رسول الله (ص) ليطبّقوا الإسلام ، ودخلوا في قائمة السلاطين والملوك الدنيويين ، بعد أن أصبحت الخلافة عندهم ملكاً عضوضاً .

وكان معاوية قد اتجه في السابق إلى التبليغ الإعلامي ضدّ علي (ع) ولعنه على المنابر ، بزعم أنه رجل خرج من دين الإسلام ، ولكنه عندما وقع في وثيقة الصلح على شرط التوقف عن اللعن ، فقد أدان بذلك نفسه ، وأقام

---

(١) الإمامة والسياسة : ص ١٥٦ - ١٥٨ .

الحجة عليه ، إذ لو كان علي (ع) يستحق اللعن كما كان يدعي ، فلماذا يتعهد هنا بأن لا يذكره إلاّ بالخير ؟ وإذا لم يكن مستحقاً للّعن ، فلم كان معاوية يفعل هذا الفعل القبيح ؟ وقد خالف معاوية أيضاً هذا الشرط ، واستمر اللعن مدى تسعين عاماً ! ![1]

وعندما نتأمل قليلاً في بنود الصلح ، نلاحظ أن جميع تلك البنود (وخصوصاً البند الثالث والخامس) ترجع بالتالي في جوهرها إلى البند الأول ، فهي متضمّنة فيه ، ولكن بصروة مستترة ، ولكن لأنّ الإمام الحسن (ع) يعلم أن لمعاوية توجهاً خاصاً إلى هذه المسائل ، وأن إنحرافه وإجرامه يتمركز هنا ، فقد أفردها (ع) في بنود خاصة حتى لا يبقى مجال للّف والدّوران والتأويل الخاطىء فيما بعد ، وكذلك لكي يشير (ع) بالأصابع إلى النقاط الرئيسية التي تفضح معاوية ، وتبيّن ماهيّته ، لأن الإمام حرص على أن يكون كل شرط من شروطه سند إدانة ضد معاوية .

وقد يتساءل أحد : كيف يترك الإمام الحسن (ع) الساحة خالية أمام معاوية ، وهو يعلم مسبقاً بما سوف يفعله معاوية مما يعود بأبلغ الضرر على الإسلام والمسلمين ؟ .

والجواب : إن الإمام الحسن (ع) لم يعتزل معترك السياسة نهائياً ، ولم ينسحب كلياً من الميدان ، والبند الثاني لوثيقة الصلح يبيّن هذه الحقيقة ، وذلك بأن أعطى الإمام الحسن (ع) مهلة محددة لخصمه ، فقد اشترط (ع) أن ترجع الخلافة إليه بعد معاوية ، ولا يحق لمعاوية أن يعيّن خليفة من بعده[2] . والهدف من هذه المهلة هو إعطاء فرصة للمسلمين لكي يشاهدوا عياناً التطبيق العملي لسياسة معاوية بكل ما فيها من عدوان ، وظلم ، وجور .

وقد كان (ع) يهيء الأرضية للقيام بعد انقضاء عهد معاوية ، وبتعبير

---

(١) تاريخ ابن الأثير : ج ٣ ص ١٨٧ .

(٢) صلح الإمام الحسن (ع) : ص ١٣٠ البند الثاني ، وما سبق أيضاً من بنود الصلح في هذا الكتاب .

آخر : كان يعدّ العدة لثورة الإمام الحسين (ع).

فبعد أن أعلن معاوية أن كل الشروط تحت قدميه ، جاء بعض وجوه الشيعة إلى الإمام الحسن (ع) وقالوا : يا بن رسول الله ، لقد أصبح اتفاق الصلح هذا كأنه لم يكن بعد أن نقضه معاوية ، فما تقولون الآن في القيام ؟ فقال (ع): كلاّ، القيام ليس الآن ولكن بعد معاوية[1]. ومعنى هذه الجملة هو أن الإمام الحسن (ع) لو كان بقي حياً بعد معاوية وكان في مكان الإمام الحسين (ع) لكان قيامه حتمياً .

وعلى هذا ، يبدو جليّاً لنا أن صلح الإمام الحسن (ع) في زمانه ذاك ، وفي ظروفه تلك ، شيءمنطقي جداً ، وأنه لا وجه للمقارنة بين صلح الإمام الحسن (ع) وهوعلى مسند الخلافة ، وبين قيام الإمام الحسين (ع) بعنوان فرد معترض على نظام قائم مع سائر الإختلافات الأخرى المشار إليها .

أي إنه لو لم يكن الإمام الحسن (ع) في وقتها ، وأن الإمام الحسين (ع) أصبح هو الخليفة بعد استشهاد أمير المؤمنين (ع)، لكان يوقع الصلح مع معاوية ، ولو أن الإمام الحسن (ع) بقي حيّاً بعد معاوية ، لثار مثل ما ثار الإمام الحسين (ع) على يزيد ، والسبب هو اختلاف الظروف لا أكثر ، والذي يؤدي بصورة منطقية وعقليّة إلى اختلاف المواقف .

---

(١) « إن معاوية لما خطب الناس بـ (الكوفة) ، وقال في جملة خطبته : « كل شرط شرطته ، فتحت قدمي هاتين »، قال المسيب بن نجبة للحسن (ع): ما ينقضي عجبي منك ! بايعت معاوية ومعك أربعون ألفاً ، ولم تأخذ لنفسك وثيقة وعهداً ظاهراً ، أعطاك أمراً فيما بينك وبينه ، ثم قال ما قد سمعت ، والله ما أراد بها غيرك ! قال : فما ترى ؟ قال : أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه ، فقد نقض ما كان بينه وبينك . فقال : يا مسيب : إني لو أردت بما فعلت الدنيا ، لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ، ولا أثبت عند الحرب مني ، ولكني أردت صلاحكم ، وكف بعضكم عن بعض ، فأرضوا بقدر الله وقضائه ، حتى يستريح بر، ويستراح فاجر » (أعيان الشيعة : ج ٤ ـ ق ١ ـ ص ٢٧ ـ صلح الحسن (ع): ص ١٩٩).

سـؤال وجـواب :

سؤال : لو كان أمير المؤمنين (ع) في مكان الإمـام الحسن (ع)، هل كان يصالح أم لا ؟ لقد كان الإمام علي (ع) يقول : لست حاضراً لأن أتحمل حكـومة معـاوية يـوماً واحـداً[1] ، فكيف رضي الإمام الحسن (ع) بحكـومـة معاوية ؟

جـواب : لـو كـانت ظـروف الإمـام علي (ع) مثـل ظـروف الإمـام الحسن (ع)، وكـان يخشى أن يقتـل ، وهـو على مسنـد الخـلافـة ، لكـان صالح ، ولكننا نعلم أن ظروف أميـر المؤمنين (ع) كانت تختلف عن ظـروف الإمام الحسن (ع)، أي إنَّ تلك الإضطرابات ظهرت فقط في أواخر عهد أمير المؤمنين (ع)، ولهـذا فـإن حـرب (صفين) أيضـاً كـانت في حـالـة تقـدم وانتصار ، ولو لم ينشق الخـوارج من الداخـل ، لكان من المسلّم بـه أن يكون الإنتصار النهائي من نصيب أمير المؤمنين (ع). فليس هناك مجال للبحث من هذه الناحية .

وأمـا قولكم : لمـاذا لم يكن أميـر المؤمنين (ع) حـاضـراً لأن يتحمـل حكومة معاوية يوماً واحداً ، بينما كان الإمام الحسن (ع) حاضراً لمثل ذلك ؟

فهذا خلط بين الأمرين . . لأن أمير المؤمنين (ع) أعلن عدم استعـداده لقبول معاوية حاكماً من طرفـه ، ووالياً على الشـام من قبله ، ولو ليـوم واحد ، بينمـا الإمام الحسن (ع) لم يكن يـريد أن يعيّن معـاوية نـائباً لـه وحاكمـاً من طـرفـه ، كـان (ع) يعتـزم التنحي ـ فقط ـ ولـم يلزم نفسـه بشيء في اتفـاقيـة الصلح التي لم يرد فيها ذكر عن لزوم إعطاء البيعة لمعاوية ، أو مخـاطبته بلقب أمير المؤمنين ،وما أشبه .

قرّر (ع) أن يتنحى ، بشرط أن يتعهد الطرف المقابل بإدارة الأمور على

---

(١) كتب أمير المؤمنين (ع) إلى معاوية : « . . . وأما طلبـك إليَّ الشام ، فـإني لم أكن لأعطيـك اليوم ما منعتك أمس » (المعجم المفهرس : ص ٨٦) .

وجهها الصحيح ، وهنا لا يمكن لأحد أن يدعي أن معاوية كان محسوباً على الإمام الحسن (ع)، وتماماً مثل ما فعل أمير المؤمنين (ع) فإن الإمام الحسن (ع) أيضاً لا يتحمل أن يحسب معاوية عليه ، وشروط الصلح لا تتضمن شيئاً كهذا .

سؤال : هل كانت لأمير المؤمنين (ع) وصيّة إلى الإمام الحسن (ع) فيما يتعلق بكيفية المواجهة مع معاوية ؟

جواب : لا أتذكر إلى الآن أني قد رأيت في وصايا أمير المؤمنين (ع) ما يشير إلى هذا الموضوع ، ولكن يبدو أن الوضع كان واضحاً لا غموض فيه ، حتى لو لم ينقل لنا التأريخ وصيّة كهذه . فقد كان أمير المؤمنين (ع) يرى الحرب مع معاوية إلى النهاية ، وحتى في أواخر أيامه حيث اضطربت الأوضاع ، كان الشيء الذي يقلق باله هو وضع معاوية ، وكان يعتقد بوجوب مواجهته والقضاء عليه . ولكن شهادة أمير المؤمنين (ع) منعت من شنّ حرب جديدة على معاوية .

والإمام الحسن (ع) بدوره كان مصمماً على القتال ضد معاوية في البداية ، وكان يخطب في الناس ويحمسهم ، ويدعوهم للتجمع والإستعداد للخروج إلى (النخيلة)[1] لملاقاة جيش معاوية ، ولكن ما ظهر من أصحابه من تخاذل، واختلاف ، وخيانة ، جعله ينصرف عن الحرب إلى الصلح ، لأن حربه بهؤلاء القوم المهزوزين ، وفي تلك الظروف المعاكسة ، لا تعدو كونها مهزلة لا تنتهي إلّا بالفضيحة لجانب الإمام الحسن (ع) مع قتله شخصياً ، وتوجيه إهانة بالغة إلى الخلافة الإسلامية .

---

(١) خرج الحسن (ع)، بعد أن بلغه توجه معاوية نحو العراق ، وأنه بلغ جسر (منبج) ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « . . . أما بعد : فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وسماه كرهاً ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : اصبروا أن الله مع الصابرين . فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلّا بالصبر على ما تكرهون ، إنه بلغني أن معاوية بلغه أنا كنّا أزمعنا المسير إليه ، فتحرك لذلك ، فأخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بـ (النخيلة) » . . . فسكتوا (راجع شرح ابن أبي الحديد : ج ١٦ ص ٣٨) .

سؤال : لا يبدو صحيحاً ما ذكرتموه من أن الإمام الحسن (ع) لو لم يكن يقبل المصالحة مع معاوية لكان التأريخ يلومه ويقول له : كان بإمكانك أن تملي كل شروطك على خصمك في ورقة الصلح الموقعة على بياض ، فلماذا لم تقبل عرضه بالصلح . . ذلك لأن الناس آنذاك كانوا سوف يتلقون مسألة إرسال ورقة موقعة على بياض ، على أنها مجرد حيلة ، لأن معناها هو أن معاوية لم يكن ينوي منذ البداية أن يعير أي اهتمام لكل ما سوف يكتبه الإمام الحسن (ع) فيها ، والناس قد عرفوا معاوية جيداً في زمان أمير المؤمنين (ع) بأنه إنسان مخادع مخاتل ، لا يمكن أن يلتزم بقول ، أو أن يفي بوعد . . . فماذا تقولون ؟

جواب : القلّة الواعية فقط من الناس كانوا يعرفون معاوية على حقيقته ، وكانوا ـ حتماً ـ سوف يتلقون عرض معاوية هذا بأنه خدعة وحيلة لا غير ، ولكن عامة الناس كانوا ينظرون إلى معاوية على أنه ، وإن كان إنساناً رديئاً ، إلّا أنه حاكم جيّد ، وسياسي قدير ، ويستدلون على ذلك من تصرفه مع رعيته من أهل الشام ، وإدارته لهم بشكل جعلهم يعلنون رضاهم عنه ، خصوصاً أن معاوية كان معروفاً بالحلم وسعة الصدر[1] . وكان بحلمه هذا يستوعب كل خصومه ومعارضيه السياسيين (وقد عاب عليه المؤرخون أنه لم يستطع أن يظهر حلمه السياسي مع أهل الكوفة ، ولو أنه فعل لكان انتصر من الناحية المعنوية أيضاً)[2] .

على أي حال ، توقع أهل الكوفة أن يسير معهم معاوية بسيرته مع أهل

---

(١) إن رفض ما كان يستعمله المشركون في الجاهلية ، والبغاة القاسطون في الإسلام ، في حروبهم ، من المكر المحظور ، والخبث ، والدهاء ، والغدر ، والحيلة ، والتغرير بالإجتهاد في مقابلة النصوص ، وتخصيص العمومات بالآراء لتوافق الهوى ، وغير ذلك مما لا ترخص فيه الشريعة ، ولا يرضاه الله ولا رسوله ، إن رفض كل ذلك يُعد حلماً لا ما فهمه المؤرخون ، ووعاظ السلاطين الجائرين .

(٢) حينما التقت عائشة بمعاوية . . . قالت له : أين كان حلمك عن مجري . قال : لم يحضرني رشيد (الكامل لابن الأثير : ج ٣ ص ٢٤٣) .

الشام ، وكان هذا هو أحد أسباب ارتخائهم وتخاذلهم عن النهوض لقتاله . فتوجهوا إلى الإمام الحسن (ع) بعد إرسال ورقة الصلح ، وطلبوا من الإمام أن يعلن رأيه ، ويقول كلمته في مقابل عرض معاوية ، هل يريد الحسن بن علي فقط أن يكون هو الحاكم والخليفة ، أم عنده كلام آخر ، وإذا كان عنده كلام آخر ، فهذا الرجل (معاوية) عنده الكفاءة والقدرة لأن يحكم المسلمين ، ويقودهم إلى شاطىء السعادة ! فلماذا لا يفسح له المجال ؟

ولما رأى الإمام الحسن (ع) موقف أهل الكوفة هذا ، إتخذ قراره بتوقيع الصلح ، وكأنه أراد أن يقول لهم : حسناً ليستلم صاحبكم الحكم ، ولتروا بأم أعينكم هل صحيح أنه كما تتوقعون سوف يدير أموركم بما يرضيكم أم لا ؟

خلاصة المسألة : إن الناس قبل توقيع الصلح لم يكونوا ينظرون إلى معاوية على أنه حاكم جائر ، بل كانوا ينظرون إليه على أنه رجل طالب للجاه والسلطة لا أكثر ، والذي كشف معاوية على حقيقته للناس هو صلح الإمام الحسن (ع)، وشروط الإمام الحسن (ع).

سؤال : هل وقع الحسين (ع) ورقة الصلح أيضاً ؟ وهل كان له اعتراض على صلح الإمام الحسن (ع) أم لا ؟

جواب : لم أقرأ في مكان أن الإمام الحسين (ع) وقع وثيقة الصلح ، والسبب أنه لم تكن هناك ضرورة لذلك ، لأنه كان آنذاك تابعاً للإمام الحسن (ع)، وكان يقبل بكل ما يفعله الإمام الحسن (ع) ويلتزم به . حتى إنَّ بعض المخالفين لما جاءوا إلى الإمام الحسين (ع) وأعربوا عن رفضهم للصلح مع معاوية ، وعرضوا عليه أن يبايعوه لمواصلة الحرب . . . ردّهم (ع) وأخبرهم بأنه تابع لكل ما يأمر به الإمام الحسن (ع)[1]. ومن

---

(١) التفت حجر بن عدي إلى الحسن ، وقال كلاماً لا يخلو من سوء أدب ، حمله عليه شدة الحب ثم قال : « إنا رجعنا راغمين بما كرهنا ، ورجعوا مسرورين ـ يعني معاوية وأصحابه ـ بما أحبوا » فتغير وجه الحسن ، وغمز المسلمين حجراً ، فسكت ، فقال الحسن : « يا حجر ليس =

الناحية التاريخية[1]، لم يُسجَّل على الإمام الحسين (ع) أنه اعترض في البداية على أخيه الإمام الحسن (ع) ثم بعد ذلك رضخ للأمر بعدما رأى تصميم الإمام الحسن (ع) على الصلح .



= كل الناس يحب ما تحب ، ولا رأيه رأيك ، وما فعلت ما فعلت إلّا بقاء عليك ، والله كل يوم في شأن » . هذا هو الموقف الصحيح للحسين إزاء أخيه الحسن ، فلا يسمح لأحد أن يقول كلمة غير مؤدبة ، أو جارحة في حضرة أخيه ، حتى ولو كان ذلك القائل حجر ، فغمزه ليسكت . (راجع صلح الحسن : ص ١٢٣) .

(١) الكلام من الناحية التاريخية ، وإلّا فمن ناحية مسألة الإمامة ، فلا يمكننا التفكيك لاستحالة التعارض والتضاد بين أئمتنا (ع) .

الفصل الثالث
كلمة حول الامام زين العابدين (ع)

إنَّ فلسفة الوجود المقدس لشخص مثل الإمام زين العابدين (ع)، هي تجسيد حقيقة الإسلام عملياً ، وهذا من الألطاف الإلهية الكبيرة بالنسبة للبشر . إذ كيف يمكن للناس أن يفهموا الأبعاد المعنوية لهذا الدين العظيم ، لو لم يجعل الله تعالى له حملة تشرّب الإيمان به في نفوسهم ، وخالط لحمهم ودمهم ، فأصبح الإسلام ينطق بألسنتهم ، ويعمل بأيديهم ، ويسعى بأقدامهم ؟

إن رسول الله (ص) كرّس القسم الأعظم من جهوده ، في فترة دعوته المباركة ، من أجل أن لا يغادر هذه الحياة إلّا وقد ربّى وأعدّ من يكون على مستوى حمل الرسالة من بعده ، وهكذا نرى كيف أنه (ص) كان يعكف على تربية علي بن أبي طالب (ع) بيده ، ويضعه على عينه ، ويزقّه العلم والإيمان زقاً ، وكان هذا ـ أيضاً ـ هو شأن سائر أوصياء الرسول الأعظم (ص) في إعداد من يأتي بعدهم . . .

عبـــادة الإمـام :

إنَّ الله سبحانه تعالى شرع دين الإسلام لكي يبقى خالداً إلى يوم القيامة ، ولا يمكن أن يتم ذلك إلّا إذا توالى على حمله وصيانته ، رجال استثنائيون كالإمام زين العابدين (ع) مثلاً ، والذي كان عندما يقف للصلاة

فإنه لا يتوجه ببدنه فقط إلى الكعبة ، بينما يتجول فكره في مكان آخر . بل كان يتوجه بكل كيانه ووجوده ، ويكون وقوفه للصلاة ، استعداداً للطيران في عالم الملكوت ، والتحليق باتجاه الله سبحانه . . . وعندما كان لسانه يتمتم بالذكر ، فقد كان الله هو الذي ينطق ، ويتكلم ، عبر لسانه . وعندما كان الإنسان يرى علي بن الحسين (ع) في صلاته ، فكأنما كان يرى النبي (ص) في محراب عبادته ، في الثلث الأخير من الليل ، أو في جوف (غار حراء)[1].

كان الإمام زين العابدين (ع) ذات ليلة مشغولاً بالصلاة والعبادة ، فسقط في أثناء ذلك أحد أطفاله على مقربة منه ، وأصيب بكسر في عظام يده . فلما لاحظ أهل الدار عدم وجود ردّ فعل للإمام بالنسبة لما حدث ، ذهبوا وأحضروا مجبراً داوى يد الطفل وربطها ، وكان الطفل في خلال كل ذلك يصرخ صراخاً شديداً ، وبعد أن أنهى الطبيب عمله ، ارتاح الطفل ونام ، وفي الصباح رأى الإمام يد طفله المجبرة ، فسأل : ما الخبر ، فقصوا عليه ما حدث ، وتبيّن أنه (ع) كان يمرّ في صلاته بحالة جذبة إلهية ، وكانت روحه معلقة بعزّ القدس الرّباني ، بحيث أن صوت صراخ طفله ، وضجيج أهل داره ، لم يصل إلى أذنيه أصلاً ، فلم ينتبه لما كان يجري من حوله ![2]

رسول الرحمة والمحبّة :

وكان الإمام زين العابدين (ع) يمثل في المجتمع دور رسول الرحمة والمحبة ، فكان يمشي في طرقات المدينة ، وعندما يرى إنساناً وحيداً لا ظهير له ، أو غريباً منقطعاً عن أهله ووطنه ، أو فقيراً محتاجاً ، أو مسكيناً معدماً ـ ومن أشبه من أولئك الضعفاء الحال في المجتمع ، والذين لم يكن الآخرون يكترثون لهم ، ولا يلقون إليهم بالاً ـ كان يلاطفه ، ويواسيه ، ويأخذه إلى بيته[3] .

---

(١) غار حراء ؛ هو غار في جبل حراء ، كان النبي (ص) يتحنث فيه قبل النبوة (ياقوت) .

(٢) عوالم العلوم (الإمام علي بن الحسين) : ص ١٣٠ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٤٣ ـ البحار : ج ٤٦ ص ٦٢ .

ومرّ (ع) ذات يوم بجماعة من المصابين بمرض الجذام[1] ، وكان الناس يفرّون منهم خشية العدوى ، فدعاهم إلى بيته ، وهناك أخذ يقوم على خدمتهم ، وتمريضهم ، والتخفيف من آلامهم ، لأنهم مهما يكن من أمر فهم عباد الله ، وليس من الصحيح إهمالهم[2] . لقد كان ببيت الإمام زين العابدين (ع) في الواقع بيت اليتامى ، والمساكين ، والملهوفين .

خدمة قوافل الحجاج :

وكان الإمام زين العابدين (ع) يترصد قوافل الحجيج القادمة من أماكن بعيدة مارّة بالمدينة ، ويلتحق بإحداها بعنوان غريب يريد أن يعمل خادماً للحجاج ، وكانت الرحلة على ظهور الخيل والجمال آنذاك ، تستغرق عشرة أيام ، أو أكثر ، يظل الإمام (ع) فيها عاكفاً على خدمة الحجاج والمسافرين ، وتلبية طلباتهم وأوامرهم .

وربما اصطدمت بعض القوافل التي كان يرافقها الإمام في الطريق بمن يعرف شخصه ، فيذهل من هول ما يرى ، ويسأل أهل القافلة : من هذا الذي جلبتموه معكم ليخدمكم في الطريق ؟ فيقولون : لا نعرفه ، وإنما هو شاب طيّب [illegible] في المدينة وعرض علينا الخدمة فقبلنا . فيقول : لو كنتم تعرفون [illegible] هذا لما اتخذتموه خادماً توجهون إليه الأوامر والنواهي . . إنّه علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، إنّه ابن رسول الله (ص) .

وعندها كان يهرع أهل القافلة إلى الإمام زين العابدين (ع)، فينكبّون يقبّلون يديه ورجليه ، ويقولون : يا بن رسول الله ادع لنا الله أن لا يعذبنا يوم القيامة على جسارتنا ، وسوء أدبنا بحقك ، فنحن الذين يجب أن نقوم بخدمتك وإطاعة أوامرك . فيقول (ع): لقد جرّبت ذلك سابقاً ، فكلما

---

(١) الجذام : يستفاد من (اللسان)، مادة (جذم) أنه داء يصيب الجلد فيتقرح . وعرفه صاحب (اللسان) بقوله : « والجذام من الداء : معروف لتجذم الأصابع وتقطعها ، وقال الفيروز آبادي : المجذوم : المقطوع اليد ، والذاهب الأنامل (قاموس)

(٢) عوالم العلوم (الإمام علي بن الحسين) : ص ١٤٤ .

سافرت مع قافلة يعرفونني فإنهم لا يدعونني أقوم بخدمتهم . ولذا فأنا أرغب دائماً أن أسافر مع قافلة لا يعرفني أحد منهم ، حتى أتمكن أن أحصل على سعادة خدمة المسلمين ورفقاء الطريق[1] .

دعاء الإمام وبكاؤه :

لم تسنح لعلي بن الحسين (ع) فرصة نظير ما سنحت لوالده أبي عبدالله الحسين (ع) الذي جاهد في سبيل الله بالسيف ، وفاز بالشهادة المصطبغة بالدم الأحمر . . .

وكذلك لم تسنح له فرصة نظير ما سنحت لحفيده الإمام الصادق (ع)الذي وجد الأجواء المناسبة للقيام بالجهاد العلمي ، فأسس المدارس والحوازات العلمية ، ونشر العلوم الدينية ، وأحيا الفكر الإسلامي . . .

إلّا أن الذي يريد أن يجاهد بصدق ويخدم الإسلام بجدّ ، فإنَّ كل الظروف فرصة بالنسبة له ، وغاية ما في الأمر أن شكل الفرص يتفاوت من ظرف إلى ظرف .

لقد كانت الظروف السياسية في زمان الإمام زين العابدين (ع) محكومة بالكبت والإرهاب ، وكان النظام الأموي آنذاك متشدداً غاية التشدد مع أهل البيت(ع) وشيعتهم ، حتى إنهم فرضوا على الإمام ـ في فترة ـ الإقامة الجبرية في بيته ، وهكذا لم يجد الإمام زين العابدين (ع) أي فرصة للتحرك والإتصال بشيعته وأنصاره .

ولكنه لم يقعد عن الجهاد ، ولم يتخلّ عن مسؤوليته تجاه الدين ، كما تصور البعض ذلك ، بل اختار طريقاً للجهاد يتلاءم مع ظروف عهده ، فاتخذ من الدعاء والبكاء وسيلة لخدمة الإسلام ، ومقاومة الظالمين .

---

(١) عوالم العلوم (الإمام علي بن الحسين) : ص ١٤٦ ـ البحار : ج ٤٦ ص ٦٩ .

وكانت أدعية الإمام زين العابدين (ع)[1] ـ بالإضافة إلى ما فيها من جنبة المناجاة مع الخالق ، والتضرع إليه ـ مدرسة تحوي المعارف والعقائد الإسلامية ، وفلسفة الحياة ، والفضائل الأخلاقية ، وما إلى ذلك من المواضيع التي حاول الأمويون بث ما يضادها في المجتمع الإسلامي .

وكان (ع) يضمّن أدعيته رسائل خفية موجهة إلى شيعته ، لا يفهمها جهاز مراقبة النظام الحاكم ـ وهي ما يشابه نظام الشيفرة في زماننا الحاضر ـ يدعو فيها شيعته إلى مقاومة الظالمين ، وعدم السكوت على ظلمهم .

وكان (ع) يتخذ من كل مناسبة ـ أو مسألة تذكّر بواقعة الطف بكربلاء ـ فرصة للبكاء ، وكان يكثر من البكاء حتى إنه (ع) كان لا يشرب الماء عندما يؤتى به حتى تسيل دموعه الشريفة على لحيته ، وتتساقط في إناء الشرب الموضوع أمامه .

وكان من خلال بكائه ونواحه ، يعمل على إحياء ذكرى ثورة والده أبي عبدالله الحسين (ع)، وكان دائماً يذّكر الناس بأسباب ثورة الإمام الحسين (ع)، وقيامه من جهة ، ومن هم الذين حاربوه وقتلوه من جهة أخرى .

لقد كان النظام الأموي يسعى جاهداً لتغطية أخبار ثورة الطف ووقائعها، ورشّ رماد النسيان فوقها ، لأنهم كانوا يخافون أشد الخوف من ظاهرة حب الشهادة التي بذرها الإمام الحسين (ع) في نفوس المؤمنين ولكن الإمام زين العابدين (ع) استطاع بسلاح الدموع أن ينتصر على كل أسلحتهم . . **﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين ﴾**[2] .

وبكى علي بن الحسين (ع)، عشرين سنة ، وما وضع بين يديه طعام

---

(١) إنّ أدعية الإمام زين العابدين (ع)، جمعت غالبيتها في كتاب سمّي (الصحيفة السجادية) في عدة أجزاء . فالجزء الأول معروف ومتداول في معظم دور الكتب ونحن نملك الصحيفة السجادية الرابعة ـ والخامسة من طبعة قم . وهما في مكتبتنا (العسيلي).

(٢) سورة العنكبوت ، الآية : ٦٩.

إلّا بكى ، حتى قال له مولى له : جعلت فداك يا بن رسول الله ، إني أخاف أن تكون من الهالكين ، قال : « إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون » إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلّا خنقتني العبرة .

وفي رواية : أما آن لحزنك أن ينقضي ؟! فقال له : ويحك ! إنَّ يعقوب (ع)، كان له إثنا عشر ابناً ، فغيب الله واحداً منهم ، فابيضت عيناه من كثرة بكائه عليه ، واحدودب ظهره من الغم ، وكان ابنه حياً في الدنيا ، وأنا نظرت إلى أبي ، وأخي ، وعمي ، وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي ، فكيف ينقضي حزني ؟![1].



(١)عوالم العلوم (الإمام علي بن الحسين) : ص ١٥٧ .

الفصل الرابع

الامام الصادق (ع) ومسألة الخلافة..

القســـم الأول :

هناك أربعة ـ فقط ـ من أئمتنـا (ع)، اصطدمـوا بشكل من الأشكـال ، بمسـألة الخـلافة كقضيـة سياسيـة في زمـانهم ، وهم : أميـر المؤمنين (ع)، الإمام الحسن ، الإمام الحسين ، الإمام الصادق (ع)، وأما بقيّة الأئمـة (ع) فلم تكن هـذه المسـألـة مـطروحـة بـالنسبـة لشخصهم في مـواجهـة الأنـظمـة الحاكمة .

وبـحثنا في هذا الفصل يتعلّق بالإمام الصادق (ع) حيث تطرح في هذا البـاب عـدّة تسـاؤلات ، من أهمهـا هـو أنـه قـد سنحت في زمـان الإمـام الصادق (ع) الذي كان يعاصر آخر عهد بني أمية ، وأول عهـد بني العباس ، فرصة سياسية مؤاتيـة ، استغلها بنـو العباس للفـوز بكرسي الخـلافة ، فمـا هو السبب الذي جعل الإمام الصادق (ع) يعرض عن الإستفادة من فرصة كهذه ؟

وهـذه الفرصـة وجدت عن طـريق ازدياد معـارضي بني أميّة تـدريجياً سـواء بين العرب ، أو بين العجم (الإيـرانيين) ، وسـواء لأسبـاب دينيـة ، أو أسباب دنيوية . . .

فالأسباب الدينية هي : أعمال الفسق والفجور التي كـان يرتكبهـا خلفاء بني أمية بصورة علنية ، إضافة إلى الجنايات العظمى التي ارتكبوها بحق أئمـة

الدين ، ورجال الإسلام المخلصين ، وقد أخذ حسّ النفور والكراهية يتنامى تدريجياً بين المسلمين المتدينين ضد بني أمية ، وخصوصاً بعد استشهاد الإمام الحسين (ع) على يد جلاوزتهم ، وبعد الثورات التي أعقبت ثورة الإمام الحسين (ع) مثل ثورة زيد بن علي بن الحسين (ع)[1] وبعدها ثورة ابنه يحيى بن زيد[2]. وفي النهاية انكشف القناع عن وجه الأمويين ، وزالت الصبغة الدينية عن حكمهم كلياً .

وأما الأسباب الدنيوية فهي : مبالغة ولاتهم في ممارسة الظلم والجور بحق الناس ، خصوصاً وأن بعض هؤلاء الولاة مثل الحجاج بن يوسف في العراق[3] ـ وآخرين من مثله في خراسان ـ وصلوا إلى الذروة في أعمال التعسف والإجرام . وظهر بين الإيرانيين وخصوصاً أهل خراسان . (بمفهومها الواسع قديماً)، نشاط كبير وحركة جدّية ضد خلفاء بني أمية الذين أوجدوا تفكيكاً بين مسألة الدين . ومسألة الحكم ، والسياسة، وهذا في نظر الإسلام بدعة وضلالة .

ولقد تركت بعض ثورات العلويين في خراسان آثاراً إعلامية كبيرة جداً بالرغم من أن الثوار أنفسهم قتلوا ، ولم يحققوا نصراً عسكرياً .

فقد ثار زيد بن الإمام زين العابدين (ع) في أطراف الكوفة ، بعد أن بايعه أهل الكوفة ، وعاهدوه على النصرة ، ولكن لم يف بعهده إلّا القليل منهم ، وقُتل زيد بشكل مفجع ، ومثل به أعداؤه أبشع تمثيل ، فبالرغم من أن أنصاره قاموا بقطع أحد الأنهر ليلاً ، وحفروا له قبراً في قاع ذلك النهر ، ودفنوه ، ثم أجروا عليه الماء ثانية ، وذلك كي لا يعرف أحد بمكان قبره ، إلّا أن الحفّار وشى للسلطات ، وبعد عدة أيام جاء رجال بني أمية ، وأخرجوا جثمانه من قاع النهر ، وصلبوه في مكان عام مدة طويلة إلى أن تيبّس الجثمان ، وقيل أنه بقي معلقاً على خشبة الصلب مدّة أربع سنوات !

---

(١) راجع مقاتل الطالبيين : ص ١٢٧ ـ ١٥١ .

(٢) راجع المصدر نفسه : ص ١٥٢ وما بعدها .

(٣) راجع جمل من أخبار الحجاج وخطبه في (مروج الذهب : ج ٣ ص ٣٢٩) .

وكان لزيد ولد اسمه يحيى ثار هو الآخر ، ولحقت به الهزيمة ، ففرّ إلى (خراسان) ، وترك هناك آثاراً عميقة، ووجد بين الخراسانيين محبوبيّة كبيرة ، ولكنه قتل في النهاية في معركة مع القوات الأموية .

وهكذا شاهد أهل خراسان عياناً ـ وحسب الظاهر للمرة الأولى ـ كيف أن أولاد النبي (ص) يعارضون الخلافة القائمة ، ويثورون ضدها مضحين بأنفسهم ، وهذا يعني بالنسبة لهم سحب بساط القدسية من تحت أقدام الحكام الأمويين المتلبّسين برداء الخلافة الإسلامية ، ففي ذلك الزمان لم تكن أخبار الحوادث والوقائع تنتقل بسرعة كما هو اليوم ، وكان يحيى في الواقع هو الذي استطاع أن يوضح لأهل (خراسان) قضيّة الإمام الحسين(ع) ، وقضية زيد بن الإمام زين العابدين (ع) ، وسائر القضايا ، بحيث ذكر بعض المؤرخين أن الخراسانيين عندما عزموا القيام بالثورة على بني أميّة بعد ذلك ، أقاموا العزاء على يحيى بن زيد سبعين يوماً (أي إنهم اتخذوه رمزاً لثورتهم ، وهذا يدل على أن بعض الثورات التي لا تنجح في بدايتها ، يمكن أن تعطي ثمارها فيها بعد ، وبصورة تدريجية) .

وعلى أي حال فقد تهيّأت في (خراسان) الأرضية المناسبة للنهوض والثورة ، ولكنها بالطبع ليست ثورة موجّهة بالكامل ، وتحت قيادة محدّدة ، بل كانت بشكل عام ثورة ناشئة عن سخط شديد تنامي بين جماهير الناس هناك ، ضد الحكم الأموي الجائر.

استغلال بني العباس لسخط الجماهير :

استفاد بنو العباس من هذه الأحداث أقصى استفادة ، وكان على رأسهم آنذاك ثلاثة إخوة أحدهم إبراهيم الإمام ، والآخر أبو العباس السفاح ، والثالث أبو جعفر المنصور ، وهم أبناء عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس عم النبي (ص).

وكان هؤلاء الثلاثة في الواقع من الرجال النوابغ ، فقاموا بتأليف التشكيلات السرية ، وكانوا يديرونها من أماكن اختبائهم في (الحجاز) ،

و(العراق) ، و(الشام) ، واتخذوا مندوبين لهم ، وأرسلوا المبلّغين والدعاة إلى سائر الأطراف والأكناف ، وركزوا جلّ اهتمامهم على أهل (خراسان) ، حيث أخذوا يدعون الخراسانيين إلى التمرد والثورة على النظام الأموي ، ولكنهم لم يعيّنوا في دعوتهم شخصاً معيّناً يقود الثورة ، وإنما كانوا يدعون إلى (الرضيّ من آل محمد) أو (الرضا من آل محمد)[1] أيّ إلى شخص من أبناء رسول الله (ص) يكون مقبولاً عند الناس .

ومن هنا يتبيّن أن الأرضية الشعبية كان أرضية أهل بيت النبي (ص) أي أرضية الإسلام ؛ وهؤلاء الذين يريدون اليوم أن يضفوا على ثورات أهل (خراسان) الصبغة الإيرانية ، ويدّعون أنهم قاموا بهذه الأعمال بدافع العصبية القومية والإقليمية ، مخطئون تماماً ، فهناك مئات الشواهد والدلائل على كذب هذا الإدعاء ، ولا أريد الآن أن أدخل في بحث هذه المسألة .

وبالطبع كان الناس غير راضين عن النظام الحاكم ، ولكن الشيء الذي فكروا فيه من أجل خلاصهم من جور بني أميّة هو الإلتجاء إلى الإسلام ، وليس إلى أيّ شيء آخر . فكانت كل شعاراتهم إسلامية . ولم تكن هناك قوة تجبرهم آنذاك على أن يرفعوا الشعارات الإسلامية لا الإيرانية . ولو كان أهل (خراسان) في ذاك الزمان ، يريدون أن ينفضوا أيديهم من مسألة الخلافة ، وحتى من مسألة الإسلام ، لكان أسهل عليهم من شرب الماء ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل جاهدوا ضد نظام الخلافة المنحرفة بإسم الإسلام ، ولأجل الإسلام ، منذ اليوم الأول الذي أعلنوا فيه قيامهم ، وكان ذلك في سنة (١٢٩ هـ) في « مرو »[2] وفي قرية تدعى « سفيدنج » ، واختاروا أن يكون

---

(١) راجع حياة الإمام الرضا (ع) لباقر شريف القرشي : ٢ / ٢٠٥ - تاريخ ابن خلدون : ٧ / ٢٤٣ - حياة الإمام موسى بن جعفر (ع) : ٢ / ٤٠٠ .

(٢) مرو : قال اسحاق بن الحسين « هي في الإقليم الخامس ، وبعدها عن خط المغرب خمس وثمانون درجة ، وعن خط الإستواء ثمان وثلاثون درجة . وهي من أجل كور (خراسان) . افتتحها حاتم بن النعمان الباهلي ، في خلافة عثمان سنة إحدى وثلاثين . وأهلها أشراف من العجم ، وبها قوم من العرب من (الأزد)، وبها ينزل ولاة (خراسان) ، ويشرب =

ذلك اليوم عيد فطر - كان الشعار الذي كتبوه على راياتهم هو أول آية قرآنية نزلت بشأن الجهاد وهي : ﴿ **أُذن للذين يقاتلون بأنّهم ظلموا ، وإنَّ الله على نصرهم لقدير** ﴾[1].

وفي هذا إشارة إلى أن بني أمية قد رجعوا إلى زمان الجاهلية الأولى ، وأن التأريخ أخذ يعيد نفسه ، فأصبح حال المسلمين اليوم كحالهم في زمان رسول الله (ص) في مقابل مشركي قريش .

والآية الأخرى التي جعلوها شعاراً لهم هي : ﴿ **يا أيها الناس ، إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[2] . وذلك إشارة إلى أن الأمويين - خلافاً لمبادىء الإسلام - أثاروا نعرة القومية العربية ، وادعوا امتياز العرب على العجم ، وهذا بنصّ الآية الكريمة خلاف الأصل المسلّم به في القرآن ، فهم (أي أهل خراسان) ، بهذا الشعار ، إنما يدعون العرب الذين نسوا الآيات القرآنية والتعاليم الإسلامية إلى الإسلام مرة أخرى!!

وبهذه المناسبة هناك حديث نقله في كتاب « الخدمات المتقابلة بين الإسلام وإيران » يقول : « إن أحد أصحاب النبي (ص) ذكر في حضرته أنه رأى في المنام أغناماً بيضاء دخلت في أغنام سوداء ، واختلطت معها ، وتزاوجت فخرج منها ذرّية . . ففسّر النبي (ص) ذلك بأن العجم سوف يشاركونكم (أي العرب) في الإسلام ، ويختلطون معكم ، رجالكم يتزوجون نساءهم ، ورجالهم يتزوجون نساءكم . . إلى أن قال (ص) : وإنّي لأرى ذلك اليوم الذي يقاتلكم فيه العجم على الإسلام ، كما تقاتلونهم أنتم على

= أهلها من عيون وأودية . وبها تعمل الثياب المروية من القطن . ومن مدينة (مرو) إلى مدينة (سرخس) ، ثلاث مراحل . (راجع آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان لاسحاق بن الحسين : ص ٧٤) .

(١) سورة الحج ، الآية : ٣٩.

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣.

الإسلام » . ومصداق هـذا الحديث في شقّـه الأول ، هو قيـام العجم من أهل (خراسان) ضد العرب بقيادة آل أمية ، كما أشرنا إلى ذلك .

وكان بنو العباس بتشكيلاتهم السـرية يقـودون ثورات أهـل (خراسـان) ويـديرونهـا بدقـة بالغـة ، وتنظيم محكم ، وكـانوا هم الـذين أرسلوا أبا مسلم الخـراساني[1] فيمن أرسلوا من الـدعاة إلى خـراسـان . وأبـو مسلم هـذا غيـر معـروف الأصل والنسب ، وإلى اليـوم لم يستطع التـأريخ أن يثبت أنـه إيـراني الأصـل أم عـربي ، وإذا كـان إيـرانيـاً فمن أهـل (خـراسـان) أم من أهـل (أصفهـان) ؟ لقد كـان غلامـاً شابـاً ، يبلغ من العمر عشـرين عـامـاً ونيّف ، إلتقى بـه إبراهيم الإمـام ، فوجـد فيه ليـاقة عـالية ، وأنـه يصلح للعمل الـذي يريده ، فأرسله إلى خراسان ، وعلى أثر كفـاءته واستعـداده استطاع أن يغـطي على سائر المبلّغين والدعاة هناك ، ومن ثم يستفرد بزعامـة النهضة التي كـانت تتنامى بين أهل (خراسان) .

أبـو مسلم هذا زعيم كفـوء بـالمفهـوم السيـاسي ، ولكنـه من النـاحيـة الأخلاقية ، إنسان شرير جداً يخلو من كل معاني الإنسانية ، وهو في ذلك يشبه الحجّاج بن يوسف[2] الثقفي الذي كان أيضاً شخصاً ذكياً نابهاً ، ذا كفاءة عالية

---

(١) أبو مسلم الخراساني (١٠٠ ـ ١٣٧ هـ) : عبد الرحمٰن بن مسلم ، مؤسس الدولة العباسية ، وأحد كبار القـادة ، وُلد في (مـاه البصرة) ممـا يلي (إصفهان) ، عنـد عيسى ومعقل ، ابني إدريس العجلي ، فربياه ، اتصل بإبراهيم بن الإمام محمد ، من بني العباس ، فـأرسله إبراهيم إلى (خراسان) داعية ، وثب على ابن الكرمـاني (والي نيسابـور) فقتله وخطب بـاسم السفاح العباسي (عبدالله بن محمد). سير جيشاً لمقاتلة مروان بن محمد الملقب بـ (مروان الحمّار) ، آخر ملوك بني أمية ، فانهزمت جنود مروان إلى الشام ، وفر مروان إلى مصر فقتل في (بوصير) . رأى المنصـور العباس من أبي مسلم مـا أخافـه أن يطمـع بالملك فقتله بـ (رومـة المـدائن) . عـاش أبـو مسلم سبعـاً وثـلاثين سنـة . (راجـع الإعـلام للزركلي : ج ٣ ص ٣٣٧ ـ وفيـات الأعيـان : ج ١ ص ٢٨٠ ـ الـطبـري : ج ٩ ص ١٥٩ ـ ميزان الإعتـدال : ١١٧/٢ ـ لسـان الميزان : ج ٣ ص ٤٣٦ ـ تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٢٠٧) .

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ ـ ٩٥ هـ) : أبو محمد قائد ، داهيـة ، سفاك ، خـطيب ، ولد ونشـأ في (الطائف) بـ (الحجـاز) . انتقل إلى الشـام ، فلحق بروح بن زنبـاع ، نـائب عبـد =

في الإدارة والسياسية ، بحيث استحوذ على إعجاب عبد الملك بن مروان وثقته ، ولكنه كان يخلو من كل فضيلة أخلاقية أو صفة إنسانية ، فقتل في مدّة ولايته على العراق مائة وعشرون ألفاً من الأبرياء ، وكذلك فعل أبو مسلم فقد قيل أن عدد من قتلهم ظلماً بلغ ما يقارب الستمائة ألف إنساناً[1] . وكان يقتل حتى أقرب المقرّبين إليه ولأتفه الأسباب ، ولم يكن يفرّق في ذلك بين العربي وغير العربي ، حتى يمكن أن نقول : إنه كان يتمتع بالتعصب القومي أو العرقي .

وفي خضم هذه الأحداث ، لا نلاحظ أنه كان للإمام الصادق (ع) دخل في نشاطات الدعوة والتنظيم ، ولكن بني العباس ، على العكس من ذلك ، كان لهم دخل كامل في هذه المسألة ، وكانوا مندفعين إلى حدّ التضحية ، وكثيراً ما كانوا يصرّحون بأنه : إما أن نقتل جميعاً ونمحى من الوجود ، وإمّا أن نأخذ الخلافة من هؤلاء (أي بني أمية) .

والمسألة التي ينبغي أن نضيفها هنا هي : أن بني العبّاس كان لهم اثنان من الدعاة الذين كانوا يقودون نهضتهم المضادة للحكم الأموي ، أحدهم في الكوفة ويدعى (أبا سلمة الخلال)[2] وكان مختفياً أيضاً ، والآخر أبو مسلم

= الملك بن مروان ، فكان من عديد شرطته . ثم ولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف ، ثم أضاف إليها العراق ، وثبتت له الإمارة عشرين سنة . وكان سفاكاً سفاحاً باتفاق معظم المؤرخين . مات بـ(واسط) وأجري على قبره الماء فاندرس . (راجع الإعلام للزركلي : ج ٢ ص ١٦٨ ـ وفيات الأعيان : ١/١٢٣ ـ المسعودي : ٢/١٠٣ ـ ابن الأثير : ج ٤ ص ٢٢٢) .

(١) راجع الحاشية فيما سبق .

(٢) حفص بن سليمان الهمداني ، أبو سلمة الخلال (ت ١٣٢ هـ) : كانت إقامته قبل ذلك في الكوفة ، وانفق أموالاً كثيرة في سبيل الدعوة العباسية ، كان يحمل كتب إبراهيم الإمام بن محمد إلى النقباء في (خراسان) استوزره السفاح ، فكان أول وزير لأول خليفة عباسي . توهم السفاح فيه الميل لآل علي (ع) ، فدسّ له أشخاصاً فقطعوه بأسيافهم ليلاً . (راجع الأعلام للزركلي : ٢/٢٦٤ ـ وفيات الأعيان : ١/١٦٣ ـ الفخري : ١١١ ـ تهذيب ابن عساكر : ٤/٣٧٧ ـ البداية والنهاية : ١٠/٥٥).

الخراساني الذي ذكرنا أنهم أرسلوه إلى خراسان ، ونجح في دعوته هناك بشكل باهر .

وكان أبو سلمة في الدرجة الأولى من حيث الأهمية بالنسبة للعباسيين ، بينما كان أبو مسلم يحتلّ الدرجة الثانية ، ولذلك كانوا يلقبون الأول بـ (وزير آل محمد) والثاني بـ (أمير آل محمد) .

وكان أبو سلمة رجلاً مدبراً ، وسياسياً ، قديراً ، ملمّاً بالأمور ، وكان ـ أيضاً ـ عالماً ومحدّثاً جيداً . وكانت آحدى خصال أبي مسلم الرديئة أنه كان يضمر في قلبه الحسد تجاه أبي سلمة وكان يراه منافساً خطيراً ينبغي إزاحته ، فأخذ من موقعه في خراسان يحوك المؤامرات ضدّه للإطاحة به ، وأخذ يكتب إلى أبي العباس السفّاح بأن أبا سلمة هذا رجل خطر عليكم ، فلا تتوان في القضاء عليه بأسرع وقت ، كما كتب أيضاً بهذا الشأن إلى أعمام السفاح وأقربائه ، ولكن السفاح لم يستجب لطلبه وإلحاحه في هذا الأمر وكان يقول : كيف أقتل شخصاً قدّم إليّ كل هذه الخدمات ، وضحى من أجلي كل هذه التضحيات ؟ فكتب أبو مسلم يقول له : أنا على يقين أن في قرارة قلبه نوايا سيئة ، فهو يريد أن يأخذ الخلافة من آل العباس ، ويعطيها لآل أبي طالب . فكان جواب السفاح : لم يثبت عندي شيء من ذلك ، وإذا كان هذا صحيحاً ، فهو شيء خطر في قلبه والبشر ليس بمأمن من هكذا خواطر[1] .

وهكذا فشل أبو مسلم في حمل السفّاح على قتل أبي سلمة ، ولكنه علم فيما بعد أن أبا سلمة قد تنبّه إلى مؤامرته تلك ، ففكّر أن يقوم شخصيّاً بالمبادرة في القضاء عليه . وكان أبو سلمة يذهب في كثير من الليالي لمقابلة السفّاح والحديث معه ، ثم يعود آخر الليل إلى منزله . فأرسل أبو مسلم عدداً من رجاله فترصّدوا لأبي سلمة في طريق عودته وقتلوه . ولأن بعض رجال السفّاح ـ أيضاً ـ كانوا يرافقون القتلة ، فقد أصبح دم أبي سلمة لوثاً ، وتخلّص أبو مسلم من تحمّل العبء الكامل في هذه القضية . وقد حدثت كل هذه

---

(١) راجع جمهرة رسائل العرب : ج ٣ ص ٢٠ ـ تاريخ المسعودي : ج ٤ ص ٩٧ .

الأمور في السنين الأولى لخلافة السفّاح ، وهنا قصّة تُذكر بشأن أبي سلمة تدور حولها بعض التساؤلات وهي كما يلي :

رسالة أبي سلمة إلى الإمام الصادق (ع) وإلى عبد الله المحض :

كان أبو سلمة كما يذكر المسعودي في (مروج الذهب) يعمل لصالح آل العبّاس ، طوال المدّة التي كانوا يدعون فيها للثورة على بني أمية ، وإلى سنة (١٣٢ هـ) حيث ظهر بنو العباس علناً في العراق ، وكان الفتح والظفر من نصيبهم . وكان إبراهيم الإمام قبل ذلك يمارس نشاطه في حدود الشام بصورة سرية . كان هو الأخ الأكبر وكانوا يريدون أن ينصّبوه خليفة . ولكن إبراهيم أحيط به من قبل رجال مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وأحسّ أنهم علموا بمكان اختبائه[1] ، وأنه عمّا قريب سيقع في قبضتهم ، فكتب وصيته وأرسلها بيد أحد أعوانه إلى (الحميمة) قرب الكوفة ، حيث كان إخوانه هناك .

وبيّن في هذه الوصية الخطوط الرئيسة لسياسة المستقبل ، وعيّن فيها خليفته من بعده وقال : إنهم سوف يقتلونني لا محالة ، فإذا قتلت فإن أخي السفّاح هو الخليفة من بعدي (وكان السفّاح أصغر سناً من المنصور) ، وأخبرهم بأنه قد آن الأوان للخروج من (الحميمة) ، وأمرهم بالذهاب إلى الكوفة ، والإختفاء هناك ، وبشّرهم بأن وقت الظهور قريب .

وقتل إبراهيم ، ووصلت رسالته بيد إخوانه ، فذهبوا متسترين إلى الكوفة ، واختبأوا هناك . وكان أبو سلمة أيضاً مختبئاً في الكوفة ، يدير شؤون النهضة . ولم يمض شهر أو شهران على مقتل إبراهيم ، حتى ظهر العباسيّون رسمياً ، وقاتلوا وانتصروا على القوات الأموية .

يقول المسعودي : بعد أن قتل إبراهيم الإمام ، وآل الأمر إلى السفّاح وجماعته ، ندم أبو سلمة ، وفكّر في أن يرجع الخلافة من آل العباس إلى آل

---

(١) حبس إبراهيم الإمام بـ (حران) (راجع مروج الذهب : ج ٤ ص ٩٥) .

أبي طالب ، فكتب رسالتين متماثلتين : وأرسلهما سراً بيد شخص إلى المدينة ، واحدة إلى الإمام الصادق (ع) والأخرى إلى عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع)[1]، وأمر الرسول أن يسلم الرسالتين إلى هذين الشخصين ، دون أن يطلع أحدهما على رسالة الآخر .

وكان خلاصة ما كتبه في رسالته المزدوجة هذه هو أن أمر الخلافة أصبح في قبضته ، فزمام (خراسان) وزمام (الكوفة) بيده ، وأنه هو الذي أجرى الأمور إلى الآن لصالح بني العباس ، وإذا كانا يوافقان ، فهو مستعد لأن يرجع الأوضاع لصالح آل أبي طالب .

ردّ فعل الإمام الصادق (ع) وعبدالله المحض :

سلّم الرسول الرسالة أولاً إلى الإمام الصادق (ع) (وكان ذلك ليلاً) ، وبعد ذلك سلّم رسالة عبدالله المحض . وكان ردّ فعل كل من هذين

---

(١) كان للإمام الحسن (ع) ولد يدعى أيضاً الحسن ، فكان يلقب بالحسن المثنى ، وكان الحسن المثنى هذا في (كربلاء) في ركاب أبي عبدالله الحسين (ع) ، ولكنه لم يستشهد ، بل كان ضمن المجروحين الذين سقطوا في المعركة ، وبعد أن جاء رجال زياد لتفقد الجرحى ، أخذه معه شخص منهم تربطه به قرابة من جهة الأم ، وتشفع له عند عبيد الله بن زياد ، حتى لا يقتله ، وبعد ذلك عُولج الحسن المثنى ، وشُفي من جراحه . ثم إنه تزوج بفاطمة بنت الحسين (ع) التي حضرت (كربلاء) أيضاً ، وكانت صغيرة السن وينقل بأنها : كانت جارية وضيئة (أي بالغة الحُسن) (وفاطمة هذه هي التي كانت في مجلس يزيد مع السبايا ، فطلب أحدهم منه أن يهبها له فسكت يزيد . فأعاد الطلب ثانية ، وهنا تصدت له زينب الكبرى (ع) وأغلظت له القولَ وعاتبت يزيد عتاباً شديداً ، مما جعله يلتفت إلى ذلك الرجل مغتاظاً ، ويشتمه ويقول له : لِمَ تكلمت معي بهذا الكلام ؟) وتولد من زواج هذين أبناء أحدهم هو عبدالله المحض هذا ، فهو من طرف الأم حفيد الإمام الحسين سيد الشهداء (ع)، ومن طرف الأب حفيد الإمام الحسن (ع) ، وكان يفتخر بهذا ويقول : « أنا ابن رسول الله (ص) وابن فاطمة الزهراء (ع) من طريقين » ، ولهذا لقب (المحض) أي الخالص من جهة النسب . وكان عبدالله هذا كبير بني الحسن (ع) في زمان الإمام الصادق (ع) ، كما كان الإمام الصادق (ع) كبير أولاد بني الحسين (ع).

الشخصين مختلفاً تماماً . كما ذكر المسعودي[1] .

فعندما سلم رسالة الإمام الصادق (ع) قال : أحضرت لكم هذه الرسالة من طرف أبي سلمة شيعتكم . فقال الإمام : أبو سلمة ليس من شيعتي . قال : على أي حال : هي رسالة تطلب الجواب . فأمر (ع) باحضار سراج ، ودون أن يفضّ الرسالة ، وضعها فوق النار وأحرقها قائلاً : قل لصاحبك هذا هو الجواب ! ثم قرأ هذا البيت من الشعر :

أيا موقداً ناراً لغيرك ضوءها ويا حاطباً في غير حبلك تحطب[2]

وكأنما كان الإمام يقصد بذلك أن يقول :

يا لشقائك يا أبا سلمة ، إنك تبذل كل هذه الجهود ، وفي النهاية تكون الفائدة لغيرك ، ولن يعود عليك منها شيء سوى الحسرة . أو أن يكون المعنى متوجهاً إلى شخصه (ع) في حالة قبوله لعرض أبي سلمة ، وهو أنه سوف يخوض عبثاً في أمر تكون نتيجته النهائية من نصيب الآخرين - (المقصود بنو العباس) - .

فنهض الرسول من عند الإمام (ع) ، وذهب من فوره إلى عبدالله المحض ، ولما سلّمه رسالة أبي سلمة ابتهج لذلك ، وسرّ سروراً بالغاً ، وكما يذكر المسعودي[3] ، ركب عبدالله دابته في الصباح الباكر وتوجه إلى بيت الإمام الصادق (ع) .

---

(١) المسعودي : أبو الحسن ، علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) وهو مؤرخ معروف عند الدارسين والبحاثة ، وفي مفهوم التشيع والتسنن الذي نعرفه اليوم فهو سني قطعاً ، لأن ملاك التشيع بالقدر المسلم به عندنا هو الإعتقاد في مسألة الخلافة والمسعودي يولي احتراماً فائقاً للخلفاء الثلاثة ، ولكنه في الوقت نفسه يحترم الأئمة كثيراً . وهو من مؤرخي الدرجة الأول في الإسلام . (هذا تعليق المؤلف (رضوان الله عليه) - ولكننا نقول بأنه شيعي متعصب وكلامه في الخلفاء كان للتقية لا أكثر) . (راجع أعيان الشيعة : في ترجمة علي بن الحسين المسعودي - للسيد محسن الأمين العاملي (قده) .

(٢) مروج الذهب : ج ٤ ص ٩٧ . والبيت للكميت بن زيد .

(٣) المصدر السابق : ج ٤ ص ٩٦.

« فلما رآه أبو عبدالله أكبر مجيئه ، وكان عبدالله أسنّ من أبي عبدالله ، فقال له : يا أبا محمد أمر ما أتى بك ! قال : نعم ، هو أجلّ من أن يوصف ، فقال : وما هو يا أبا محمد ؟ قال : هذا كتاب أبي سلمة يدعوني إلى ما قبله ، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل (خراسان) . فقال له أبو عبدالله : يا أبا محمد ، ومتى كان أهل (خراسان) شيعة لك ؟ أأنت بعثت أبا مسلم إلى (خراسان) ؟ أأنت أمرته بلبس السواد ؟[1] وهؤلاء الذين قدموا العراق ، أأنت كنت سبب قدومهم ، أم وجهت فيهم ، وهل تعرف منهم أحداً ؟[2].

فنازعه عبد الله بن الحسن الكلام إلى أن قال : إنما يريد القوم ابني محمداً لأنه مهدي هذه الأمة !

فقال له أبو عبدالله جعفر : والله ما هو بمهدي هذه الأمة ! ولئن شهر سيفه ليقتلنّ ! فنازعه عبدالله القول ، حتى قال له : والله ما يمنعك من ذلك إلاّ الحسد !.

فقال له أبو عبدالله : والله ما هذا إلاّ نصح مني لك ، ولقد كتب إليَّ أبو سلمة بمثل ما كتب به إليك ، فلم يجد رسوله عندي ما وجد عندك ، ولقد أحرقت كتابه قبل أن أقرأه !.

فانصرف عبدالله من عند جعفر مغضباً ، ولم ينصرف رسول أبي سلمة إليه إلى أن بويع للسفاح بالخلافة[3].

---

(١) مسألة اللباس الأسود اتخذت كرسم في عزاء يحيى بن زيد هذا تعليق الأصل وأما الصحيح فقد قال أبو هلال العسكري (ت ما بعد ٤٠٠ هـ) : « أول من لبس السواد حين قتل مروان بن محمد ، إبراهيم بن محمد الإمام العباسي ، جيء به مروان ، فقال : أنت الذي تدعي لك الإمامة ؟ قال : لست به . فقال : أسوة بمن في أعبس من بني أبيه ، وكان فيه جماعة من قريش . . . ثم قتله مروان فلبس شيعته السواد ، فلزمهم ، وصار شعاراً لهم ، راجع كتاب الأوائل : ص ١٧٧) .

(٢) جاء عدد من الخراسانيين آنذاك إلى العراق ، وكانوا هم الذين ساعدوا بني العباس ، وشاركوا في الثورة مع غيرهم من العرب .

(٣) مروج الذهب : ج ٤ ص ٩٨.

وكانت هذه القضايا مقارنة للتطورات التي كانت تجري في العراق ، والتي كانت تنبىء بوقت ظهور بني العباس . وكان أبو مسلم يقوم بنشاط محموم من أجل القضاء على أبي سلمة ، وكان أعمام السفّاح يؤيدونه ويدعمونه في ذلك ، وكان هذا هو ما حصل ، فقبل أن يصل رسول أبي سلمة إلى الكوفة عائداً من المدينة ، كانوا قد أجهزوا على أبي سلمة ، وقضوا عليه ، ولهذا فإنَّ الجواب الذي كتبه عبدالله المحض لم يصل إلى يد أبي سلمة أصلاً .

بحث : يبدو لي ـ مع الوصف الذي ذكره المسعودي ، ولم يذكره غيره شيئاً خلافه ـ أن قضية أبي سلمة واضحة جداً ، فهو رجل سياسي ، وليس شيعياً ، ولا مؤيداً للإمام الصادق (ع) (كما يقرر ذلك الإمام نفسه) ولأسباب لا تخفى علينا ، غيّر فجأة سياسته التي كانت موجهة لصالح بني العباس ، ولمّا لم يكن هناك مجال لطرح أيّ كان لمسألة الخلافة ، إذ إنَّ الناس لم يكونوا يرضون أن تخرج الخلافة من حدود آل بيت النبي (ص) ، فإنّه عندما صرف نظره عن بني العباس ، لم يجد أمامه غير آل أبي طالب ، والذي برز منهم في المقدمة شخصان ، وهما كما ذكرنا : الإمام الصادق (ع) ، وعبدالله المحض . وبأسلوب سياسي حاذق أرسل لكليهما الرسالة نفسها بحيث أن أي السهمين أصاب فبها ونعمت .

وعلى هذا ، لم تكن قضية الدين والولاء مطروحة بالنسبة لأبي سلمة ، الذي كان يبحث عن شخص يتخذه أداة لتمرير سياسته ـ فقط ـ ، وإضافة إلى عدم توفر الإخلاص في عرضه هذا ، فإنَّ عمله أيضا كان محكوماً بالفشل ، والدليل على ذلك أنه قتل قبل أن يصل جواب رسالته بيده ، ونامت القضية بصورة تامة .

وأنا هنا أتعجب غاية العجب عندما أسمع بعض الذين يدّعون معرفة التأريخ يقولون : لماذا لم يقبل الإمام الصادق (ع) بعرض أبي سلمة الخلال ؟ في حين أن الظروف لم تكن أبداً مهيّأة لعمل مثل هذا ، لا من الجوانب المعنوية فيكون الذين قدّموا هذا العرض أفراداً موالين ، ذوي نوايا

خالصة ، ولا من الجوانب المادية حيث لم تكن الوسائل والإمكانات متوفّرة .

وحيث أننا أوردنا اسم عبدالله المحض ، وقلنا إنّ الإمام الصادق (ع) لم يتعاون مع العباسيّين ولم يقبل العروض المضادة للعباسيين ، فنحن نرى هنا أنه من اللازم أن ننقل واقعة أخرى تبيّن موقف الإمام (ع) من النهضات المضادة لبني أمية .

وهنا أستقي المعلومات من كتاب أبي الفرج الأصفهاني[1] ، لأني لم أجد في بحثي عن المراجع أفضل وأكثر تفصيلاً من هذا الكتاب ، وأبو الفرج هذا مؤرخ أموي سنّي وكانوا يلقبونه بالأصفهاني لأنه كان يقيم في (أصفهان) ، وليس بأصفهاني الأصل ، ومع أنه أموي سنّي فهو مؤرخ محايد . والشيخ المفيد[2] في كتاب (الإرشاد) ينقل عن أبي الفرج هذا ، لا عن روايات الشيعة .

الاجتماع السري لرؤساء بني هاشم .

عندما كانت النهضة ضد الأمويين في أوائل مراحلها ، اجتمع رؤساء بني هاشم في (الأبواء)[3] وهو منزل بين مكة والمدينة ، وعقدوا بينهم اجتماعاً

---

(١) علي بن الحسين . . . ابن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي (٢٨٤ ـ ٣٥٦ هـ) له مؤلفات عديدة ومن أشهرها كتاب (الأغاني) .

(٢) الشيخ المفيد : (٣٣٨ ـ ٤١٣ هـ) : هو محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام البغدادي ، أشهر من أن يوصف في الفقه ، والكلام ، والرواية ، والثقة ، والعلم ، له كتب كثيرة . وأهمها المقنعة ، والإختصاص والإرشاد .

(٣) نشاهد هذا الإسم كثيراً في تاريخ الإسلام . « والأبواء » هو المكان الذي توفيت فيه السيدة آمنة أم النبي (ص)، فعندما بلغ محمد (ص) الخامسة من عمره ، اصطحبته معها إلى المدينة ، حيث كان قومها وعشيرتها يعيشون هناك فكان للرسول (ص) من جهة أمه صلة وانتساب مع أهل المدينة . وفي طريق العودة مرضت آمنة وتوفيت في منطقة الأبواء هذه حيث دفنت هناك فبقي محمد (ص) مع جارية أمه « أم أيمن » ورجعا مع القافلة إلى مكة ، وهكذا رأى النبي (ص) بعينيه موت أمه في الغربة ، وفي أحد منازل الطريق . ويذكر أنه (ص) بعد الهجرة إلى المدينة ، في إحدى تنقّلاته مرّ « بالأبواء » فنزل ورآه أصحابه يسير منفرداً باتجاه نقطة معينة ، وما إن وصل إلى هدفه وقف قليلاً ثم جلس وأخذ في الدعاء ، ثم رأوا دموعه =

سرياً حضره أولاد الإمام الحسن (ع) : عبدالله المحض ، وابناه : محمد وإبراهيم . وكذلك حضره بنو العباس أي إبراهيم الإمام ، وأبو العباس السفّاح ، وأبو جعفر المنصور ، وعدد من أعمامهم . وهناك إلتفت عبدالله المحض إلى المجتمعين وقال : يا بني هاشم ، أنتم الذين تتطلع إليكم العيون ؛ ، وتشرئب الأعناق ، وها قد هيّأ الله لكم الوسيلة أن تجتمعوا هنا ، فهلمّوا جميعنا نبايع هذا الشاب (يقصد ابنه محمداً) ونجعله زعيماً لنا كي نقاتل ضد بني أمية[1] . وقد حدث هذا الإجتماع قبل قضية أبي سلمة بمدّة طويلة ، أي ما يقرب من اثني عشر عاماً قبل قضايا ثورة الخراسانيين ، وكان هو البادرة الأولى لمسائل القيام والثورة على النظام القائم .

البيعة لـ (محمد النفس الزكية) :

لم تكن الأرضية آنذاك مهيّأة بالنسبة لبني العبّاس ، ففكّروا أن لا بأس في البداية من طرح واحد من آل علي (ع) ، ممن له مكانة ووجاهة بين الناس ، وبعد ذلك يتدّبرون أمر إزاحته ليستفردوا بالأمر ، فاختاروا (محمداً النفس الزكية) لهذا الهدف ، وهو ابن عبدالله المحض الذي يتصل نسبه برسول الله (ص) ، كما ذكرنا ، عن طريق الأم والأب ، وكان في الواقع رجلاً مؤمناً متقياً ، جميل الصورة ، نوراني المحيّا ، وكان له خال في كتفه . وبسبب أن الروايات الإسلامية أكدت أنه عندما يزداد الظلم والجور في الدنيا فإن أحد أولاد النبي (ص) من فاطمة الزهراء (ع) يظهر ، ويكون اسمه اسم النبي (ص) ، وله خال في كتفه ، فقد اعتقد قسم من الناس ، وخصوصاً أولاد الإمام الحسن (ع) ، أن محمد بن عبدالله المحض هو مهديّ هذه الأمة الذي يجب أن يظهر ، ويخلص الناس من الظلم ، وأن هذا الزمان هو زمان

= تجري فتعجبوا وسألوا ما القضية ، فقال لهم : « هذا قبر أمي » ولم يكن قد مرّ بهذا المكان بعد وفاة أمه طوال خمسين عاماً ، ولكن برغم طول المدة لم ينس حق أمه ، فذهب « عندما سنحت له الفرصة » لزيارة قبرها وبكي هناك ودعا لها .

(١) راجع مقاتل الطالبين ؛ ص ٢٠٦ وما بعدها .

الظهور الموعود . وسايرهم بنو العباس في ذلك فكانوا يتظاهرون بهذه العقيدة مخادعة ومكراً .

وعلى أي حال ، كما يذكر أبو الفرج نهض عبدالله المحض ، وبدأ في الخطابة ، فدعا الحاضرين لمبايعة واحد منهم يختارونه زعيماً لهم ، ويعاهد بعضهم بعضاً على القتال ، ويدعون الله لعلّهم ينتصرون على بني أميّة . ثم قال : (أيها الناس ، كلكم تعلمون أن ابني هذا هو المهدي المدعود فهلموا جميعكم فبايعوه) . فقال المنصور : ليس هو مهدي الأمة فقط ، بل إني أعتقد أنه الشخص الأكثر مقبولية بين الناس ، نعم لقد صدق فتعالوا نبايعه . فوافقوا جميعهم وبايعوا محمداً .

وبعد ذلك أرسلوا يطلبون حضور الإمام الصادق (ع)[1] . وعندما جاء الإمام (ع) نهض عبدالله المحض من مجلسه ـ وكان هو الذي يدير ذلك الإجتماع ـ وأجلس الإمام إلى جانبه ، وكرّر عليه ما قاله له سابقاً من أن الأوضاع كذا وكذا ، وأن ابني هذا هو مهدي الأمة ، وأن الناس قد بايعوه فهلّم أنت ـ أيضاً ـ فبايع . فقال جعفر (ع) : (لا تفعلوا ، فإن هذا الأمر لم يأت بعد ، وإنّ كنت ترى أن ابنك هذا هو المهدي فليس به ، ولا هذا أوانه ، وإن كنت إنّما تريد أن تخرجه غضباً لله ، وليأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر ، فإنّا والله لا ندعك ، وأنت شيخنا ، ونبايع ابنك في الأمر) .

ولكن القوم أصروا وقالوا : إنّ هذا هو مهدي الأمة وإن هذا الأمر واضح لا يحتاج إلى نقاش ، فقال الإمام (ع): لا أبايع ! فظهر الضيق في وجه عبدالله ، وعندها قال له الإمام (ع) : إن ابنك ليس مهدي هذه الأمة ، وليس هذا فحسب ، وإنّما عندنا نحن أهل البيت أسرار ، فنحن نعلم من يكون

---

(١) يقول أبو الفرج : إن بعض الرواة يذكرون هنا أن عبدالله قال : لا ترسلوا وراء جعفر ، لأنه إن جاء فلن يوافق على ما جرى بل سوف يفسد علينا هذا الأمر ، ولكن الآخرين أصرّوا على حضور الإمام الصادق (ع) . ولكن رواة آخرين قالوا : إن عبدالله لم يقل شيئاً من هذا . (راجع مقاتل الطالبيين : ص ٢٠٧) .

خليفة ، ومن لا يكون ، وابنك لن يكون خليفة ، وسوف يقتل .

هنا يذكر أبو الفرج الأصفهاني[1] أن عبدالله استاء كثيراً وقال : كلا ، أنت تقول خلاف ما تعتقد . أنت أيضاً تعلم أن ابني هو مهدي الأمة ، ولكنك تقول ما تقول حسداً . فقال (ع) : والله ما ذاك يحملني ، ولكن هذا وإخوته وأبناءهم دونكم (وضرب بيده على ظهر أبي العباس) ثم وضع يده على كتف عبدالله بن الحسن المثنى وقال : إيهٍ ، ما هي إليك ولا إلى ابنيك . (كان (ع) يعلم أن عبدالله كان يتطلع إلى الخلافة وليس إلى أي شيء آخر) .

ثمّ نهض الإمام (ع)، وبينما كان يتكيء على يد عبد العزيز بن عمران الزهري[2] همس في أذنه قائلاً : أرأيت صاحب الرداء الأصفر ؟ (يقصد أبا جعفر المنصور)، قال نعم ، قال : أقسم أنّا نجد أنه يقتل ابني هذا (أي ابنيّ عبدالله) . فتعجب عبد العزيز (لأنه كان حاضرفا عندما بايع المنصور فيمن بايع محمداً) وقال : هذا يقتله ؟ قال : نعم ، يقول عبد العزيز : فقلت في نفسي لعلّه يقول ذلك حسداً .

ثم يقول بعد ذلك : أقسم بالله أني لم أفارق الدنيا حتى رأيت أبا جعفر المنصور يقتل محمداً وأخاه .

وكان الإمام الصادق مع كل هذا يحبّ محمداً كثيراً ، ولذا يذكر أبو الفرج : كان جعفر بن محمد إذا رأى محمد بن عبدالله بن الحسن تغرغرت عيناه ويقول : « بنفسي هو ، إن الناس ليقولون فيه وإنه لمقتول . ليس هذا في كتاب عليّ من خلفاء هذه الأمة »[3] .

ومن هنا يتبيّن أن هذه النهضة كانت منذ مراحلها الأولى قد بدأت باسم المهدوية ، وكان الإمام الصادق (ع) يعارض ذلك أشدّ المعارضة ، وكان

---

(١) مقاتل الطالبيين : ص ٢٠٧ ـ الإرشاد : ص ٢٥٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) مقاتل الطالبيين : ص ٢٠٨ ـ الإرشاد : ص ٢٥٥ و٢٩٤ ـ البحار : ج ٤٦ ص ١٨٩ .

حاضراً لأن يشترك معهم بعنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وليس بعنوان المهدوية . أما بنو العباس فكان حسابهم حساباً آخر ، وكان هدفهم الملك ، والسياسة ، والرئاسة ، لا أكثر .

خصائص زمان الإمام الصادق (ع):

أرى من اللازم هنا أن أنوّه بأن زمان الإمام الصادق (ع) زمان لا نظير له بالنسبة إلى غيره من العهود والأزمنة ، فقد طغت فيه النهضات والحركات الفكرية على النهضات والحركات السياسية في العالم الإسلامي ، واستمر هذا العهد من العقد الثاني للقرن الثاني من الهجرة ـ أي منذ سنة (١١٤ هـ) حيث استلم (ع) الإمامة بعد وفاة والده الإمام الباقر (ع) ـ إلى العقد الخامس من هذا القرن نفسه أي إلى سنة (١٤٨ هـ) حيث يكون قد مرّ حوالي قرن ونصف من الزمان على ظهور الإسلام . وحوالي قرن واحد على الفتوحات الإسلامية الكبيرة .

ودخل في هذه الفترة جيلان ، أو ثلاثة أجيال ، من المسلمين الجدد ، إلى العالم الإسلامي ، وبدأ نشاط ترجمة الكتب منذ عهد بني أميّة ، ودخلت في دنيا الإسلام شعوب ذات أفكار وثقافات عريقة ، وكان الكثير منها يهدّد الإسلام بالخطر .

وظهر الزنادقة[1] في هذا الزمان وهم الذين كانوا ينكرون الله ، والدين ، والنبي (ص). . . الخ ، وقد أعطاهم بنو العباس مقداراً من الحرية لأهداف معيّنة ، وظهرت مسألة التصوف[2] بشكل جديد . وظهر كذلك فقهاء ابتدعوا

---

(١) الزنادقة : الزنديق هو القائل ببقاء الدهر ، فارسي معرب ، وهو بالفارسية (زندكراي) يقول : بدوام بقاء الدهر . والزندقة : الضيق وقيل : الزنديق منه لأنه ضيق على نفسه . وفي التهذيب : الزنديق معروف . وزندقته أنه لا يؤمن بالآخرة ووحدانية الخالق . . . وقالوا عنه : ملحد دهري . وقال سيبويه : الهاء في زنادقة وفرازنه عوض من الياء في زنديق وفرزين وأصله الزناديق . وقال الجوهري : الزنديق : من الثنوية وهو معرب والجمع : الزنادقة ، وقد تزندق ، والاسم الزندقة . (لسان العرب).

(٢) التصوف : نزعة روحية تميل بالإنسان عن العالم المادي ، وترتفع به إلى العالم الروحي ، وهو

مذاهب فقهية تقوم على أسس جديدة (الرأي والقياس وغيره) . وبرز صراع فكري في دنيا الإسلام لم يكن له نظير من قبل ، ولم يظهر نظير له فيما بعد ! .

وعلى هذا ، فزمان الإمام الصادق (ع) يختلف كل الإختلاف عن زمان الإمام الحسين (ع) ، حيث كان زمان الإمام الحسين (ع) عهداً من الكبت المظلم ، والإرهاب الشديد ، ولهذا لم يتجاوز ما نقل عن الإمام الحسين (ع) من الأحاديث في تمام مدّة إمامته ، خمس أو ست جمل لا أكثر . وعلى العكس من ذلك ، فقد تهيأت الأرضية في زمان الإمام الصادق (ع) على أثر الصراعات السياسية والنهضات الثقافية ، بحيث وجد (ع) المناخ مناسباً جداً ليفجّر الثورة العلمية الإسلامية الصحيحة ، ويقوم بحركة نشطة لتأسيس المدارس والحوزات العلمية ، ونشر الأحاديث والسنن النبوية ، وكل ذلك لإحياء الإسلام ، والمحافظة على الدين المحمدي في مواجهة الموجات الفكرية الإلحادية ، وحركات التضليل الإعلامي . وقد سجّل التاريخ أسماء أربعة آلاف شيخ[1] تتلمذوا على يد الإمام الصادق (ع)، ونهلوا من منبع العلوم الصافي الرقراق ، ونقلوا تلك العلوم إلى الآخرين ، وهكذا تشكلت من ذلك أرضيّة صلبة للإسلام في مواجهة كل التيارات التي كانت تهدف إلى تقويض صرح الدين الإسلامي .

ونخلص من ذلك إلى القول بأننا لو تصورنا ـ على سبيل الإفتراض ـ أن ظروف الإمام الصادق (ع) كانت تسمح له بالقيام والإستشهاد كما حصل للإمام الحسين (ع) ، فإننا نرى أن الطريقة التي اتبعها الإمام الصادق (ع) واختارها سبيلاً للجهاد في سبيل الله ، وأداء الرسالة الملقاة على عاتقه ،

= بهذا المفهوم ظاهرة إنسانية ، تنشأ في كل بيئة دينية أما أن يصل الفكر الصوفي إلى الإعتقاد بحلول الله تعالى في الجسد الآدمي كما ادعى الحلاج مثلاً ، أو الذوبان في الذات الإلهية من خلال المحبة على ما في ذلك من تجسيد لا يخفى كما زعمت رابعة العدوية المتوفاة سنة ١٨٠ أو ١٨٥ هـ ، فذلك ليس من التصوف في شيء بل إنه بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار (راجع كشف المحجوب للهجويري : ص ٢٨) .

(١) راجع الإمام الصادق والواقع المعاش للسيد عبد الحسين القزويني : ص ٧٣ .

أجدى وأنفع للإسلام من خروجه بالسيف وسقوطه شهيداً ـ وإن كان في ذلك فوائد لا تنكر ـ فقاعدة عدم ترك الأولى التي يلتزم بها جميع الأئمة (ع) هي التي جعلت الإمام الصادق (ع) يختار الثورة العلمية ، ويضرب صفحاً عن الثورة الدموية .

القسم الثاني :

إتّضح لنا مما سبق أن الإمام الصادق (ع) اعتزل أمر الحكومة والخلافة ، ولم يقم بأي عمل ينمّ عن تطلعه إلى الإمساك بزمام السلطة والزعامة ، برغم الفرص التي لاحت أمامه ، وبرغم أن الساحة السياسية كانت تعجّ بالأحداث والتطورات التي يمكن استغلالها والإستفادة منها بصورة من الصور . وبالطبع لم يكن من الناحية الأخرى يعارض النهضات والحركات المضادّة للأنظمة الحاكمة الجائرة ، بل كان يعطيها الدعم ـ ولكن في الخفاء ـ وذلك لكي يتمكن من أن يحتفظ بموقعيّة تساعده على أداء المهمّة التي كان ينوي القيام بها .

وأشرنا في معرض المقارنة بين موقف الإمام الصادق (ع) ، وموقف الإمام الحسين (ع) ، الذي يفصل بينهما ما يقارب القرن من الزمان ، إلاّ أنَّ عهد الإمام الحسين (ع) كان يسيطر ، عليه الإختناق والتكتيم الإعلامي ، ولم يكن مطروحاً في ذلك الوقت إلاّ مسألة واحدة وهي مسألة الحكومة والخلافة . وكان نظام الخلافة يتحكم بصورة تامة في سائر العوامل الأخرى ، فكانت الخلافة تعني كل شيء ، وكان كل شيء يعني الخلافة ، وذلك لأن البساطة كانت ما تزال حاكمة على المجتمع الإسلامي آنذاك .

ولم يكن يجري في تلك الأيام بحث ولا نقاش إلاّ حول موضوع واحد وهو : من يكون صاحب الأمر . فكان نظام الخلافة يسيطر على جميع شؤون الحكم وجميع نشاطات المجتمع . وقد وفرت هذه الحالة لشخص مثل معاوية أن يفرض ديكتاتورية عجيبة على المسلمين ، عندما استلم زمام الخلافة ، بحيث لم يكن لأحد الحقّ أن يتنفس في تلك الأجواء الخانقة ، ولم يكن

مسموحاً للناس بأيّ شكل من الأشكال أن يتناقلوا بينهم أحاديث وأخباراً تحمل رائحة المخالفة والمعارضة لسياسة الحكومة .

ويروى أن الشخص ـ في ذلك العهد الأسود ـ كان إذا أراد أن ينقل حديثاً في فضيلة عليّ (ع) مثلاً فإنه كان يحرص على التوثق التام بأن الطرف المقابل لن يفشي هذا الأمر ، وإلاّ كانت العواقب وخيمة ، فإمّا السجن ، وإمّا الإعدام ، وكان الشيعة يتشدّدون في الإحتياط بحيث أنهم كانوا أحياناً يدخلون في غرف معزولة فى زوايا بيوتهم للمباحثة والحديث في هذه المسائل ، وذلك كي لا يسمع أحد كلامهم ولا ينتبه لأمرهم . وكان أمير المؤمنين (ع) كما هو المرسوم ، يُلعن على المنابر[1] وفي صلوات الجمعة ، وحتى في حضور الحسن والحسين (ع).

ولهذا نلاحظ أن تاريخ الإمام الحسين (ع) في عهد حكومة معاوية تأريخ مجهول بالكامل ، فلم يكن أحد يستطيع أن يشير أدنى إشارة إلى سيد الشهداء (ع) ، أو أن ينقل عنه خبراً ، أو حديثاً ، أو خطبة ، أو يتكلم عن لقاء من لقاءاته ، أو حركة من حركاته .

لقد عمل الناصبون كل ما في وسعهم لدفع الأئمة من أهل بيت محمد ، صلوات الله عليهم ، إلى زوايا الإهمال والنسيان ، وتحجيم نشاطهم وحركتهم إلى أدنى حدٍّ ممكن .

وعلى هذا فلو قُدّر للإمام الحسين (ع) أن يعيش في تلك الظروف خمسين سنة أخرى ـ مثلاً ـ فإن الحال كان سيستمر على ما هو عليه ، ولن ينقل عنه من العلم والحديث أكثر من بضع عبارات قليلة .

وكان هذا الوضع أحد الأسباب الهامّة لثورة الإمام الحسين (ع) واستشهاده ، إذ لم يكن هناك طريق آخر لخدمة الإسلام والحفاظ على

---

(١) ذكر الحافظ السيوطي أنه كان في أيام بني أمية أكثر من سبعين ألف منبر يلعن عليها علي بن أبي طالب (ع) ،بما سنّه لهم معاوية من ذلك . (راجع النصائح الكافية لمن يتولى معاوية : ص ٩٨) .

الدين ، وإلاّ كان يضطر للجلوس في بيته ، يأكل ويشرب ، ويعيش حياة الدهماء من الناس ، دون أن يعود من ذلك أي نفع لا للإسلام ، ولا للمسلمين .

أما في زمان الإمام الصادق (ع) (أواخر عهد بني أمية ، وأوائل عهد بني العباس) فقد تغيّرت الأوضاع كلياً ، وأدّت التطورات إلى ظهور حالة من الإنفتاح والحرية ، على صعيد الفكر والعقيدة . وكذلك ظهر نشاط وحماس علميّ قلّ أن يوجد له نظير في تاريخ البشر ، فتوجّهت الأمة الإسلامية باندفاع شديد نحو مختلف العلوم ، سواء تلك المرتبطة مباشرة بالإسلام مثل علم القراءة وعلم التفسير ، وعلم الحديث والرجال والفقه ، وعلم الكلام ، والعلوم الأدبية بكل أنواعها ، أو العلوم البشرية ، والمادية مثل الطب ، والفلسفة ، والفلك ، والرياضيات ، والكيمياء ، وما أشبه ذلك .

وهكذا ظهرت في العالم الإسلامي - فجأة وكما هو مدوّن في التأريخ - حركة علمية هائلة ، وتوفر مناخ واسع من الحرية ، بحيث انفتح الطريق أمام كل من عنده متاع فكري أو بضاعة علمية ، أو اتجاه معين في باب العقائد ، أن يتقدم فيعرض ما عنده على الناس ، ويقول كلمته دون أن يخشى بطش السلطة أو يخاف من أحد .

طبعاً لا نريد هنا أن نقول : إنّ بني العباس كانوا يتمتعون بطبيعة تحررية ، وإنهم هم الذين كانوا وراء فسح المجال للنهضة العلمية ، وإعطاء الحرية الفكرية والعقائدية للناس ، بل كان الأمر طبيعياً بحيث لو أنهم أرادوا أن يحولوا دون ذلك لما استطاعوا ، إذ كانت الظروف والتطورات أقوى منهم ، فقد دخلت دنيا الإسلام عناصر جديدة إلى جانب العنصر العربي ، وكان أكثر تلك العناصر حماساً وفوراناً هم الإيرانيون ، بينما كان الأكثر علماً والأقوى فكراً هم أهل بلاد ما بين النهرين ، وأهل سورية ، لأن هاتين المنطقتين كانتا آنذاك من المراكز الهامة للحضارة والتمدّن ، وكان المصريون أيضاً من العناصر الداخلة .

وكـان اختلاف هـذه الشعوب والملل من جهـة الأفكـار ، والثقـافـات ، والعقائد السابقة ، عاملاً مساعداً بحـد ذاته على إيجـاد أرضيّة التبـادل الفكري والثقافي ، وتحطيم جدران الكبت العقائدي . ومن الطبيعي أن هذا الأمر كمـا أن له إيجابيّات كثيرة ، فله أيضاً سلبيّات خطيرة يمكن أن تهدّد الإسلام .

فمـاذا يمكن أن يكون مـوقف الإمام الصـادق (ع) تجاه هـذه الأحداث والمجريات ؟

إنـه من ناحيـة يرى المجـال قد انفتـح على مصراعيـه أمامـه لكي يؤدي رسـالته في تجـديد نشـر الإسلام ، وإعـادة تعريف النـاس بأحكـام دينهم التي نسـوها تقـريباً ، وعفى عليهـا الـزمن والمحـافـظة على الـدين المحمـدي من الإنـدراس ، ومن ناحيـة أخرى يـرى أنـواع الأفكـار الإنحـرافيـة ، والتيـارات الإلحـادية ، والعقـائد البـاطلة ، والبدع المضلة ، التي أخـذت تهدّد الإسـلام بالخطر ، وتعمل على هدمه من الأساس .

وهـذا الخـطر ليس مسـاويـاً لإرهـاب السلطات ، وكبتهـا ، وتكتيمهـا الإعلامي في السابق ـ فقط ـ بل هو أشد من ذلك بمـراحل . فهـل من المنطق هنا أن يسلك الإمام الصادق (ع) سبيل القيام ، والثورة ، الإستشهـاد ، لتبقى الساحة الإسلامية خالية من الخط الدفاعي أمـام هجوم الأخـطار المختلفة ، أم يفضّـل التنازل عن حقـه الشرعي في الخـلافة من أجـل أن يتفرّغ لمهـام أشـدّ جسامة ، وجهاد أكثر نفعاً للإسلام والمسلمين .

إن التأريخ يجيب على هذا لتساؤل بوضوح تام ، فالإمـام الصادق (ع) يقف اليوم شامخ القامة ، مشرق الوجه ، أمام العالم الإسلامي ، شيعة وسنّة ، وأمام جدّه رسول الله (ص) بما أدّاه من خدمات جليلة للدين الإسلامي .

ويمكن القول كذلك إنه لولا موقف الإمـام الصادق (ع) هـذا ، لم يبق لثورة الإمام الحسين (ع) أثر يذكـر في التأريـخ ، فهو الـذي حافظ على هـذه الثورة العظيمة ، وأعطاها الإستمرار التاريخي المطلوب(١) .

---

(١) إنّ من أهم الأسبـاب التي استشهد من أجلهـا الإمام الحسين (ع) هي المحـافـظة على الـدين=

وكذلك يمكننا القول بثقة تامة إنَّ الإمام الحسين (ع) لو كان في مكان الإمام الصادق (ع) لفعل مثل ما فعل بالضبط ، لأن ملاك عمل الأئمة (ع) جميعهم بلا استثناء هو المحافظة على دين الله العظيم ، بكل الصور الممكنة سواء أكان بإراقة الدماء الزكية ، أم بالمقاومة السلبية ، أم بالجهاد العلمي والثورة الفكرية ، أم بغير ذلك من الوسائل التي تختلف بحسب اختلاف الظروف السياسية والإجتماعية .

والآن نعود إلى استعراض خصائص زمان الإمام الصادق (ع) بشيء من التفصيل ، فنقول :

إنَّ كثيراً من الذين دخلوا حديثاً في الإسلام بعد الفتوحات الإسلامية ، كانوا يتلهّفون من أجل معرفة ماهيّة هذا الدين وخصوصياته . ولذلك كان اهتمامهم في البحث حول القرآن والمسائل المربوطة به ، لا حدود له ، وكانوا يفكرون بدقة بالغة في آيات القرآن ، ومعانيها ، ومدلولاتها ، ويحسبون حساباً لكل كلمة من كلماته ، على العكس من العرب في السابق الذين لم يكونوا يتدبرون كثيراً في القرآن ، بل كانوا يتعبّدون بقراءته وتلاوته دون أن يتعبوا أنفسهم كثيراً في البحوث ، والدراسات ، والمسائل الفكرية المتعلقة به .

حرب العقائد والأفكار :

في هذا الزمان نلاحظ أن الحرب الفكرية والعقيدية قد حمي سوقها فجأة فمثلاً على صعيد قراءة القرآن بدأت بحوث عديدة ، وظهرت طبقة باسم

= الذي حاول بنو أمية بكل ما وسعهم من استعمال الأساليب المتاحة المنتزعة من الدولة التي اغتصبوها ، والتي حاولوا جاهدين بواسطتها إلى ارجاع الناس إلى عهد الجاهلية الأولى ، واطفاء نور الله ، وقهر نبيّه (ص) . ولكن الله سبحانه بألطافه الخفية ، ورحمة بعباده ، فقد قيض وجود الأئمة المعصومين ، ومنهم الإمام الصادق الذي راح ينشر العلم والتربية وأصول الدين محافظاً على الأهداف التي من أجلها استشهد الإمام الحسين (ع) ولعل أهمها مكارم الأخلاق التي انبعثت بأنوارها الساطعة بين الناس من جامعة آل البيت (ع) التي أنشأها الإمام الصادق (ع) .

(القراء)[1] . فلم يكن القرآن مطبوعاً ومضبوطاً كما هو اليوم ، بل كان هناك حفاظ للقرآن توارثوا ما نقله وسجّله أسلافهم ، وكان أغلبهم ينتهي سند قراءته إلى أمير المؤمنين (ع) . فكان هؤلاء الأساتذة يجلسون في المساجد ويتجمّع حولهم أناس كثيرون على صورة حلقات (وكان أغلبهم من غير العرب) ليتعلّموا منهم الطريقة الصحيحة لقراءة القرآن ، وكان في بعض الأحيان يظهر بين هؤلاء القرّاء اختلافات ، وبالتالي تدور بينهم مباحثات ومناقشات ، كلّ يريد أن يثبت أن قراءته هي الصحيحة ، ويعرض سلسلة السند التي يعتمد عليها .

وعلى صعيد تفسير القرآن وبيان معاني آياته ، حمي أيضاً مجال المباحثة ، والجدال ، وكثرت مذاهب التفسير[2] .

وكذلك في مجال الحديث والروايات عن النبي (ص) ، وكان رواة الأحاديث يفتخرون بأن يكون سند نقلهم ينتهي إلى الرسول (ص) ، ويدققون في توثيق الأحاديث وصحة عباراتها .

وظهرت كذلك المذاهب الفقهية ، وبرزت طبقة باسم (الفقهاء) وكانوا يتواجدون في مراكز مختلفة ، وكانت وظيفتهم الإجابة على أسئلة الناس ،

---

(١) ومن أشهر القراء المعروفين : ١ ـ نافع بن عبد الرحمٰن بن أبي نعيم ، أبو رويم المدني (ت ١٦٩ هـ) ـ ٢ ـ عبد الله بن كثير ، أبو معيد المكي (ت ١٢٠ هـ) ـ ٣ ـ عاصم بن أبي النجود الأسدي التابعي ، أبو بكر الكوفي (ت ١٢٧ / ١٢٨ هـ) ـ ٤ ـ حمزة بن حبيب بن عمار بن إسماعيل الزيات ، أبو عمارة الكوفي (ت ١٥٦ هـ) ـ ٥ ـ علي بن حمزة بن عبدالله النحوي ، أبو الحسن الكسائي (ت ١٨٩ هـ) ـ ٦ ـ أبو عمرو بن العلاء المازني ، أبو عمرو البصري (ت ١٥٥ / ١٥٦ هـ) ـ ٧ ـ عبدالله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة الدمشقي ، أبو عمران اليحصبي (ت ١١٨ هـ) ـ ٨ ـ يزيد بن القعقاع المدني ، أبو جعفر المخزومي (ت ١٣٠ هـ) ـ ٩ ـ سهل بن محمد السجستاني ، أبو حاتم البصري . . . الخ (راجع آراء حول القرآن : ص ٣٤) .

(٢) راجع طبقات المفسرين لمحمد بن أحمد الزوودي (ت ٩٤٥ هـ) ـ طبقات المفسرين لعبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ) .

وتبيين مسائل الحلال والحرام ، والطهارة والنجاسة ، والمعاملات الصحيحة والباطلة، وكان من أهم تلك المراكز (المدينة) ، و(الكوفة) ، حيث كان أبو حنيفة[1] ، والبصري[2] وكذلك أسست مراكز جديدة في بلاد الأندلس بعد فتحها في زمان الإمام الصادق (ع).

وكانت في الواقع كل مدينة في الدولة الإسلامية مركزاً يحوي العلماء والفقهاء من مختلف المذاهب وكان في كثير من الأحيان يظهر بين هؤلاء الفقهاء اختلافات ، وبالتالي سجل التأريخ الإسلامي حرباً عقائدية على صعيد المسائل الفقهية والتشريعية .

وكانت سوق البحوث الكلامية أكثر سخونة ، إذ ظهرت في القرن الأول للإسلام طبقة باسم (المتكلمين) (كان الإمام الصادق (ع) يستعمل هذه اللفظة فكان يقول لتلاميذه : قولوا لهؤلاء المتكلمين يأتون . .) . وكان المتكلمون يبحثون في قضايا العقائد والمسائل الأصولية : فكانوا يتكلمون حول الله وصفاته ، وحول الآيات القرآنية التي تتحدث عن الله ، وهل أن الصفة الفلانية هي عين ذات الله أم لا ؟ وهل القرآن حادث أم قديم ؟

---

(١) أبو حنيفة : النعمان بن ثابت ، إمام المذهب الحنفي (ت ١٥٠ هـ) وهو الذي أثر عنه قوله : « لولا السنتان لهلك النعمان » كان من تلاميذ الإمام جعفر الصادق (ع) . (راجع ترجمته في وفيات الأعيان : ج ٥ ص ٤٠٥ ـ تاريخ بغداد : ج ١٣ ص ٣٢٣ ـ مرآة الجنان : ج ١ ص ٣٠٩ ـ عبر الذهبي : ج ١ ص ٢١٤ ـ الشذرات : ج ١ ص ٢٢٧ ـ تاريخ ابن كثير : ج ١٠ ص ١٠٧ ـ النجوم الزاهرة : ج ٢ ص ١٢ . وله مناظرات مع الإمام الصدوق (ع) في (الاحتجاج : ج ٢ ص ٣٥٩ وما بعدها) .

(٢) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، أبو سعيد (ت ١١٠ هـ) : والده يسار من سبي (ميسان)، وقع إلى المدينة ، فاشترته الرُبيع بنت النضر عمة أنس بن مالك فأعتقته . ولد الحسن البصري في المدينة . كان إمام أهل البصرة ، وهو أحد الفقهاء . توفي في البصرة (طبقات ابن سعد : ج ٧ ص ١٥٦ ـ وفيات الأعيان : ج ٢ ص ١٥٦ ـ ميزان الإعتدال :ج ١ ص ٥٢٧ ـ حلية الأولياء ؛ ج ٢ ص ١٣١ ـ أمالي المرتضى : ج ١ ص ١٠٦ . الأعلام للزركلي : ج ٢ ص ٢٢٦) .

وكـانـوا يبحثـون أيضـاً حـول النبـوة وحقيقــة الـوحي ، وحــول طبيعـة الشيطان ، وحول التوحيد والتثنية ، وحول هـل إنّ العمل ركن الإيمـان بـحيث إذا لم يكن عمل لم يكن إيمان ، أم إن العمل ليس له دخل في الإيمان ؟

وكـانوا يبحثـون حول القضـاء والقدر ، وحـول الجبر والإختيـار ، وكان الصراع يدور على أشده في هذا المجال .

والأخطر من كل ذلك هو ظهور طبقة تدعى « الزنادقة »[1] . وكـان هؤلاء من الأسـاس يكفرون بـالله ، وبكل الأديـان ، والعجيب أنهم كـانـوا يتمتعـون بـالحريـة التامـة بين المسلمين (ولعـل ذلـك لأهـداف معينـة من قبـل النـظام الحـاكم) وكانـوا يتواجـدون حتى في (مكة) و(المـدينة) ، ويعـرضـون مـا عندهم من أفكار إلحادية تحت ستار الشبهات[2] .

وكان الزنادقة الطبقة المتحـررة والمثقفة لـذلك العصـر ، وكانـوا يلمون باللغات الحيّة لزمانهم ، فكانوا يعرفون اللغة السريانية التي كانت اللغة العلمية آنذاك ، وكان كثير منهم يعرفون اللغة اليونانية ، وكان بعضهم إيرانيين يعرفـون اللغـة الفارسيـة ، كما أن بعضهم كـان يعرف اللغـة الهنديـة ، ويبدو أنهم هم الذين جلبوا الزندقة من الهند إلى العالم الإسلامي ، ولكن الأكثـرية يعتقـدون أن فكرة الزندقة اقتبست من المانويين[3] .

---

(١) راجع الحاشية فيما سبق .

(٢) لأبي العوجاء في هذا الباب تعبير لطيف ، فقد جاء يوماً إلى الإمـام الصادق (ع) وقـال : يا بن رسول الله ، أنت رئيس هذا الأمر ، أنت كذا وكذا ، وجدّك هو الذي جـاء بهذا الـدين . ولكن لا تؤاخذني فإن الإنسان إذا اعتراه السعال فلا بدّ أن يسعل ليخرج الأخلاط التي تسـد بلعومـه ، وكذلك إذا عرضت له شبهة من فكره فلا بد أن يقولها ليخرجها ويرتاح ، وأنا عندي الآن سعـال فكري فائذنوا لي أن أقول ما عندي من شبهات فكرية . فقال له الإمام : قل ما عندك . (راجع سفينة البحار : مادة حجج : ج ١ ص ٢١٠) .

(٣) أصحاب ماني بن فاتك الذي ظهر في زمان شابور بن أزدشير ، وزعم أن العـالم مصنوع مـركب من أصلين قديمين ، أحدهمـا نور ، والآخـر ظلمة ، وأنهمـا أزليان (راجع الملل والنحل على هامش (الفصل) : ج ٢ ص ٨١) .

ومن التيارات الأخرى المربوطة بهذا الزمان (وكانت معظم التيـارات إما إفراطية أو تفريطية) هو تيار الإغراق في التصوف . حيث ظهر المتصوفة[1] في زمان الإمام الصادق (ع) على نطاق واسع وكوّنوا طبقة خـاصة بهم واستقـطبوا حولهم الكثير من المؤيدين ، وكانوا يقولون كلامهم ويطرحون أفكارهم بكامـل الحرية ، وقد انفرز هؤلاء أيضاً من الإسلام بسبب ما يمكن التعبير عنه بالنـزعة التقـدسية ، أو التـطلع إلى المثاليـة البعيدة عن الـواقـع ، أي الـزهـد المفـرط والتوجه التام إلى القضايا الروحانية ، فهم لم يطرحوا أنفسهم كنحلة في مقابل الإسلام ، منتهى الأمر أنهم كانوا يدّعون إن ما يقولونه ويعتقدون به هو الإسلام الحقيقي .

وكان الخوارج[2]، والمرجئة[3]، والقدريون[4] ، والمجبـرة[5] ـ أيضاً ـ

---

(١) راجع معجم الفرق الإسلامية : ص ٢١٢ .

(٢) الخـوارج : هم الذين خـرجوا على علي (ع) في (صفين) بعـد التحكيم . وأشدهم خـروجاً عليـه ، ومروقـاً في الدين ؛ الأشعث بن قيس الكنـدي ، ومسعر بن فـدكي التميمي ، وزيد بن حصين الـطائي . نجح الخـوارج في إقامـة دولتين لهم في المغرب : إحـداهما للصفـريـة في (سجلجـاسة) سنـة (١٤٠ هـ) أسسها بنـو مدرار ، والثـانية أسسهـا بنو رستم لـلإبـاضيـة في (تاهرت) سنـة (١٦٢ هـ) . وهم يكفرون عليـاً ، وعثمان ، وأصحـاب الجمل والحكمين ، ويكفرون أصحاب الكبائر ، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنّة ، حقاً وواجباً . وقالـوا بجواز الإمامة في غير قريش . (راجع معجم الفرق الإسلامية : ص ١١٢) .

(٣) المـرجئة : من الرجاء لأن المرجئـة يرجون لأصحاب المعاصي الثواب من الله تعالى ، أو يكون مشتقاً من الإرجاء ، وهو التأخير ، لأنهم أخروا حكم أصحـاب الكبائـر إلى الآخرة . ويقـال إن أول من وضع الإرجاء أبـو محمد ، الحسن بن محمـد بن الحنفية ، وتكلم فيـه ، وذكر بعضهم إن أول من وضع الإرجاء أبو سلت السمان (ت ١٥٢ هـ) . والمرجئية ثلاثة أصناف : المرجئـة والقدرية ، مرجئـة الجبرية ، المرجئـة الخالصة ، (معجم الفرق : ص ٢١٩) .

(٤) فرقة من الغلاة في إثبات القدرة للعبد ، في إثبات الخلق والإيجاد ، وأنه لا يحتاج في ذلك إلى معاونة من جهة الله تعالى . وينسبون إلى معبد الجهني ، وغيـلان الدمشقي ، نصـرهـم جماعـة من بني أمية وقسم من بني العباس . (معجم الفرق : ص ١٩٠) .

(٥) المجبرة : قالت لا قدرة للآدمي ، بل هو كالمجاد مسلوب الإختيـار والفعل ويـطلق عليها أيضـاً المجوزة ، أو المجورة والأصل الجبرية . (معجم الفرق : ص ٢١٣) .

من الفرق التي ظهرت في هذا الزمان ، وكان لهم دور كبير في الصراع العقائدي الدائر على الساحة .

مواجهة الإمام الصادق (ع) للتيارات الفكرية المختلفة :

لقد واجه الإمام الصادق (ع) جميع التيارات الإنحرافية التي ظهرت في زمانه ، وكان له موقف تجاه كل منها ، بحيث أنه لم يترك ثغرة يتمكن فكر ضال ، أو عقيدة باطلة ، أو تيار إلحادي ، أن ينفذ منها ليهدد أسس الإسلام المحمدي بالخطر ، وكان يتبع في ذلك طريقتين :

الطريقة المباشرة . وهي أن يتصدى بنفسه ليحاور الأطراف المقابلة ، ويخرجهم من الساحة بقوة حجته ، وغزارة عمله . .

والطريقة الغير المباشرة : وهي تأسيس حوزة علمية من أجل تربية جيل من التلاميذ ، وتغذيتهم بالعلوم والمعارف الإسلامية ، ليصبحوا شيوخاً وعلماء ، يدخلون ساحة الصراع الفكري ، ليواجهوا أنواع الضلالات والإنحرافات الفكرية . وبيّنوا للناس فكر الإسلام القويم ، وأحكام الإسلام الصحيحة .

وكانت مدرسة الإمام الصادق(ع) أقوى المدارس الفقهية الموجودة ، بحيث كان حتى غير الشيعة يعترفون به ويتقبّلونه، بل إن كل أئمة أهل السنّة كانوا إما بلا واسطة ، أو مع الواسطة ، قد تتلمذوا على يدي الإمام الصادق (ع)، وكان على رأسهم أبو حنيفة الذي حضر حلقة دروس الإمام الصادق (ع) طوال سنتين من الزمان ، واستفاد من ذلك فوائد جمّة ، بحيث أننا نقرأ هذه العبارة في كتب أهل السنّة أنفسهم ، حيث ينقلون عن أبي حنيفة أنه كان يقول : لولا السنتان لهلك النّعمان[1] (كان اسم أبي حنيفة :

---

(١) هذا ما قاله (أبو حنيفة) النعمان بن ثابت بن زوطي ، أحد أئمة المذاهب الأربعة . ذكره العلامة أسد حيدر في كتابه (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) : ج ١ ص ٧٠ وج ٥ ص ٩٦) نقلاً عن (التحفة الإثني عشرية : ص ٢٨ للشاه عبد العزيز الدهلوي العمري (ت ١٢٣٩ هـ) وهذا الكتاب (التحفة الإثني عشرية) كتبه رداً على الشيعة ، أتباع مذهب آل =

النعمان بن ثابت بن الزوطي بن المرزبان ، وكان أجداده إيرانيين) .

وكان أنس بن مالك[1] هو الآخر من أئمة أهل السنّة ، وكان يحضر دروس الإمام الصادق (ع) ويفتخر بأنه تمليذه .

وجاء الشافعي[2] فيما بعد ، ولكنه تتلمذ على يد كلّ من مالك بن أنس وتلاميذ أبي حنيفة .

وأحمد بن حنبل[3] كذلك تنتهي سلسلة تلمذته من أحد أطرافها إلى الإمام الصادق (ع).

= البيت (ع)) ، ورد عليه كل من السيد محمد مكي والد صاحب (العبقات) بكتاب سماه (تشييد المطاعن) ، كما رد عليه صاحب (العبقات) السيد حامد حسين رضوان الله عليه وسماه (عبقات الأنوار في إمامة الأئمة الأطهار) (راجع كتاب (لولا السنتان) للخطيب الشيخ محمد رضا الحكيمي : ص ٥) .

(١) أنس بن مالك (ت ٩٣ هـ) : أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم التجاري الخزرجي الأنصاري ، أبو ثمامة ، أو أبو حمزة ، مولده بالمدينة ، رحل إلى دمشق ، ومنها إلى البصرة فمات فيها . (الأعلام : ج ٢ ص ٢٤ . طبقات ابن سعد : ج ٧ ص ١٠ ـ تهذيب ابن عساكر : ج ٣ ص ١٣٩ ـ صفة الصفوة : ج ١ ص ٢٩٨) .

(٢) الشافعي : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي ، أبو عبدالله (ت ٢٠٤ هـ) أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنّة . ولد في غزة بـ (فلسطين) ، وحمل إلى مكة ، ثم قصد مصر وتوفي بها . وكان من أحذق قريش بالرمي ، كما برع في الشعر واللغة وأيام العرب . له تصانيف كثيرة أشهر كتاب (الأم) في الفقه . كما له ديوان شعر ومنه قوله :

يا آل بيت رسول الله حبكم ... فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم الفخر أنكم ... من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

(راجع الأعلام للزركلي : ج ٦ ص ٢٦ ـ تذكرة الحفاظ : ج ١ ص ٣٢٩ ـ تهذيب التهذيب : ج ٩ ص ٢٥ ـ وفيات الأعيان : ج ١ ص ٤٤٧ ـ إرشاد الأريب (معجم الأدباء) : ج ٦ ص ٣٦٧ ـ صفة الصفوة : ج ٢ ص ١٤٠ ـ تاريخ بغداد : ج ٢ ص ٥٦ ـ تاريخ الخميس : ج ٢ ص ٣٣٥) .

(٣) أحمد بن محمد بن حنبل ، أبو عبدالله الشيباني الوائلي (ت ٢٤١ هـ) : إمام المذهب الحنبلي ، وأحد الأئمة الأربعة . أصله من (مرو) . ولد في بغداد . وسافر في طلب العلم =

وهناك كثير آخرون ، غير من ذكرناهم ، استفادوا من علم الإمام الصادق (ع) وتوجيهاته السديدة .

وكانت حوزة درس الإمام الصادق (ع) الأكثر جاذبيّة ورونقاً من بين حوازت دروس سائر الفقهاء ، وهنا لا بأس أن نذكر شهادة بعض علماء أهل السنّة في حق الإمام الصادق (ع) مما يلقي بعض الأضواء على الدور العظيم الذي أدّاه (ع) في عهد إمامته . .

شهادة مالك بن أنس :

كان مالك بن أنس في المدينة ، وكان إنساناً طيّب النَّفس إلى حدًّ ما ، يقول : كنت أتردّد على جعفر بن محمد ، وكان كثير التبسم بشوش الوجه ، وكان من آدابه أنه عندما يذكر اسم النبي (ص) في حضوره كان يتغيّر لونه (لعل ذلك تعبير عن التأثر الشديد للتغيير السلبي الذي حدث بين المسلمين ، فنسي معظمهم رسالة هذا النبي العظيم وأحاديثه الشريفة وسنّنه القويمة ، وحلّت ظلمات البدع محل أنوار الوحي) . ثم يتحدث مالك عن كثرة عبادة الإمام وعن كمال تقواه :

ومالك هذا هو راوي هذه القصة المعروفة (التي نقلها المرحوم الشيخ عباس القمي[1] واخرون في كتبهم) حيث قال : ذهبنا في سفرة مع الإمام

= أسفاراً كبيرة إلى الكوفة ، والبصرة ، ومكة ، والمدينة ، واليمن ، والشام ، والمغرب ، وفارس ، وخراسان ، وصنف (المسند) وله كتب ، توفي عند المتوكل العباسي . (راجع ابن عساكر : ج ٢ ص ٢٨ ـ الحلية : ج ٩ ص ١٦١ ـ صفة الصفوة : ج ٢ ص ١٩٠ ـ ابن خلكان : ج ١ ص ١٧ ـ تاريخ بغداد : ج ٤ ص ٤١٢ ـ تاريخ ابن كثير (البداية والنهاية) : ج ١٠ ص ٣٢٥ ـ الأعلام للزركلي : ج ١ ص ٢٠٣) .

(١) الشيخ عباس القمي : ولد المحدث القمي الشيخ عباس بن محمد رضا بن أبي القاسم من أبوين كريمين في مدينة (قم) عالم (١٢٩٤ هـ) . ثري في ربوع الدين . أحب العلم وأهله . توجه إلى النجف . اتصل برجالها وأساتذتها وانطلق إلى حلقات الدرس والتدريس . رافق المحدث النوري (ت ١٣٢٠ هـ) . وعاد إلى قم ، ولزم التأليف حتى توفي عام (١٣٥٩ هـ) له مؤلفات كثيرة مهمة وأشهرها (مفاتيح الجنان) وعلى هامشه (الباقيات =

الصادق (ع) قاصدين مكة المكرمة ، فلما خرجنا من المدينة ، ووصلنا إلى (مسجد الشجرة) ارتدينا ملابس الإحرام ، وشرعنا في التلبية . ثم نظرت فرأيت الإمام يحاول أن يتلفظ بعبارة « لبيك اللهم لبيك » ، ولكن لونه شحب ، وأخذ يرتجف حتى كاد أن يسقط من فوق بعيره إلى الأرض . فاقتربت منه وقلت : يا ابن رسول الله ، لا مفرّ من ذلك ، ولا بدّ من ذكر التلبية . فقال : لمن أقول « لبيك » ؟ ! وإذا جاءني الجواب « لا لبيك » فماذا أفعل عند ذلك ؟[1] (موقف الإمام هذا يذكر بالعبارة المأثورة عنهم (ع) : ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج ، فكم من قائل منهم لبّيك يملأ بها الأجواء صخباً وضجيجاً ، وهو لا يدري ما يقول ومن يخاطب) .

ويقول مالك في حق الإمام الصادق (ع) : ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد[2] .

محمد الشهرستاني[3] :

من الفلاسفة والمتكلّمين المتفوقين ومن العلماء المبرزين للقرن الخامس الهجري ، وهو صاحب كتاب « الملل والنحل » الذي يبحث فيه

= الصالحات) . (راجع الإعلام للزركلي : ج ٣ ص ٢٦٥ ـ الذريعة : ج ٣ ص ١٦ ـ مقدمة كتاب (الكنى والألقاب) ـ معارف الرجال : ج ١ ص ٤٠١) .

(١) راجع الإمام الصادق (ع) ، خصائصه ومميزاته لمحمد جواد فضل الله : ص ٤٠ .

(٢) مناقب آل أبي طالب لابن شهر أشوب المازندراني : ج ٤ ص ٢٤٨ .

(٣) محمد بن عبد الكريم بن أحمد ، أبو الفتح الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) من فلاسفة الإسلام . كان إماماً في علم الكلام ، وأديان الأمم ، ومذاهب الفلاسفة ، يلقب بالأفضل . ولد في (شهرستان) بين (نيسابور وخوارزم) وانتقل إلى بغداد سنة (٥١٠ هـ) فأقام ثلاث سنين ، وعاد إلى بلده وتوفي بها . قال ياقوت في وصفه : الفيلسوف المتكلم ، صاحب التصانيف ، كان وافر الفضل ، كامل العقل ، ولولا تخبطه في الإعتقاد ، ومبالغته في نصرة مذاهب الفلاسفة ، والذبّ عنهم ، لكان هو الإمام . ومن أشهر كتبه (الملل والنحل) . (راجع وفيات الأعيان : ج ١ ص ٤٨٢ ـ مفتاح السعادة : ج ١ ص ٢٦٤ ـ تاريخ حكماء الإسلام : ص ١٤١ ـ لسان الميزان : ج ٥ ص ٢٦٣ . الوافي بالوفيات : ج ٣ ص ٢٧٨ ـ الأعلام : ج ٦ ص ٢١٥) .

حول جميع المذاهب الدينية والفلسفية في العالم ، وعندما يصل إلى ذكر الإمام الصادق (ع) يقول عنه : « هو ذو علم غزير ، وأدب كامل في الحكمة ، وزهد في الدنيا ، وورع تام عن الشهوات ، وكان يقيم في المدينة ويفيض على الموالي له أسرار العلوم ، ثم دخل العراق »[1].

ثم يشير إلى اعتزال الإمام للسياسة فيقول : « ولا نازع في الخلافة أحداً » وهو يؤول هذا الإعتزال هكذا : « ومن غرق في بحر المعرفة لم يقع في شط ، ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حطّ ».

طبعاً أنا لا أريد أن أصحح هذا التأويل وإنما أقصد الإشارة إلى إقراره بسعة علم الإمام وسمو فضائله ، بحيث أصبح في نظره فوق مستوى البحث عن كرسي حكم ، أو سلطة زائلة) .

و(الشهرستاني) هذا الذي يتكلم هذا الكلام بشأن الإمام الصادق (ع) ، إنما هو في الواقع عدو شرس من أعداء الشيعة ، فهو يتهجم على الشيعة في كتابه « الملل والنحل » بما لا حدود له ، ولكننا مع ذلك نراه يذكر الإمام الصادق (ع) بهذا المقدار من الإحترام ، وهذا يدلّ على أن شخصية الإمام الصادق (ع) من القوة ونفوذ التأثير بما لا يدع مجالاً حتى للعدو أن يطعن فيه ، أو يمسك نفسه عن مدحه والثناء عليه .

واليوم أيضاً نرى كثيراً من العلماء في هذا العالم يضادون الشيعة ومذهب التشيّع إلّا أنهم يجلون الإمام الصادق (ع) الذي ينتسب إليه هذا المذهب ، ولعلّهم يعتقدون في أنفسهم بأن هذه الأمور التي تخالف رأيهم في مذهب التشيع ، ليس لها علاقة بالإمام الصادق (ع).

رأي أحمد أمين[2] :

أحمد أمين من الكتاب المعاصرين ، وهو صاحب سلسلة من الكتب باسم « فجر الإسلام » و« ضحى الإسلام » و« ظهر الإسلام » و« يوم الإسلام »

---

(١) الملل والنحل على هامش (الفصل) لابن حزم : ج ٢ ص ٢ .

(٢) كاتب مصري معروف .

وهي من الكتب الإجتماعية التي تتمتع بأهمية كبيرة في هـذا القرن الأخيـر . وهذا الكاتب مصاب بعقدة معاداة التشيع ، برغم أنه ، كما يبدو، ويفتقر إلى أي معلومات فيما يختص بهذا المذهب . ولكنه برغم مقته للشيعة فإنه يُظهر للإمام الصادق (ع) نوعاً من الإحترام . وقـد قرأت جميـع كتبه فلم ألاحظ أنـه يولي مثل هذا الإحترام لأيّ إمام من أئمة أهل السنّة ، وهو ينقل كلمات في الحكمة عن الإمام الصادق (ع) لم أر من علماء الشيعة من نقلها وأثبتها في مؤلفاته .

اعتــراف الجــاحظ :

في رأيي أن اعتراف الجاحظ بمنزلة الإمام الصادق (ع) هو فوق كـل ما سبق ذكره في هذا الباب . كان الجاحظ طالب علم بكـل معنى الكلمة ، وقـد عاش في أواخر القرن الثاني وأوائـل القرن الثـالث ، وهو أديب جليـل القدر ، بل يمكن القول أنه عالم في الشؤون الإجتماعية لعصره ، وهو مؤرخ أيضاً .

وقد ألف كتاباً باسم « الحيـوان » يبحث حول طبـائع الكـائنات الحيـة ، وهو اليوم مورد توجه العلماء الأوروبيين وقد اكتشفوا في هـذا الكتاب نـظريات لم يكن لها وجود من قبل في دنيا ذلك العصر (اليونان وغير اليونـان) ولم تكن علوم أهل اليونان قد دخلت العالم الإسلامي حتى ذلك الوقت .

والجاحظ شخص سنّي متعصب ، وله مبـاحثات مـع بعض الشيعة أدّت إلى اعتبار بعضهم له بأنه ناصبي (بالطبع أنـا لا أستطيـع أن أجزم بـأنه نـاصبيّ فعلًا استناداً إلى تلك العبارات التي ذكرها في مباحثاته) .

وقـد أدرك أواخر زمـان الإمـام الصـادق (ع) حيث كـان آنـذاك طفـلاً صغيـراً ، أو أنه جـاء في الفترة الـلاحقـة لـزمـان الإمـام مبـاشـرة . وعلى أي التقديرين فزمانـه قريب جـداً من زمان الإمـام الصادق (ع). ولـه تعبير يتعلق بهـذا الإمام العـظيم حيث يقول : « جعفـر بن محمد الـذي ملأ الـدنيـا علمـه وفقهـه ، ويقال أن أبـا حنيفة من تـلامذتـه كذلـك سفيان الثـوري » . (أبو حنيفة هو أحد أئمة أهل السنّة ، وسفيان الثوري أحـد كبار الفقهـاء والمتصوفـة في عصره) .

رأي مير علي الهندي :

مير علي الهندي من الكتاب المعاصرين وهو سنّي . وله رأي يبديه بشأن الإمام الصادق (ع) فيقول : « لا مشاحة أن انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله ، فأصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامي » .

ثم يقول : « ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الذي تزعم تلك الحركة هو حفيد علي بن أبي طالب (ع) المسمى بالإمام الصادق (ع) ، وهو رجل رحب أفق التفكير ، بعيد أغوار العقل ، ملمّ كل إلمام بعلوم عصره .

ويقول أيضاً : ويعتبر في الواقع أول من أسّس المدارس الفلسفية[1] المشهورة في الإسلام . ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب الفقهية فحسب ، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء الواسعة » .

كلمة لأحمد زكي صالح :

ينقل السيد المظفر في كتاب « الإمام الصادق (ع) » عن مقال كتبه أحمد زكي صالح (وهو من الكتاب المصريين المعاصرين) في مجلة « الرسالة المصرية » أنه يقول : إن النشاط العلمي للشيعة كان أكثر من نشاط جميع الفرق الأخرى[2] . إن هذه مسألة بالغة الأهمية والدلالة ، والإيرانيون يرون أن هذه الإشارة متوجهة إليهم خاصة ، في حين أن ذلك النشاط كان متعلقاً بعموم الشيعة الذين كان أكثريتهم آنذاك من غير الإيرانيين ، ولا نريد أن ندخل في هذا البحث الآن .

يقول هذا الكاتب المصري أيضاً : ومن الجليّ الواضح لكل من درس علم الكلام أن فرق الشيعة كانت أنشط الفرق الإسلامية حركة ، وكانت أول من أسس المذاهب الدينيّة على أسس فلسفية ، حتى أن البعض ينسب

---

(١) المقصود من كلمة « الفلسفية » هو الفكرية والتعقّلية ، وذلك في مقابل كلمة « النقلية » أي منهج المحدثين الذين ينحصر بحثهم في نقل نصوص الأحاديث.

(٢) الإمام الصادق (ع) : ج ١ ص ١٨٤ ـ ط . دار الزهراء ـ بيروت ١٩٧٨ م .

الفلسفة خاصة لعلي بن أبي طالب (ع) ، (والإمام الصادق (ع) هو وارث علم جدّه علي بن أبي طالب (ع) ، وهو الذي نشره وأظهره للعالم) .

اهتمام الشيعة بالمسائل العقلية :

إنَّ من أوضح الدلائل على أن العلوم العقلية قد بلغت مرحلة النضوج في زمان الإمام الصادق (ع) هو أن تمام كتب الحديث لأهل السنّة ، من (صحيح البخاري) إلى (صحيح مسلم) إلى (جامع الترمذي) إلى (سنن أبي داوُد) ، إلى (صحيح النسائي) ، لا تتضمن إلاّ المسائل الفرعية للإسلام ، مثل أحكام الوضوء ، والصلاة ، والصيام ، والحج ، وما أشبه ، أو مسائل السيرة المختصة بالنبي (ص) .

ولكننا عندما نتصفح كتب الشيعة فإن أول مبحث يصادفنا فيها هو كتاب « العقل والجهل » وهو من القضايا غير المطروحة أصلاً في كتب السنّة (بالطبع لا أريد أن أقول إنَّ منشأ كل ذلك هو الإمام الصادق (ع) فقط ، فقبله كان أمير المؤمنين (ع) ، وقبلهما كان النبي (ص) نفسه ، ولكن الإمام الصادق (ع) واصل هذا الطريق ، ووجد الفرصة المؤاتية في زمانه لنشر مواريث أجداده) .

وبعد « كتاب العقل والجهل » نجد « كتاب التوحيد » ونرى فيه مئات - بل ألوف البحوث - في باب التوحيد ، وصفات الله ، والمسائل المربوطة بالشؤون الإلهية ، والقضاء والقدر ، والجبر والإختيار ، وسائر المسائل العقلية المطروحة في كتب الحديث لأهل التشيع ، والتي تخلو منها كتب أهل التسنّن . وهذا هو السبب الذي جعل البعض يقولون : إن أول شخص أسّس المدارس الفلسفية (أي العقلية) هو الإمام جعفر الصادق (ع) .

جابر بن حيّان[1] :

ويقال له أحياناً « جابر بن حيان الصوفي » . يذكره ابن النديم في

---

(١) جابر بن حيان بن عبدالله الكوفي ، أبو موسى (ت ٢٠٠ هـ) : فيلسوف كيميائي . كان يعرف =

« الفهرست »[1] وينسب إليه حوالي (١٥٠ كتاباً) معظمها في العلوم العقلية ، أي في الكيمياء ، والصناعة ، وخواص الأشياء ، وطبائع المواد ، ومـا أشبه واليوم يسميه الغربيون « أبو الكيمياء في العالم » .

يقول ابن النديم : وهو من تلاميذ الإمام جعفر الصادق (ع) .

والقـاضي ابن خلكان الـذي عاش في القـرن السادس الهجـري يـذكـر جابر بن حيان أيضاً ويقول : كيمياوي ، وتلميذ الإمام الصادق (ع)[2] .

وهناك آخرون أيضاً تكلموا عن هذا الشخص بنفس الكيفية .

ولم يكن لهـذه العلوم التي تطرق إليهـا جابـر سابقـة في دنيا الإسـلام ، حيث كتب كثيراً من الرسائل العلميـة في الموضـوعات المختلفـة التي يكتسب

= بالصوفي ، من أهل الكوفة ، توفي بـ (طوس) له تصانيف كثيرة ، ضاع أكثرها ، وترجم بعض ما بقي منها إلى اللاتينية . ولجابر شهرة كبيرة عنـد الإفرنـج بما نقلوه من كتبـه في بدء يقـظتهم العلمية . قال (برتلو) : لجابر في الكيمياء ما لـ (أرسطوطاليس) قبله في المنطق ، وهـو أول من استخـرج (حـامـض الكبـريتيـك) وسمـاه (زيت الـزاج) وأول من اكتشف (الصـودا الكاوية) ، وأول من استحضر ماء الذهب » . وقال (لوبون) : تتألف من كتب جابـر موسـوعة علمية تحتوي على خلاصة مـا وصل إليـه علم الكيمياء عنـد العرب في عصـره . وقد اشتملت كتبه على بيان مركبات كيماوية كانت مجهولة قبله . وهو أو من وصف أعمال التقطيـر والتبلور ، والتذويب ، والتحويـل . . ». (راجع ابن النـديم : ج ١ ص ٣٥٤ ـ أخبار الحكمـاء : ١١١ ـ معجم المـطبوعـات : ٦٦٤ ـ الأعلام : ج ٢ ص ١٠٤ ـ حضـارة العـرب : ص ٥٧٤ ـ هـديـة العارفين : ج ١ ص ٢٤٩) .

(١) كتاب (الفهرست) لابن النديم ، يعتبر فريداً في فنّه ، وهو في باب تصنيف الكتب يبزّ غيره في العمق والدقة . فهو يحقق في الكتب الموجودة في زمانـه ، ويستقصيها استقصـاءً (جميع كتب العهـد الإسلامي ، وبعض كتب العهـود الأخرى)، وكـان ابن النديم يعيش في القـرن الـرابـع الهجري ، وكان وراقاً وبائعاً للكتب، ولكنه كان ـ في الواقع ـ نابغة وعالمـاً فاضـلاً ، ولا يملك من يقرأ كتابه إلاّ أن ينبهر ويتحير . لقد قرأت هذا الكتاب من أوله لآخره فرأيته يستعرض أنـواع الخطوط التي كانت رائجة في زمانه ، وكذلك أنواع اللغات، ومنشأ كل واحدة منها .

(٢) وفيات الأعيان : ج ١ ص ٣٢٧ . وقال عنه : « جابر بن حيان الصوفي الطرسوسي » وهو اشتباه ظاهر .

كثير منها اليوم أهمية عملية . وكان جابر كثيراً ما يشير في مقدمة كل بحث علمي إلى أستاذه فيقول : حدثني مولاي جعفر بن محمد (ع) . . كذا وكذا

وقد أكبّ المستشرقون المعاصرون على دراسة آثاره ، وبالطبع ، بقيت إلى الآن جوانب كثيرة بالنسبة لهذا العالم الكيمياوي مجهولة لم تكتشف بعد ، والعجيب في الأمر ، أنه لم يرد ذكر لجابر بن حيان في كتب الفقهاء والمحدثين من علماء الشيعة (إلّا أن يكون ابن النديم شيعياً ، والله العالم) .

هشام بن الحكم[1]:

وهو في الواقع أعجوبة زمانه في النبوغ ، وقد تفوق بشهادة أهل السنّة أنفسهم ، على سائر المتكلمين في زمانه ، وانتصر عليهم .

يذكر « شبلي النعمان » في « تأريخ الكلام » أن شخصاً يدعى « أبا الهذيل العلّاف »[2] وكان متكلماً إيرانياً قوياً جداً ، ولم يكن أحد يستطيع أن يواجهه في المباحثة ، ولكن الشخص الوحيد الذي كان يخشاه أبو الهذيل هو

---

(١) هشام بن الحكم الشيباني بالولاء الكوفي ، أبو محمد (ت ١٩٠ هـ) : متكلم مناظر كان شيخ الإمامية في وقته . ولد بالكوفة ، ونشأ بـ (واسط) ، وصنف كتباً . ولما حدثت نكبة البرامكة استتر وتوفي على أثرها بالكوفة ، ويقال عاش إلى خلافة المأمون . (سفينة البحار : ج ٢ ص ٧١٩ ـ النجاشي : ص ٣٠٤ ـ فهرست الطوسي : ص ١٧٤ ـ الكشي : ص ١٦٥ ـ لسان الميزان : ج ٦ ص ١٩٤ ـ أمالي المرتضى : ج ١ ص ١٧٦ ـ الأعلام : ج ٨ ص ٨٥) .

(٢) محمد بن الهذيل بن عبدالله بن مكحول العبدي ، مولى عبد القيس ، أبو الهذيل العلاف (ت ٢٣٥ هـ) : من أئمة المعتزلة . ولد في البصرة ، واشتهر بعلم الكلام . قال المأمون . أطل أبو الهذيل على علم الكلام كإطلال الغمام على الأنام . له مقالات في الإعتزال ، ومجالس ، ومناظرات ، وكان حسن الجدل ، قوي الحجة ، سرع الخاطر . كف بصره في آخر عمره . توفي بـ (سامراء) له كتب كثيرة منها كتاب سماه (ميلاس) على اسم مجوسي أسلم على يده . (وفيات الأعيات : ج ١ ص ٤٨٠ ـ لسان الميزان : ج ٥ ص ٤١٣ ـ الأعلام : ج ٧ ص ١٣١ . مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٩٨ ـ تاريخ بغداد : ج ٣ ص ٣٦٦ ـ أمالي المرتضى : ج ١ ص ١٢٤ ، نكث الهميان : ص ٢٧٧) .

هشام بن الحكم . و« النظام »[1] الذي يعتبر من نوابغ الدهر ، وله نظريات علمية تتطابق مع النظريات الجديدة لعصرنا الحاضر ، كان تلميذاً لهشام ، وذكروا أنه أخذ كثيراً من هذه النظريات من هشام بن الحكم الذي هو بدوره تلميذ من تلامذة الإمام الصادق (ع) .

تحليل :

نستخلص من كل ما سبق أنه قد توفرت للإمام الصادق (ع) أرضية ملائمة جداً من الناحية الفكرية ، استفاد منها الإمام (ع) أفضل استفادة ، ولم تتوفر مثل هذه الأرضية لأي إمام قبله ، ولا لمن جاء بعده بهذه الكيفية ، وعلى هذا المستوى .

نعم توفرت حالة مشابهة ولكن بصورة محدودة للإمام الرضا (ع) . وفي زمن الإمام موسى الكاظم (ع) عادت الأوضاع إلى التردّي ، وظهرت مسألة السجون ، والمطامير ، والسلاسل الحديدية الثقيلة .

والأئمة الذين جاؤوا بعد الإمام الرضا (ع) كانوا يغادرون الدنيا في سنّي شبابهم الأولى ، لأن السلطات الجائرة كانت تدسّ لهم السم ، ولا تسمح لهم أن يبقوا على قيد الحياة ، وإلاّ فقد كانت الظروف المحيطة في زمانهم مساعدة إلى حدّ ما .

أما بالنسبة للإمام الصادق (ع) فقد توفّر له الأمران :

---

(١) إبراهيم بن سيار بن هانيء البصري ، أبو إسحاق النظام (ت ٢٣١ هـ) : من أئمة المعتزلة ، قال الجاحظ : « الأوائل يقولون : في كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن صحَّ ذلك ، فأبو إسحاق من أولئك » . تبحر في علوم الفلسفة ، واطلع على أكثر ما كتبه رجال من طبيعيين والهيين ، وأنفرد بآراء خاصة ، تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت بـ (النظامية) نسبة إليه . أما شهرته بـ(النظام) فأشياعه يقولون إنها من إجادته نظم الكلام ، وخصومه يقولون إنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة .
له كتب كثيرة في الفلسفة والإعتزال . (تاريخ بغداد : ج ٦ ص ٩٧ ـ أمالي المرتضى : ج ١ ص ١٣٢ ـ خطط المقريزي : ج ١ ص ٣٤٦ ـ سفينة البحار : ج ٢ ص ٥٩٧ ـ النجوم الزاهرة : ج ٢ ص ٢٣٤ ـ الأعلام : ج ١ ص ٤٣) .

فأولاً : امتد به العمر فعاش حوالي سبعين عاماً .

وثانياً : ساعده الزمان ، وأعانته الظروف السياسية والإجتماعية .

والآن لنتساءل : إلى أي حدّ يثبت هذا الأمر اختلاف زمان الإمام الصادق (ع) مع زمان الإمام الحسين (ع) ؟

لقد كان أمام سيّد الشهداء أحد أمرين :

فإما أن يجلس في بيته ويبقى في حكم المسجون لا علاقه له بأمر الإسلام والمسلمين .

وإما أن يخرج بالسيف ليسقط شهيداً ويؤدي بذلك خدمة جليلة للدين الذي كان يتعرض لخطر المحو والإنقراض آنذاك .

ولكن بالنسبة للإمام الصادق (ع) لم يكن الأمر كذلك ، بل كان أمامه إما أن يخرج ويقتل ، وإمّا أن يستفيد أقصى استفادة من الظروف المحيطة به لصالح الإسلام .

نحن في الواقع لا نستطيع أن ندرك قيمة وأهمية ثورة الإمام الحسين (ع) ، ولكن الأئمة الذين جاؤوا من بعده ، بيّنوا أبعاد هذه الثورة العظيمة ، والفائدة التي عادت على الإسلام من جرّاء إراقة تلك الدماء الزكية الطاهرة للإمام الحسين (ع) ، وأصحابه الخلص .

ولو لم يكن الإمام الصادق (ع) لاندثرت قضية الإمام الحسين (ع) ، وكذلك لو لم يكن الإمام الحسين (ع) ونهضته المباركة ، لم يكن الإمام الصادق (ع) يستطيع أن يؤدي رسالته في نشر الإسلام ، والمحافظة على التعاليم المحمدية .

وفي ذات الوقت الذي لم يتعرض فيه الإمام الصادق (ع) إلى أمر الحكومة والخلافة ، فإنه لم يضع نفسه في صف الخلفاء الحاكمين . لقد كان يمارس الجهاد ضدهم ولكن بصورة سرية ، وكان بينه وبينهم أشبه ما يكون بما نسميه اليوم بـ « الحرب الباردة » أو « الحرب النفسية » .

فقد كان الإمام الصادق (ع) - دون غيره - هو الذي يقف وراء نشر معايب ، ومثالب ، ومظالم الخلفاء ، وبيانها لعامة المسلمين . ولهذا نقرأ للمنصور[1] تعبيراً عجيباً بشأن الإمام الصادق (ع) حيث كان يقول : « هذا الشجي (أي جعفر بن محمد (ع)) المعترض في الحلق لا أستطيع أن ألفظه ولا أستطيع أن ابتلعه »[2] . يقصد أنه لا يتمكن أن يحصل بيده على مستمسك يدينه ، وبالتالي يقتله ، ويرتاح منه ، ولا يستطيع أن يتحمل بقاءه ، لأنه يعلم أن هذا السلوك المحايد الذي اختاره الإمام الصادق (ع) ، هو ضدّ نظام الخلافة القائمة ، بدليل أن الذين كانوا يتخرجون من هذه المدرسة كلّهم ، كانوا ضد الحكم العباسي وإلباً عليه .

العوامل المؤثرة في النشاط العلمي في زمان الإمام الصادق (ع) :

ظهر - كما ذكرنا - في زمان الإمام الصادق (ع) نشاط علمي خارق للعادة ، وكان من نتائجه أن استعرت نار حرب عقائدية بين الطوائف المختلفة للعلماء والمتفكّرين ، مما كان يحتّم على كل مسلم أصيل ، غيور ، أن يدخل هذه المعمعة دفاعاً عن الإسلام الحنيف .

---

(١) كان تصرف المنصور مع الإمام الصادق (ع) يثير الإستغراب ، ويعود السبب في ذلك إلى الإمام نفسه (لأنه في الوقت الذي كان يعمل فيه ضد المنصور إلّا أنه بذكائه وحكمته ، لم يكن يتصرف أي تصرّف من شأنه أن يقيم الحجة عليه أمام خصمه) . ولذلك كان المنصور أحياناً يتشدد معه ، وأحياناً يلاينه ويلاطفه . وهو حسب الظاهر لم يقدم على سجن الإمام أبداً ، ولكنه في كثير من الأحيان كان يضعه تحت المراقبة ، وفي إحدى المرات وضعه لمدة سنتين تحت الإقامة الجبرية في الكوفة ، وكان يرسل رجاله بين وقت وآخر إلى بيت الإمام لضبط الأوضاع ، ومعرفة ما يجري هناك . وقد أرسل جلاوزته عدة مرات فأحضروا الإمام مقيّداً وقام بشتمه وتهديده بضرب عنقه بتهمة أنه يؤلّب الناس عليه ، ويفعل كذا وكذا ، ولكن الإمام كان يرد عليه باللين والحلم .

(٢) قال المنصور العباسي : « هذا (يعني الإمام جعفر الصادق (ع)) قد أحالني على بحر مواج ، لا يدرك طرفه ، ولا يبلغ عمقه ، تحار فيه العلماء ، ويغرق فيه السبحاء ، ويضيق بالسابح عرض الفضاء ، هذا الشجي المعترض في حلوق الخلفاء ، الذي لا يجوز نفيه ، ولا يحلّ قتله . . . » . (البحار : ج ٤٧ ص ١٦٧) .

لم يكن الإمام الصادق (ع) ليتقاعس عن خوض غمار هذا النوع من الجهاد الذي كان يكتسب صفة الأولوية في زمانه (ع).

وكانت هناك في الواقع أربعة عوامل مختلفة ، كان لها الأثر في إيجاد هذا النشاط العلمي في العالم الإسلامي آنذاك :

العامل الأول : هو أن المحيط العام كان محيطاً إسلامياً ودينياً إلى حدّ كبير ، وكان الناس متأثرين بالأفكار والنوازع الدينية . ولذلك كان تأكيد الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة في الحث على العلم والتعلم ، وعلى التفكّر والتعقّل ، عاملاً أساسياً في هذه النهضة العلمية ، وهذا الحماس الفكري .

والعامل الثاني : هو دخول القوميات المختلفة من الشعوب في الإسلام ، والتي كانت - بالطبع - تتمتع بسوابق فكرية ، ولديها تراث علمي وحضاري خاص بها .

والعامل الثالث : هو تطبيق نظرية الوطن الإسلامي الكبير عملياً ، وذلك بعد أن نجح الإسلام في القضاء على فكرة العصبيات العرقية والقومية ، وبذلك أصبح المسلمون جميعاً على اختلاف أجناسهم ، يتعايشون مع بعضهم في جو من الأخوة ، والمحبة ، والتواضع ، بحيث كنت تجد غلاماً بربرياً مثل عكرمة[1] مولى عبدالله بن عباس ، يدخل المسجد ، ويحتل مكانه في صدر حلقة دراسية ، فيحيط به العراقي ، والسوري ، والمصري ، والحجازي ، والإيراني ، والهندي ، فيجلسون بين يديه ، ويصغون إلى ما يفيضه عليهم من العلم ، دون أن يشعروا بأدنى عضاضة . وهذا العامل لا

---

(١) عكرمة البربري (ت ١٠٥ هـ) : عكرمة بن عبدالله البربري المدني ، أبو عبدالله ، مولى عبدالله بن عباس ، تابعي . كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي . طاف البلدان ، وروى عنه زهاء ثلاثمائة رجل، منهم أكثر من سبعين تابعياً . خرج إلى بلاد المغرب . ثم عاد إلى المدينة ، فطلبه أميرها ، فتغيب عنه حتى مات وكانت وفاته بالمدينة هو و(كثير عزة) في يوم واحد ، قيل : مات أعلم الناس ، وأشعر الناس . (طبقات ابن سعد : ج ٢ ص ٣٨٥ - المعارف : ص ٥٥ - حلية الأولياء : ج ٣ ص ٣٢٦ - تذكرة الحفاظ : ج ١ ص ٩٥ - ميزان الإعتدال : ج ٣ ص ٩٣ - الشذرات : ج ١ ص ١٣٠ - وفيات الأعيان : ج ٣ ص ٢٦٥) .

يخفى أثره في ازدهار العلم ، ونمو الفكر ، كما تصرح بذلك الكثير من الروايات الإسلامية .

والعامل الرابع : والذي يتمتع بأهمية خاصّة هو مسألة (التسامح والتساهل الديني) ويقصد من ذلك التعايش مع غير المسلمين ـ وخصوصاً أهل الكتاب ـ دون أن يرى المسلمون في هذا الأمر مخالفة لأصول دينهم . وكان أهل الكتاب في ذلك الزمان أهل علم ، فأخذ المسلمون من علومهم في العصر الأول ، وأصبحوا في العصر الثاني يحتلون المرتبة الأولى في الأوساط العلمية .

وهذا التسامح الديني له جذور في الأحاديث الشريفة وهي كثيرة في هذا المجال . . وينقل المرحوم المجلسي في « بحار الأنوار » أن النبي (ص) قال : (خذوا الحكمة ولو من مشرك)[١] . (والحكمة تعني الكلام العلمي الصحيح) . وهناك حديث شريف آخر يقول : (الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أينما وجدها)[٢] . أي أن المؤمن هو المالك الأصلي للعلم والحكمة ، وقد يضيع شيء من ذلك منه ، فإذا وجد ضائعته وضالته في يد الكافر أو المشرك ، فعليه أن يسترجعها منه دون تحفظ أو تردّد . والقرآن أيضاً يقول في بيان أهمية الحكمة والعلم : **﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾**[٣] .

وقد أرجع البعض مسألة التسامح والتساهل مع أهل الكتاب إلى سياسة خلفاء الدولة الإسلامية ، ومن هؤلاء (جريجي زيدان)[٤] فهو ينقل قصة

---

(١) سفينة البحار : ج١ ص ٢٩٠ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) سورة البقرة : الآية : ٢٦٩ .

(٤) جرجي زيدان (ت ١٣٣٢ هـ) : جرجي بن حبيب زيدان ، منشىء مجلة (الهلال) بمصر ، وصاحب التصانيف الكثيرة . ولد وتعلم ببيروت ورحل إلى مصر . وتوفي بالقاهرة . من أشهر كتبه : تاريخ التمدن الإسلامي . وتاريخ اللغة العربية تراجم مشاهير الشرق . (الأعلام : ج ٢ ص ١١٧) .

السيد الرضي (جامع كتاب نهج البلاغة ومن مراجع عصره)[1] ، وذلك عندما توفي (أبو إسحاق الصابي)[2] العالم المعاصر له ، حيث نظم قصيدة[3] في رثائه مطلعها :

أرأيت من حملوا على الأعوادِ　　　أرأيت كيف خبا ضياء النادي

فجاء بعض أصحابه وعابوا عليه ، وهو سيد من أولاد رسول الله (ص) ، وعالم إسلامي كبير ، أن يمدح رجلاً كافراً بهذه الصورة ! فكان جوابه لهم : (إنما رثيت علمه)[4].

وبعد أن ينقل هذه القصة يقول (زيدان) :

انظروا إلى سعة الصدر ، فهذا السيد الرضي وهو من أولاد رسول الله (ص) ، ومع ما يتمتع به من عظمة روحية ، ونبوغ علمي ، فإنه لا يجد غضاضة في أن يمدح إنساناً كافراً .

ثم يقول : وكل ذلك تعود جذوره إلى بلاط الخلفاء الذين كانوا يتمتعون بسعة الصدر ، مما أدى إلى أن يتجمع في بلاطهم المسلمون ،

---

(١) نهج البلاغة : كتاب جمع فيه الشريف الرضي حكم وخطب ورسائل أثرت عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، وشرحه كثيرون والمشهور المتداول : شرح محمد عبده ، وشرح ابن أبي الحديد المعتزلي .

(٢) « أبو اسحاق الصابي » كان صابئياً (واليوم تجري بحوث كثيرة حول جذور المذهب الصابئي ويدّعي بعضهم أن له جذوراً تعود إلى الدين المجوسي . ولكن الأظهر أنه نحلة من النحل المسيحية) وكان عالماً كبيراً ، ورجلاً مؤدباً ، ولذلك كان يعشق آداب القرآن بصورة عجيبة . وكان كثيراً ما يستشهد بالآيات القرآنية في أحاديثه . ولم يكن يتناول طعاماً في نهار شهر رمضان ، ولما كان يقال له : لِمَ لا تأكل وأنت لست مسلماً ولا يجب عليك الصيام ؟ كان يجيب : إن الأدب يقتضي أن أراعي مشاعر الصائمين حولي من المسلمين !.

(٣) نقلت هذه القصيدة في كتابي « قصص الأبرار » (الجزء الثاني صفحة ٢٣٧) . والقصيدة تزيد عن ثمانين بيتاً (راجع مقدمة كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء للصابي بتحقيق عبد الستار فراج : ص (ج) .

(٤) راجع تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان : ج ٢ ص ٤١٥ .

والمسيحيون ، واليهود ، والمجوس ، وغيرهم ، ويظهروا علومهم ، ويتبادلون الأفكار فيما بينهم .

ولكن هذا الرأي لا يطابق الحقيقة ، فالسيد الرضيّ تلميذ علي بن أبي طالب (ع) ، وتلميذ جدّه النبي الأكرم (ص) ، اللذين خلفا كثيراً من التوجيهات والأحاديث بشأن طلب العلم ، وتكريم العلماء .

كانت هذه هي العوامل التي أوجدت ذلك الحماس ، والنشاط العلمي الهائل ، وهيأت للإمام الصادق (ع) الأرضية الملائمة لأداء رسالته التبليغية . إذن فخلاصة بحثنا هي أن الإمام الصادق (ع) وإن لم تتهيأ له فرصة الحصول على السلطة والزعامة ، ولو كانت تهيّأت فمن المسلم به أنها كانت أفضل من غيرها ، لأن تواجد الإمام المعصوم على رأس السلطة في العالم الإسلامي ، يعني الخير كل الخير للمسلمين . ولكن على أي حال تهيأت له فرصة أخرى استفاد منها بحيث يمكن القول بكل ثقة بأن الحركات الإسلامية في دنيا المسلمين ـ سواء أكانت شيعية أم سنيّة ـ يعود الفضل في نشوئها وانبثاقها إلى الإمام الصادق (ع) . .

أما الحركات والمدارس الشيعية فلا نقاش حولها من هذه الناحية .

وأما المدارس السنيّة فهي أيضاً وليدة توجيهات الإمام الصادق (ع) ، والجهود التي بذلها في ظل الظروف المساعدة لزمانه .

وهنا يطرح موضوع بهذه الصورة وهي : هل كان الأفضل للإمام الصادق (ع) أن يصرف النظر عن تلك الأرضية الملائمة للثورة العلمية ، فيذهب للقتال ويقتل في سبيل مقاومة الظلم ، أم الأفضل أن يستفيد من هذه الأرضية الممتازة لصالح الإسلام ؟ فالإسلام ليس ـ ـ حرباً ضد الظلم بل يشتمل على مواضيع أخرى أيضاً .

وعلى هذا فقد طرحت هذا البحث لبيان التفاوت بين عصر الإمام الصادق (ع) ، وبين العصور الأخرى ، بحيث أن الإمام الصادق (ع) لو لم يستفد من تلك الفرصة التي سنحت له فسيكون هناك مجال للتساؤل بأنه لماذا

يريد الأئمة (ع) الحكومة والخلافة ؟ أليس لنشر الإسلام ؟ فلماذا إذن لم يستفيدوا من تلك الفرص ، وفضلوا أن يقدموا أنفسهم للقتل في سبيل الحصول على كرسي الحكم ؟

وجواب ذلك هو : أنه في الوقت الذي تتهيأ فيه الأرضية المساعدة لنشر الإسلام ، فإنهم لا يدعون هذه الفرصة تفلت من أيديهم . وقد لاحت للإمام الرضا (ع) فرصة مشابهة ، ولكن على نطاق أضيق ، وذلك عندما سنحت له الفرصة للوصول إلى مجلس المأمون ، ومن هناك استطاع أن يرفع صوته بكلمة الحق . وربما لم يبق الإمام الرضا (ع) عند المأمون أكثر من سنتين من الزمان ، ولكن مقدار ما نقل عنه (ع) في هذه الفترة من الحديث ، لم ينقل عنه في تمام مدة عمره الشريف .

سؤال وجواب :

سؤال : هل أخذ جابر بن حيّان علمه من الإمام الصادق (ع) ؟

جواب : لقد ذكرت أن هناك جوانب من حياة هذا العالم الكيمياوي ما زالت من مجهولات التأريخ . وبالطبع هناك أفراد لا يعتمدون عليه ويقولون : إن عهده متأخر عن عهد الإمام الصادق (ع) بعض الشيء ، ولكن حتى هؤلاء لا يستطيعون إنكار أنه تلميذ من تلاميذ الإمام الصادق (ع) . وأما أولئك الذين يعتمدون على هذه المسألة ، فقد ذكروا أنه تلقى دروسه من الإمام مباشرة .

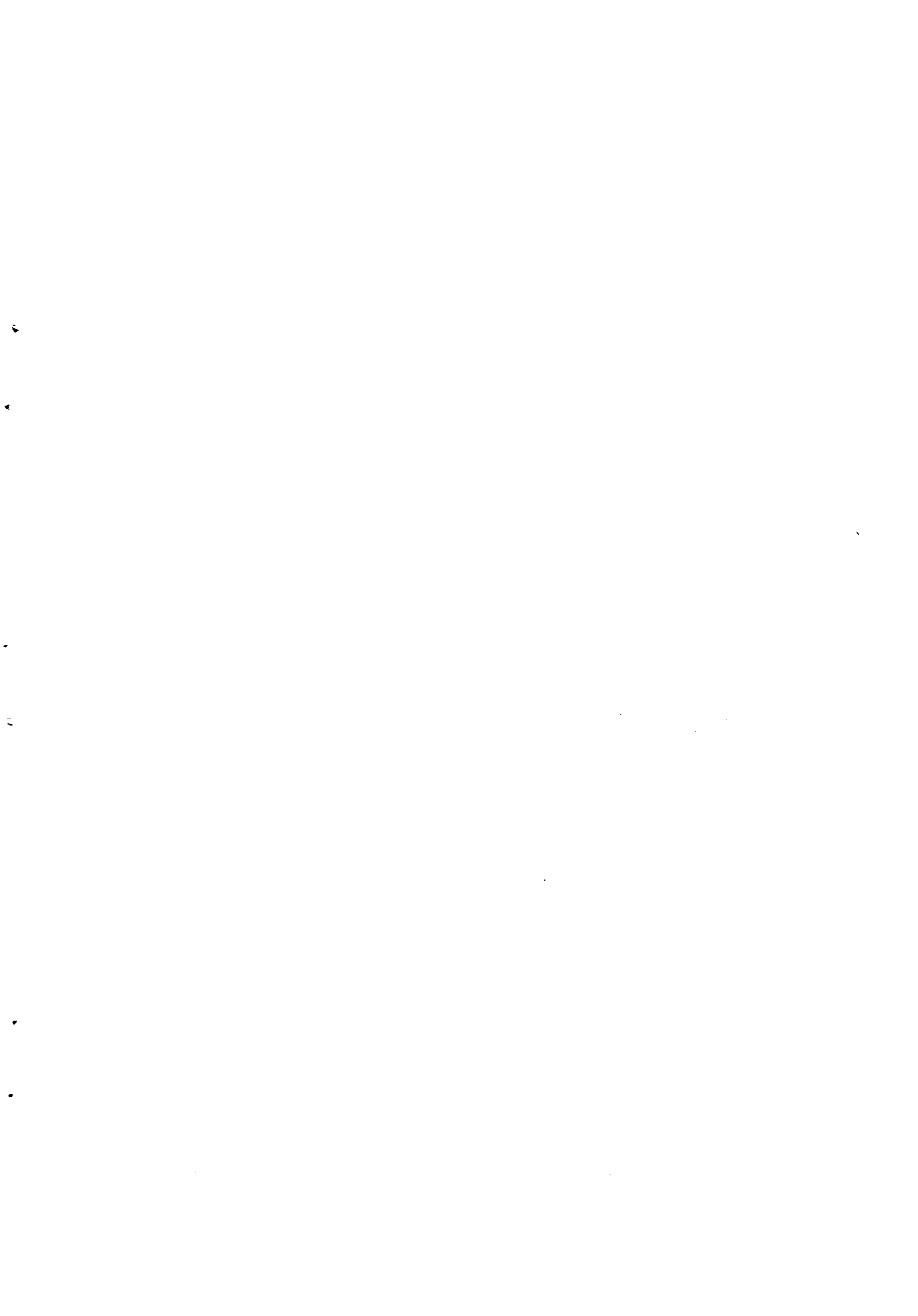
والشيء أساس في هذا الأمر أنه لم يكن لهذه العلوم وجود من قبل . وهذا يدل على أن الإمام (ع) كان له تلاميذ في مختلف أقسام العلوم ، إذ أنّ طلبة العلم لا يمتلك جميعهم ذات الإستعداد الفكري والروحي . ويقول أمير المؤمنين (ع) في هذا الشأن : « ها إن ها هنا لعلماً جماً (وأشار بيده إلى صدره) لو أصبت له حملة ! بلى أصبت لقنا غير مأمون عليه ، مستعملاً آلة الدين للدنيا ، ومستظهراً بنعم الله على عباده ، وبحججه على أوليائه ، أو منقاداً لحملة الحق ، لا بصيرة له في أحنائه ، ينقدح الشك في قلبه لأول

عارض من شبهة . . . »[1]. يريد (ع) أن يقول : بحثت عن أناس أعطيهم من علمي الغزير ، فلم أجد إلّا إنساناً ذكياً عنده استعداد علمي عالٍ ، ولكنه منافق يطلب الدنيا، ويتخذ الدين وسيلة لبلوغ أهدافه المنحرفة . أو إنساناً متديناً ، ولكنه أحمق ، فاقد لكل استعداد علمي ، ولم أجد إنساناً يمتلك الإستعداد العلمي ، والأخلاقي معاً (يقصد (ع) أغلبية الناس بالطبع) .



---

(١) المعجم المفهرس لنهج البلاغة : ص ١١٢ .



الفصل الخامس

أسباب استشهاد الامام موسى الكاظم (ع)

إن جميع أئمتنا الأطهار ، باستثناء الحجة المنتظر (عج) الـذي ما يـزال على قيد الحياة ، فارقوا هـذه الدنيـا بعد أن نـالوا شـرف الشهادة ، فلم يتـوفّ واحد منهم وفاة طبيعية ، أو بسبب المرض ، أو من جراء حادثة عارضة ، وهذه واحدة من مفاخرهم العظيمة ، وكانوا كلهم في حياتهم يتمنون الشهادة ، تشهد بذلك أدعيتهم وزياراتهم التي خلفوهـا لنا من قبيـل هذه العبـارة : (اللهم إني أسـألك أن تجعـل وفاتي قتـلاً في سبيلك) وكذلـك هـذه العبـارة في الـزيـارة الجامعة الكبيرة « أنتم السبيل الأعظم ، والصراط الأقـوم وشهداء دار الفنـاء ، وشفعـاء دار البقاء »[1] . وكـان أمير المؤمنين (ع) يقـول : « إن أكرم المـوت القتل ، والذي نفس ابن أبي طالب بيده ، لألف ضربة بـالسيف أهون عليَّ من ميتة على الفراش في غير طاعة الله »[2] .

والشـائع بين النـاس أن لقب (الشهيـد) هـو لقب خـاص بـالإمـام الحسين (ع) وترد لفظة (الحسين الشهيـد) كثيراً في الـزيرات . وذلـك كما يلقّب الإمام جعفر بـ (الصـادق) والإمام مـوسى بـ (الكاظم) ، ولكن هـذا لا يعني أن الإمام الحسين (ع) هو الشهيد الوحيد من بين الأئمة (ع)، فكما أن

(١) راجع (الزيارة الجامعة الكبيرة) وشرحها في (البحار : ج ٩٩ ص ١٢٩) .

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة : ص ٤٥ .

لقب (الكـاظم) (أي الـذي يملك نفسه عنـد الغضب) لـلإمـام مـوسى بن جعفر ، لا يعني أن بقيّة الأئمة لم يكونوا يتمتعون بهـذه الصفة . وكـذلك لقب (الرضا) لـلإمام علي بن مـوسى ، لا يعني أن غيره من الأئمـة ليسوا مصـداقاً لكلمـة (الرضـا) ، أو عندمـا يـطلق لقب (الصـادق) على الإمـام جعفـر بن محمد ، فلا يعني ذلك أن البقية لم يكـونوا (صـادقين) والعياذ بـالله ، وهكذا بـالنسبة إلى ألقـاب سائـر الأئمة (ع) ولكن ظـروف كل إمـام أوجبت أن يتفرد بلقب خاص ، وصفة خاصة ، سلطت عليها الأضواء في زمانه ، فتميّز بها عند الناس ، وأصبحوا يشيرون إليه بها .

تأثيـر مقتضيات الزمان في شكل المقـاومـة :

كثيراً ما يتبادر إلى الذهن هذا التساؤل ، وهو :

لمـاذا استشهـد غـير الإمـام الحسـين (ع) من الأئمـة (ع) ، عـلى الـرغم أن التأريخ لا يذكر أنهم سلّوا السيوف في وجه الأنظمة الجـائرة لـزمانهم ، فـظاهر سيرتهم تدل على أن طريقتهم تختلف عن طريقـة الإمام الحسين (ع) ، فـإذا كـان الإمام الحسين (ع) استشهـد لأنه خـرج بالسيف في مقـابل نـظام يزيـد المنحـرف ، فلماذا إذن يستشهـد الإمام السجّـاد ، والإمـام البـاقـر ، والإمـام الصادق ، والإمام مـوسى الكاظم (ع)، وكـذلك سـائر الأئمـة ، صلوات الله عليهم أجمعين (كـان الحكام الـظالمون يـدسون لهم السم ، ويقتلونهم بهـذه الطريقة) ؟؟

الجواب : هو أننـا نخطىء كثيـراً عندمـا نتصور أن طـريقة الأئمـة (ع) تختلف عن طريقة الإمـام الحسين (ع) من هذه النـاحية ، وذلـك كما يـدعي البعض أن الإمـام الحسين (ع) هـو الـوحيـد من بين الأئمــة الـذي بنى على المقاومة والمواجهة مع نظام زمانه الجائر ، بينما توجه سائـر الأئمة إلى القعـود والسكـوت ، وتركـوا حبل الأمـور على غـاربـه . ولكن التـأريـخ يكـذّب هـذا الإدعاء ، وكل الدلائل والقرائن قائمة على خلافه .

وإذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية أخرى ، فإننا نرى أن الدين الإسلامي

لا يجيز ـ ليس فقط للإمام المعصوم بمقامه الشامخ ، ومسؤوليته العظمى ، بل حتى للمؤمن الصادق الإيمان ـ أن يتوافق مع نظام الظلم والجور القائم ، ويكيّف نفسه بحيث يخنع ويرضى بذلك الواقع الفاسد ، بل يجب عليه ـ مطلقاً ـ أن يقاوم[1] .

نعم ، التفاوت يقع في شكل المقاومة ، فمرة تكون علنية ، وبالسيف ، والدم ، والنار . ومرة تكون وفيها ما فيها من ضرب الطرف المقابل على أم رأسه ، وتمريغ أنفه في التراب ، وصرف الناس من حواليه ، وسوق قوى المجتمع ضده ، ولكن بصورة خفيّة ومستترة (منهج التقية) ، ومن دون سلّ السيوف وإراقة الدماء .

وهذا هو ما قلناه ـ مراراً ـ من أن مقتضيات الزمان لها تأثير في بلورة شكل المقاومة ، ولكن يجب الإلتفات إلى هذه النقطة ، وهي أن مقتضيات الزمان لا يمكن أن يكون لها من التأثير بحيث أنها تمنع التوافق مع الظلم في زمانٍ ، وتجيزه في زمانٍ آخر . كلا ، فإن التوافق مع الظلم لا يجوز في أي زمان ، وأي مكان ، وبأي صورة من الصور . وتأريخ الأئمة عموماً يحكي عن حالة المقاومة المستمرة التي كانوا يعيشونها .

وعندما تذكر المقاومة في جوّ (التقية) فليس المقصود منها السكون وانعدام التحرك ، والإكتفاء بالمعارضة القلبية ، فالتقية مثل كلمة التقوى ، كلاهما مشتقتان من مادة (وقى) .

ولكن التقوى هي : تجنب العقاب الإلهي عن طريق الإبتعاد عن المعاصي .

---

(١) إن المقاومة هي عملية متحركة دائماً وحسب الظروف الموضوعية التي يعايشها المقاومون . وهي بالضرورة تتخذ أشكالاً في الحركة لتؤدي الدور المطلوب للوصول إلى الهدف السامي دائماً الذي يعنون بتحرير المقهورين ، أو المقدسات . ومن هنا وجب على الشعب المقهور من سلطته الغاشمة ، أن يقاوم سلاطين الجور بكل المقومات المقاومة المتاحة سواء أكانت بالفكر أم السلاح ، أم الحركة التعبيرية الجماعية كما فعل الحسين (ع) ، والصادق (ع) وزين العابدين (ع). (العسيلي) .

بينمـا التقية هي : تجنب بـطش السلطات الظالمـة ، وذلـك عن طـريق المقاومة الخفيّة، والدفاع المستتر عن النفس .

وبتعبير آخر : التقية اتخاذ درع واقية من أجل توجيه أشد الضربـات إلى العـدو ، وتلقي أقـل مـا يمكن من ضـربـاتـه ، وليست التقيـة رفـع اليـد عن المقاومة ، حاشا وكلّا .

وعلى هذا ، فنحن نرى الأئمة الأطهار يفتخـرون بأنهم لم يصـالحوا أي خليفـة في زمانهم ، بـل جعلوهـا حسـرة في قلوبهم أن يقـولـوا كلمـة واحـدة لصـالحهم[1] ، واليوم نـرى خلفاء الجـور من بني أمية ، كيـزيد بن معـاوية ، وعبـد الملك بن مـروان ، وكـذلـك خلفـاء بني العبـاس من أمثـال المنصـور الـدوانيقي ، وأبي العبـاس السفـاح ، وهـارون الـرشيـد والمـأمـون ، والمتوكل . . . قد سقطوا أمام التأريخ في أوحال الفضيحة والعار ، وهـذا الأمر واضح بيننا نحن الشيعة ، وحتى بين كثير من أهل السنّة فإنّ الأمر كذلك .

ولكن السؤال من الـذي أسقط أولئك في الأوحـال ومـرّغ أنـوفهم في التراب ؟

لو لم تكن مقاومة الأئمة الأطهار في مواجهتهم ، وإعـلانهم ـ لفسقهم ، وانحرافهم ، وغاصبيتهم ، وعدم لياقتهم ـ للنـاس ، لكنّا اليـوم نعتبر المـأمون علي الأخص في عداد القديسين ، ولو أن الأئمة لم يشكفوا عن باطن المـأمون

---

(١) قـال الحسين (ع) : « ويزيـد رجل فـاسق ، شارب الخمـر ، قـاتـل أنفس المحـرمـة ، معلن بالفسق ، ومثلي لا يبايع مثله . . . » وقال : « وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة بـراع مثل يزيد ، ولقد سمعت جدي رسول الله (ص) يقول : الخلافة محرمة على آل أبي سفيان . . . » (اللهوف في قتلى الطفوف : ص ١١) . وقال المنصـور العباسي عن الإمـام الصادق (ع) : « . . . هذا الشجى المعترض في حلوق الخلفاء ، الذي لا يجوز نفيه ، ولا يحـل قتله ، ولولا ما يجمعني وإياه شجـرة طاب أصلهـا ، وبسق فرعهـا ، وعذب ثمـرها ، وبـوركت في الـذر ، وقدست في الزبر ، لـكان مني إليه ما لا يحمـد ، في العواقب ، لمـا يبلغني عنه من شـدة عيبه لنـا ، وسوء القـول فينا . . » (البحـار : ج ٤٧ ص ١٦٧ ـ الإمام الصـادق والواقـع المعاش : ص ١٩) .

مثلاً ، ولم يبينوا حقيقته ، فمن المسلم به أن يكون اليوم عند المسلمين أحد أبطال العلم والدين في العالم .

وبحثنا هنا في أسباب استشهاد الإمام موسى الكاظيم (ع) :

أولاً : وقبل كل شيء ينبغي أن نشير إلى أن استشهاد هذا الإمام المظلوم من مسلمات التأريخ ، ولا يمكن لأحد أن ينكر ذلك . وبناءً على أكثر الروايات شهرة واعتباراً ، فإن موسى بن جعفر (ع) قضى أربع سنوات من عمره الشريف في زوايا الزنزانات في السراديب المظلمة ، وفارق الدنيا مسموماً وهو في السجن ، وكانوا قبل ذلك يحاولون المرة تلو المرة أن يستخلصوا منه اعترافاً . أو اعتذاراً ، ولو شكلياً ، لصالح هارون الرشيد ، ولكن الإمام لم يكن أبداً ليلبّي لهم مثل هذا الطلب .

الإمام في سجن البصرة :

لم يمكث الإمام (ع) في سجن واحد ، وإنّما تنقل بين سجون عديدة ، والسر في اضطرارهم إلى نقله من سجن لآخر هو أنهم كلما وضعوه في سجن ، يصبح مدير ذلك السجن بعد فترة من الزمن مريداً ومتعاطفاً مع (ع) .

وقد وضعوا الإمام أولاً في سجن (البصرة) ، وسلموه بيد عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور[1] ، والي البصرة ، وهو حفيد للمنصور الدوانيقي ، وكان شخصاً ماجناً ، معاقراً للخمر ، ومن عشاق الرقص والغناء .

يقول أحد أتباع هذا السجّان المتهتك ، « لقد سمع هذا الرجل الصالح ، في أيامه هذه ، في هذه الدار التي هو فيها ، من ضروب الفواحش

---

(١) عيسى بن جعفر بن المنصور العباسي (ت نحو ١٨٥ هـ) : قائد ، من أمراء بني العباس ، وهو أخو زبيدة ، وابن عم هارون الرشيد تولى البصرة ، ثم بعثه الرشيد عاملاً على (عمان) في ستة آلاف مقاتل ، فلم يكد يستقر فيها ، حتى سير إليه إمام الأزد (الوارث الخروصي) جيشاً قاتله ، فانهزم عيسى ، فأسر ، وسجن ، في (صحار) ، ثم تسوّر عليه بعضهم السجن ، فقتلوه فيه . (الأعلام : ج ٥ ص ١٠٢) .

والمناكير ، ما أعلم ولا شك ، أنه لم يخطر بباله »[1] . (يقصد أصوات الموسيقى ، والغناء ، وسائر أقسام اللغو) .

وقد أحضروا الإمام إلى سجن البصرة في شهر ذي الحجة من عام (١٧٨ هـ) ، وكانت تلك الأيام بالنسبة لهم أيام احتفالات ومسرّات لقرب حلول عيد الأضحى المبارك ، مما أدىٰ إلى أن يعيش الإمام تلك الفترة في وضع سيء جداً من الناحية الروحية ، وهو يرى كل هذه المنكرات ترتكب أمامه .

وبقى (ع) مدّة في ذلك السجن ، فأخذ عيسى بن جعفر يميل إليه شيئاً فشيئاً حتى أصبح محباً ومريداً له ، وكان هذا السجّان يعتقد سابقاً بأنه لعل موسى بن جعفر هو في الواقع كما تبثّ أبواق النظام الإعلامية ، رجل متمرّد فنّه الوحيد هو ادعاء الأحقية في الخلافة ، أي إنَّ عشق السلطة والرئاسة قد ملأ عليه وجوده ، ولكنه رأى العكس تماماً ، فالرجل الذي أمامه رجل معنويات وتوجهات روحية خالصة ، وإذا كانت مسألة الخلافة مطروحة بالنسبة له ، فمن جهة التكليف الشرعي ـ فقط ـ لا من جهة طلب الجاه وحبّ الدنيا .

ولذلك رأى نفسه مضطراً لإصدار أمر بتحسين وضع الإمام ، ووضع داراً حسنة التأثيث تحت تصرفه (ع)، وأخذ يعامله بالتجليل والتكريم وبصورة رسمية وعلنية .

ثم إن هارون أرسل بعد فترة رسالة سرية إلى عيسى بن جعفر يأمره فيها باتخاذ الإجراءات للقضاء على حياة الإمام (ع)، فأرسل الجواب بأنه غير مستعدّ لإرتكاب مثل هذه الجريمة[2] ، وبعد ردّ وبدل بين هارون وعيسى ،

---

(١) البحار : ج ٤٨ ص ٢٢١ .

(٢) ولما وصلت أوامر الرشيد لعيسى بن جعفر (والي البصرة) باغتيال الإمام (ع) ثقل عليه الأمر . . . فكتب إلى الرشيد رسالة ، يطلب فيها إعفاءه من ذلك ، وهذا نصها : « يا أمير المؤمنين ، كتبت إليّ في هذا الرجل ، وقد اختبرته طول مقامه، بمن حبسته معه ، عيناً عليه ، لينظروا حيلته ، وأمره ، وطويته ، ممن له المعرفة والدراية ، ويجري من الإنسان مجرى=

أرسل الأخير إلى الخليفة أن يأمر باسترجاع هذا السجين منه ، وإلّا فإنه سوف يبادر إلى إطلاق سراحه ، لأنه لا يتمكن أن يحتفظ برجل مثل الإمام سجيناً عنده ، ولأن عيسى كان ابن عمّ الخليفة وحفيد المنصور ، فقد تمّت الأستجابة لطلبه . . .

الإمام (ع) في السجون المختلفة :

وأخذوا الإمام إلى بغداد بأمر هارون ، فسلموه بيد الفضل بن ربيع ، (والربيع هذا هو الحاجب المعروف للعباسيين)[1] ولكن الفضل ، بعد مدّة من الزمن ، أصبح من محبي الإمام ، فغيّر أوضاعه وأخرجه من السجن والسلاسل، وأمر أن يعامل معاملة حسنة ، ويوضع في مكان لائق . فأرسل جواسيس هارون بأن موسى بن جعفر يعيش في سجن الفضل بن ربيع حياة هانئة ، وهو بمثابة ضيفٍ عنده .

فأمر هارون باستلام السجين منه وتسليمه إلى الفضل بن يحيى البرمكي ، الذي تصرف مع الإمام بطريقة أثارت غضب هارون ، وسخطه الشديد ، عندما نُقلت إليه أخبار المعاملة الحسنة التي كان يعامل بها الإمام (ع)، فأرسل جواسيسه وحققوا في الأمر ، فوجدوا أن هذه الأخبار صحيحة ، فأمر هارون باستلام السجين منه ، وأصبح الفضل بن يحيى من المغضوب عليهم عند الخليفة .

= الدم ، فلم يكن منه سوء قط ، ولم يذكر أمير المؤمنين إلّا بخير ، ولم يكن عنده تطلع إلى ولاية ، ولا خروج ، ولا شيء من أمر الدنيا ، ولا دعاء قطّ على أمير المؤمنين ، ولا على أحد من الناس ، ولا يدعو إلّا بالمغفرة والرحمة له ، ، ولجميع المسلمين ، مع ملازمته للصيام ، والصلاة ، والعبادة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفيني من أمره ، أو ينفذ من يتسلمه مني ، وإلّا سرحت سبيله ، فإني منه في غاية الحرج » (حياة الإمام موسى بن جعفر للقرشي : ج ٢ ص ٤٦٨) . كشف الغمة للأربلي : ج ٣ ص ٢٢) .

(١) كان للخلفاء العباسيين حاجب باسم « الربيع » حيث كان في البداية حاجباً للمنصور ، وبقي في هذا المنصب بعد المنصور في نظام الحكم ، ومن بعده أحتل ولده « الفضل » مكانه في عهد هارون ، وكان الأب والإبن هذان من أخصّ خواص بلاط الخلفاء العباسيين ، ومورد ثقتهم واعتمادهم .

ثم إنَّ أباه يحيى البرمكي ، ذلك الوزير الإيراني الناصبي ، قام بمحاولة للحيلولـة دون سقوط أولاده في نـظر هارون ، من جـراء عـدم تنفيـذ أوامـره ، وإظهار الطاعة العمياء له ، فذهب إلى مجلس هارون ، حيث كان هذا جالساً وحـوله حـاشيته ، فـاقترب منـه واستدار من وراء ظهـره ، ووضع فمـه في أذن هارون قائلاً : إن كان ولدي قد قصّر بحقكم ، فأنـا مستعد بنفسي أن أنفّـذ أي أمـر تأمـرونني به . . وقـد تاب ولـدي من ذنبه هـذا ، إن ولدي كـذا وكذا . . الخ[1] ، وظل يتملّق على هذا المنوال إلى أن نجـح في إقناع هـارون ، حيث خوّله أن يستلم الإمام ، ويتصرف معه بما يرى .

فـأخـذ يحيى البـرمكي السجين ، وسلّمـه إلى سجّـان آخـر ، وهـو السندي بن شاهك[2] الذي يقال : إنه لم يكن مسلماً أصلاً ، وقـد مرّت أشـد الـظروف وأصعبهـا على الإمـام في سجن هـذا الجـلّاد ، حيث لم يـذق الإمام (ع) بعد ذلك طعم الراحة أبداً .

طـلب هارون من الإمام :

أرسل هارون وزيره يحيى البرمكي لمقابلة الإمام في سجنـه ، وذلك في الأيـام الأخيرة لحيـاة الإمـام (ع)، وقـال لـه : أبلغ سـلامي إلى ابن عمّي ، وتكلم معـه بكلام ليّن ، وقـل له بـأنه قـد ثبت لدينـا بأنـك بـريء ولم تـرتكب خطأً ، ولكن للأسف فإني سبق أن أقسمت بأنك ما لم تعتـرف بذنبـك اعترافـاً صـورياً ، وتـطلب مني أن أعفو عنـك ، فلن أطلق سراحـك أبـداً . وليس من الضروري أن يعرف أحد بهذا الأمـر ، كما أنـه لا يلزم أن يتم بحضوري ، بـل يكفي أن تقـر وتعترف أمـام رسـولي يحيى البـرمكي ، وذلـك من أجـل أن أبـرّ بقسمي ، ولا أحنث به ، وبعد ذلك أقدم عليّ ، وسوف أريك ما يسرك ، ويقرّ عينك .

---

(١) البحار : ج ٤٨ ص ٢٣٤ .

(٢) كـان رئيس الشرطـة عند هـارون الرشيـد ، فظاً غليـظاً ، يرسله بـالمهمات الصعبة . وهو جـد كشاجم الشاعر المشهور (ابن خلّكان) .

فكان جواب الإمام (ع) ليحيى البرمكي هذه العبارة : « قل لهارون : لم يبق من عمري شيء » وهذا الجواب على إيجازه يحمل أمرين مهمين :

الأول : هو روح الصمود والمقاومة ، والثبات على العقيدة التي لا تجيز مسايرة الظالم ، والخنوع أمامه ، ولو بمقدار يسير .

الثاني : هو فضح هارون وكشف كذبه ونفاقه ، لأنه كان ينوي التخلص من وجود الإمام الذي يرى فيه منافساً خطيراً له وهو في ظُلم السجون وسلاسل الحديد .

ومنتهى الأمر أنه كان يريد أن يضرب عصفورين بحجر واحد ، وذلك بأن يسقط شخصية الإمام معنوياً باستخلاص الإعتذار ، وطلب العفو منه ، ثم بعد ذلك يقوم بتصفيته جسدياً ، ولما فشل في الأمر الأول ، قام بعد أسبوع واحد من هذه المقابلة بدس السّم للإمام(ع) فغادر هذه الدنيا يحمل على صدره وسام الشهادة .

سبب اعتقال الإمام (ع) :

كان هارون الرشيد يحسد الإمام الكاظم (ع) على مكانته الإجتماعية ، ومحبوبيّته بين الناس ، وكان يحسّ بالخطر من ناحيته مع أن الإمام لم يكن ـ أبداً ـ بصدد القيام والثورة ، ولم يقم بأي خطوة في اتجاه تشكيل حركة ، أو تنظيم مضاد يهدد السلطة القائمة ، لكن هارون أدرك أن الإمام ، وإن لم يقم بثورة مادّية مسلحة ، إلاّ أنه فجّر ثورة معنوية وعقائدية تركت صداها الكبير بين أوساط الجماهير ، وجعلت هارون الرشيد يشعر بأنه يجلس على كرسي مهزوز ، فوضع الإمام يحكي بوضوح عن غاصبيّة هارون للخلافة .

وعندما فكر هارون بتثبيت ولاية العهد لأولاده الأمين ، ثم المأمون ، ثمّ المؤتمن ، دعا الناس ، وخصوصاً العلماء ، وكبار الشخصيات ، للحضور إلى مكة في إحدى السنوات ، وأعلمهم بأنه يزمع أن يعقد مؤتمراً عظيماً هناك لأخذ البيعة من الناس ، ولكنه فكّر أن موسى بن جعفر سيفسد عليه هذا الأمر ، ويمنعه من تحقيق مرامه ، لأن المسلمين المجتمعين هناك عندما

يـرونه ، فسـوف يرون فيـه الشخص الوحيـد اللائق للخـلافـة ، وبـالتـالي قـد يمتنعون عن إعطاء البيعة لأولاد هارون .

وعندما وصل هارون الرشيد إلى المدينة في طريقه إلى مكـة، عزم على اعتقال الإمام ، وإبعاده عن الساحة .

يقـول يحيى البرمكي في حـديث مع أحـد أصدقـائه : أظن أن الخليفـة سيأمر اليـوم أو غداً بتـوقيف موسى بن جعفـر ، فسألـه عن السبب فقال : لقـد كنت مـرافقاً للخليفـة حيث ذهبنا لـزيـارة قبـر رسـول الله (ص) في المسجـد النبـوي[1] ، وعندمـا أراد أن يسلم على النبي (ص) سمعته يقـول : السـلام عليـك يـا ابن العم ، إني ألتمس منـك العـذر لأني مضـطر إلى تـوقيف ولـدك مـوسى بن جعفر[2] ! وفعـلاً أرسل هـارون جلاوزتـه في اليوم التـالي إلى بيت الإمـام لإلقاء القبض عليـه ، ولكنهم لم يجدوه في بيتـه، فذهبـوا إلى مسجـد النبي (ص) فألفوه يصلّي ، فلم يعطوه مهلة لإتمام صلاته ، بل أخذوا يجرونه وهـو في حالـة الصـلاة وأخـرجـوه من المسجـد ، فـنظر الإمـام (ع) إلى قبـر الرسول (ص) وقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليـك يا جـدّاه . انظر إلى أمتك كيف يتصرفون مع أبنائك[3] .

كـلام للمـأمـون :

كـانت تصدر من المـأمـون كلمـات دفعت الكثيـر من المؤرخين إلى أن

---

(١) هؤلاء الأشقياء كان عندهم في الواقع اعتقاد بالنبي (ص) وبأهل بيته الأطهار (ع)، ومع ذلك كانوا يتصرّفون على خلاف اعتقادهم مما زاد في درجة شقائهم أضعافاً مضاعفة ، وهم في ذلك مثل قتلة الإمام الحسين (ع) وذلك عندمـا سأل سيـد الشهداء (ع) عن أهـل الكوفـة وهو في الـطريق إليهم ، فأجـابه الفـرزدق وآخرون معـه قائلين : « قلوبهم معـك وسيـوفهم عليـك » . فالمطامع الماديـة وحبّ الدنيـا يجعل ضعفـاء العقيدة والإيمـان يحابـون ضدّ عقيـدتهم ، وضدّ إيمانهم ، وبالتالي يزدادون شقاءً وعذاباً عند الله تعـالى ، عن أولئك الـذين لا يعتقدون أسـاساً بالإسلام ، ولا بالنبي (ص) ، ولا بأوصيائه الأطهار .

(٢) البحار : ج ٤٨ ص ٢٣٢ ـ كشف الغمة للأربلي : ج ٣ ص ٢٢ .

(٣) البحار ج ٤٨ ص ٢٢١ .

يعتبروه شيعياً ، وبناءً على اعتقادي الشخصي (في أنه لا يوجد أيّ مانع في أن يعتقد المرء بشيء ، ولكنه يتصرف عملياً ضد هذا الإعتقاد) فهو ليس شيعياً فقط ، بل من علماء الشيعة .

وقد كتب قاضٍ سنّي تركي ، قبل بضع سنوات كتاباً ترجم إلى الفارسية ، هو بعنوان : « تحليل ومحاكمات حول آل محمد (ص) » ، وفيه نجد مباحثة للمأمون مع علماء السنّة حول أحقية الإمام علي (ع) بالخلافة ، بعد الرسول مباشرة ، وهي مباحثة علمية شيقة إلى درجة أنه من النادر أن نرى عالماً من علماء الشيعة ، يغوص هكذا في البحث العلمي[1] .

وقد سجّل التاريخ أن المأمون سأل بعض أصحابه يوماً : « أتدرون من علمني التشيع ؟ فقال القوم جميعاً : لا والله ما نعلم . قال : علمنيه الرشيد ! قيل له : وكيف ذلك ؟ والرشيد كان يقتل أهل هذا البيت ؟

قال : كان يقتلهم على الملك ، لأنّ الملك عقيم ، ولقد حججت معه سنة ، فلما صار إلى المدينة ، تقدم إلى حجّابه وقال : « لا يدخلنَّ عليَّ رجل من أهل المدينة ومكة ، من أبناء المهاجرين والأنصار ، وبني هاشم ، وسائر بطون قريش ، إلّا نسب نفسه » . فكان الرجل إذا دخل عليه قال : أنا فلان بن فلان ، حتى ينتهي إلى جده ، من هاشمي ، أو قرشي ، أو مهاجري ، أو أنصاري ، فيصله من المائة بخمسة آلاف درهم وما دونها إلى مائتي دينار ، على قدر شرفه ، وهجرة آبائه .

فأنا ذات يوم واقف ، إذ دخل الفضل بن الربيع ، فقال : يا أمير المؤمنين ، على الباب رجل يزعم أنه موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) .

فأقبل علينا، ونحن قيام على رأسه ، والأمين والمؤتمن ، وسائر القواد ،

---

(١) عيون أخبار الرضا (ع) للشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ) : ج ٢ ص ١٨٣

فقال : إحفظوا على أنفسكم ، ثم قال لآذنه : إئذن له ، ولا ينزل إلّا على بساطي .

فأنا كذلك ، إذ دخل شيخ مُسَخّد ، قد انهكته العبادة ، كأنه شن بال ، قد كلم[1] السجود وجهه وأنفه . فلما رأى الرشيد ، رمى بنفسه عن حمار كان راكبه ، فصاح الرشيد :

« لا والله إلّا على بساطي ! » .

فمنعه الحجاب من الترجّل ، ونظرنا إليه بأجمعنا ، بالإجلال والإعظام ، فما زال يسير على حماره ، حتى صار إلى البساط ، والحجاب والقواد محدقون به ، فنزل . فقام إليه الرشيد ، واستقبله إلى آخر البساط ، وقبل وجهه ، وعينيه ، وأخذ بيده ، حتى صيَّره في صدر المجلس ، وأجلسه معه فيه ، وجعل يحدثه ، ويقبل بوجهه عليه ، ويسأله عن أحواله .

ثم قال : يا أبا الحسن ! ما عليك من العيال ؟ فقال : يزيدون على الخمسمائة . قال : أولاد كلهم ؟ قال : لأن أكثرهم موالي وحشم ، فأما الولد فلي نيّف وثلاثون : الذكران منهم كذا ، والنسوان منهم كذا ، قال : فلم لا تزوج النسوان من بني عمومتهن وأكفائهنَّ ؟ قال : اليد تقصر عن ذلك . قال : فما حال الضيعة ؟ قال : تعطي في وقت ، وتمنع في آخر . قال : فهل عليك دين ؟ قال : نعم . قال كم ؟ قال : نحو من عشرة آلاف دينار .

فقال الرشيد : يا بن عم ، أنا أعطيك من المال ما تزوج به الذكران والنسوان ، وتعمر الضياع ، فقال له : وصلتك رحم يا بن عم ، وشكر الله لك هذه النية الجميلة ، والرحم ماسَّة ، والقرابة واشجة ، والنسب واحد ، والعباس عم النبي (ص) ، وضو أبيه ، وعم علي بن أبي طالب (ع) ، وضو أبيه ، وما أبعدك الله من أن تفعل ذلك ، وقد بسط يدك ، وأكرم عنصرك ، وأعلى محتدك .

---

(١) الكلم : مصدر : الجرح ، جمع كلوم ، وكِلام .

فقال : أفعل ذلك يا أبا الحسن ، وكرامة . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله ، عزّ وجلّ ، قد فرض على ولاة عهده أن ينعشوا فقراء الأمة ، ويقضوا على الغارمين ، ويؤدوا عن المثقل ، ويكسو العاري ، ويحسنوا إلى العاني ، وأنت أولى من يفعل ذلك ، فقال : أفعل يا أبا الحسن .

ثم قام ، فقام الرشيد لقيامه ، وقبل عينيه ووجهه ، ثم أقبل عليٍّ ، وعلى الأمين ، والمؤتمن ، فقال : يا عبدالله ، ويا محمد ، ويا إبراهيم ، بين يدي عمكم وسيدكم ، خذوا بركابه ، وسووا عليه ثيابه ، وشيعوه إلى منزله .

فأقبل أبو الحسن ، موسى بن جعفر (ع)، سراً بيني وبينه ، فبشرني بالخلافة ، وقال لي : إذا ملكت هذا الأمر ، فأحسن إلى ولدي . ثم انصرفنا ، وكنت أجرأ ولد أبي عليه .

فلما خلا المجلس ، قلت : يا أمير المؤمنين ، من هذا الرجل الذي قد عظمته ، وأجللته ، وقمت من مجلسك إليه فاستقبلته ، وأقعدته في صدر المجلس ، وجلست دونه ، ثم أمرتنا بأخذ الركاب له ؟

قال : هذا إمام الناس ، وحجة الله على خلقه ، وخليفته على عباده ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أو ليست هذه الصفات كلها لك وفيك ؟

فقال : أنا إمام الجماعة في الظاهر بالغلبة والقهر ، وموسى بن جعفر إمام حق ، والله يا بني إنه لأحق بمقام رسول الله (ص) ، مني ، ومن الخلق جميعاً ، ووالله لو نازعتني هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناك ، فإن الملك عقيم .

فلما أراد الرحيل من المدينة إلى مكة ، أمر بصرة سوداء ، فيها مائتا دينار ، ثم أقبل على الفضل بن الربيع ، فقال له : اذهب بهذه إلى موسى بن جعفر ، وقل له : يقول لك أمير المؤمنين : نحن في ضيقة ، وسيأتيك برنا بعد هذا الوقت .

فقمت في صدره فقلت : يا أمير المؤمنين ، تعطي أبنا المهاجرين والأنصار ، وسائر قريش ، وبني هاشم ، ومن لا يعرف حسبه ونسبه ، خمسة

آلاف دينار إلى ما دونها ، وتعطي موسى بن جعفر ، وقد أعظمته ، وأجللته ، مائتي دينار ؟! أخسّ عطية أعطيتها أحداً من الناس !!.

فقال : أسكت لا أم لك ! فإني لو أعطيت هذا ما ضمنته له ، ما كنت آمنه[1] . أن يضرب وجهي غداً بمائة ألف سيف من شيعته ومواليه ، وفقر هذا وأهل بيته ، أسلم لي ولكم من بسط أيديهم وأعينهم .

النفوذ المعنوي للإمام (ع):

لقد كان النفوذ المعنوي للأئمة (ع) كبيراً ، نعم ، لم يكونوا في كثير من الأحوال يمتلكون قوة السيف ، أو قوة الدعاية والإعلام، ولكنهم في كل الأحوال كانوا يمتلكون القلوب . فالحق له قوة جاذبة لا يمكن إغفالها ، ولذلك يحدثنا التأريخ عن أفراد كانوا يحتلون مناصب عالية في نظام حكم هارون ، ومع ذلك كان ولاؤهم لأهل بيت رسول الله (ص) وكانوا يخفون تشيّعهم ، ومن هؤلاء علي بن يقطين[2] وزير هارون والرجل الثاني في الدولة . وكان في الواقع يقوم بخدمة أهداف إمامه موسى بن جعفر (ع) برغم أن ظاهره كان مع هارون . وقد وشى به بعضهم إلى هارون عدّة مرات ، ولكن

---

(١) من أول الراوية إلى رقم الهامش عن (البحار : ج ٤٨ ص ١٢٩) والتكملة عن (عيون أخبار الرضا : ج ١ ص ٧٤) وفي البحار ما رقمناه نقص فاضح فارجع إليه إن شئت !! طبعة الوفاء ـ بيروت

(٢) علي بن يقطين ، رحمة الله علي ، ثقة جليل القدر ، له منزلة عظيمة عند أبي الحسن موسى بن جعفر (ع)، وكان يقطين من وجوه الدعاة ، وطلبه مروان فهرب . وولد علي بن يقطين رحمه الله بـ (الكوفة) سنة (١٢٤ هـ) ، وهربت أم علي به ، وبأخيه عبيد بن يقطين إلى المدينة ، فلما ظهرت الدولة الهاشمية ، ظهر يقطين ، وعادت أم علي ، بعلي وبعبيد ، فلم يزل علي في خدمة أبي العباس ، وأبي جعفر المنصور ، ومع ذلك كان يتشيّع ، ويقول بالإمامة، وكذلك ولده ، ويحمل الأموال إلى جعفر بن محمد (ع) ، ونُمَّ خبره إلى المنصور والمهدي ، فصرف الله عنه كيدهما . مات سنة (١٨٢ هـ) في أيام موسى بن جعفر (ع) بـ (بغداد) وهو محبوس في سجن هارون ، بقي فيه أربع سنين . وله كتب ورسائل ومصنفات عديدة . قال أبو الحسن ، موسى بن جعفر (ع) : « ضمنت لعلي بن يقطين أن لا تمسّه النار أبداً » (راجع مجمع الرجال : ج ٤ ص ٢٣٤).

الإمام الكاظم (ع) ببصيرته وعلمه الرباني ، كان في كل مرة يصدر تعليمات خاصة لابن يقطين ، كان ينجو بتنفيذها من إقامة البيّنة عليه لدى الخليفة الجائر .

وكان هناك العديد من بين حاشية هارون ينجذبون إلى شخصية الإمام الكاظم (ع) ويحبّونه ، ولكن أحداً لم يمتلك الجرأة أن يذهب لملاقاة الإمام والحديث معه ، وذلك بسبب الإرهاب الشديد ، والعقوبات الصارمة التي كان النظام يفرضها على كل من يحاول الإتصال بالإمام (ع) . والقصة التالية تلقي بعض الأضواء على أوضاع محبي الإمام في تلك الظروف الحرجة :

يقول أحد الإيرانيين من أهل الأهواز وكان شيعياً : كانت قد شملتني ضرائب ثقيلة عليَّ أن أودّيها إلى الوالي ، ولو قدّر لي أن أدفع تلك الضرائب الباهظة التي لفقوها عليّ لأفلست تماماً ، وعجزت عن إدارة شؤون حياتي . وأتفق أن والي الأهواز عُزل وجاء مكانه والٍ آخر ، وبقيت قلقاً خوفاً من أن يطالبني الوالي الجديد بما هو مثبت في السجلات السابقة . ولكن بعض أصدقائي أخبروني بأن الوالي الجديد شيعيّ فاذهب إليه لعله يساعدك ، ولكني لم أصدق ذلك ، وبالتالي لم أجد الجرأة اللازمة لأن أذهب إليه ، وأقول له بأنني شيعي . فقلت في نفسي : أذهب أولاً إلى المدينة وأقابل الإمام موسى الكاظم (ع) (لم يكن في السجن آنذاك) فإذا أكد لي هذا الأمر ، فإني آخذ توصية منه إلى ذلك الوالي . وفعلاً ذهبت وكتب لي الإمام رسالة موجزة من ضمنها هذه العبارة : « قضاء حاجة المؤمن لها عند الله من الأجر كذا وكذا . . والسلام » فأخفيت الرسالة في ثيابي وأخذتها معي إلى الأهواز .

ثم إني ذهبت ليلاً إلى بيت ذلك الوالي وطرقت الباب فخرج إليَّ حاجبه ، فقلت له : أخبر سيّدك أن شخصاً من طرف موسى بن جعفر عنده رسالة لك ، وقبل أن أتمّ كلامي خرج إليَّ الوالي نفسه وسلّم عليّ وقال : ماذا تقول ؟ فأعدت عليه الكلام ، فأخذ الرسالة مني وعرف التوقيع ، فقبّل الرسالة ثم قبّل وجهي وعيني ، أدخلني إلى منزله وجلس بين يدي كالغلام الصغير وسألني : حقاً كنت بنفسك في خدمة الإمام ؟ قلت : أجل . قال : وجلست

بين يديه ، ورأيت بعينيك جماله النوراني ؟ قلت : أجل . فقال : هنيئاً لك . فما هي مشكلتك إذن ؟ فذكرت له قصتي ، فأمر في نفس تلك الليلة بإحضار دفاتر الضرائب ، وقام بإصلاحها ، وشطب كل تلك الضرائب الثقيلة التي كانوا قد حمّلوها فوق كاهلي . ولأجل أن الإمام ذكر في إحدى عبارات رسالته أنه من أدخل السرور على قلب المؤمن في الدنيا ، أدخل الله تعالى السرور في قلبه يوم القيامة . . . فقد قال لي أيضاً : أتأذن لي أن أقدم لك خدملا أخرى ؟ قلت : تفضل . قال : أريد أن أشاطرك الليلة كل ما أملك من أموال نقدية وغير نقدية ، فخرجت من عنده وقد زال عني كابوس الضرائب بالإضافة إلى ما أعطاني من مالٍ كثير . ثم ذهبت إلى حضرة الإمام عندما سنحت لي سفرة إلى المدينة ، وحدثته بكل ما جرى ، فتبسم (ع) وظهر السرور على وجهه[1] .

وهكذا كان هارون الخليفة المتجبّر ، عندما يخاف من شخص مثل موسى بن جعفر (ع)، فإنه كان في الواقع يخاف من جاذبية الحقيقة وتأثيرها على الناس ، فقد كان (ع) مصداقاً للحديث الشريف : « كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم » . فالتبليغ ليس كله كلاماً ، بل إن أثر التبليغ اللساني في الواقع قليل ، بينما التأثير الأعظم هو للتبليغ العملي والسلوكي ، ومن كان يشاهد موسى بن جعفر ، أو آباءه الكرام ، أو أولاده الطاهرين ، ويعاشرهم فترة من الزمن ، فإنه كان يشاهد الحقيقة مجسده في وجودهم المقدّس ، وكان يتبيّن له أنهم بالفعل يعرفون الله حق المعرفة ، ويعشقونه بكل جوارجهم ، وأن كل ما كانوا يقولونه ويعملونه ، كان خالصاً لله وللحقيقة .

سنّتان من سنن الأئمة (ع) :

من بين السنن الكثيرة التي عرف بها أئمتنا (ع)، هناك سنّتان تتميزان بوضوح تام .

الأولى : هي العقيدة الصادقة ، والخوف الشديد من الله سبحانه ، ذلك الخوف الذي تظهر آثاره على الحواس والأعضاء ، بحيث كانوا يرتجفون عندما

---

(١) الإمام الصادق والواقع المعاش : ص ١٣٠ .

كـانوا يقفـون للصلاة بين يـدي مولاهم العـظيم ، وكانـوا يكثـرون من العبـادة ويجتهـدون فيها ، بحيث لا يستـطيـع الإنسـان العـادي أن يلحق بهم في هـذا المضمار ، ونقرأ هذه العبارة اللطيفة في حق موسى بن جعفر (ع) : « حليف السجدة الطويلة والدموع الغزيرة »[١] . لقد كانـوا يعبدون الله كـأنهم يرونـه : وكأنهم يشاهدون الآخرة في يوم تشخص فيه الأبصار .

والسنّـة الأخرى التي كـانوا يـولونهـا اهتمامـاً خاصّـاً هي مسألـة مواسـاة الضعفاء والمحرومين ، والتعاطف مع اليتامى والمساكين من أبنـاء المجتمع ، وبالأساس ، فـإن (الإنسان) عنـدهم له قيمـة عاليـة بما هـو إنسان ، وعنـدما نـطالع تـأريخ أي من أئمتنـا الأطهار (ع) فـإننـا نـلاحظ أن الفقـرة الأولى في برنامجهم اليومي ، هي تفقد أحوال الضعفاء والفقراء والعاجزين ، والمهم في الأمر أنهم كانوا يقومون بذلك بأنفسهم ، فلا يأمـرون أحداً أن ينـوب عنهم في هذا العمل ، وطبيعي أن النـاس كانـوا يرونهم يفعلون ذلـك ، ويدركـون أنهم مصادق للآية الكريمة : ﴿ وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين ﴾[٢] .

مـؤامرة فاشـلة لهارون الرشيد :

عندما كان الإمام موسى الكاظم (ع) في السجن ، فكر هارون وأعـوانه في خطة ماكرة ، الهدف منها إسقاط شخصية الإمام أمام الناس ، فـأرسلوا إليه جارية شابة حسناء ، وأمروها أن تقيم مع الإمام في سجنه بعنوان خادمة ، تقدم له الطعام ، وتلبّي طلباته . طبعاً ، كانوا يعـرفون تقـوى الإمام وورعـه ، ولكن تفكيرهم الشيطاني أوحى لهم بأنه لعل تلك الظروف الحـرجة التي كـان يعاني منها الإمام (ع) من الوحدة والحرمان ، تـدفعه إلى أن ينـزلق ويميل إلى هـذه المـرأة الحسناء المـاجنة ، وإذا قـاوم في البدايـة ، فلعلّه بمـرور الـزمن يفقـد مقـاومته ، فيـرتكب الفـاحشـة ـ والعيـاذ بـالله ـ وبـالتـالي يصلون إلى هـدفهم الخبيث ، ويعلنــون على المــلأ ، أن انــظروا إلى هــذا الــذي تجلّونـه ،

---

(١) راجع البحار : ج ٤٨ ص ١٠١ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٧ .

وتقدسونه ، وتمنحونه حبكم وولاءكم . . لقد فعل كذا وكذا ، وبالتالي فهو إنسان عادي لا يستحق كل هذا التقديس والولاء . ولكن . . ﴿ **ويمكرون ويمكر الله** ﴾[1]، فلقد رأت هذه الفتاة ـ التي لم يكن أحد من قبل يستطيع الصمود أمام إغرائها ـ أن الإمام بقي منشغلاً بعبادته وصلاته ، ولم يلتفت إليها ، وكلما حاولت إغراءه والتودّد إليه ـ كما أمروها ـ لم تجد أدنى استجابة .

ومع مرور الأيام بدأت أحوالها تتغيّر لما رأت من عظمة هذه الشخصية ونزاهتها، وبدل أن يؤثر إغراؤها في الإمام ، أثرت عبادته وخشوعه فيها ، ولما جاؤوا بعد فترة من الزمن ، ليروا نتيجة هذه الخطة ، ذهلوا وصعقوا للمنظر ، فقد رأوا تلك المرأة المتبرجة التي كانت ترتدي الملابس الفاضحة ، وقد تحجّبت ، وسترت بدنها ، وفرشت لها سجادة خلف الإمام ، وأخذت تصلّي وراءه بكل خشوع . ولما أحضروها بين يدي الخليفة لاحظ أن أحوالها قد انقلبت بصورة عجيبة ، فكانت تنظر أحياناً إلى السماء ، وأحياناً أخرى إلى الأرض بنظرات غريبة ، فسألها هارون : ما الذي جرى ؟ فقالت : عندما رأيت هذا الرجل وأحواله ، رجعت إلى نفسي ، فأدركت أني قد ارتكبت ذنوباً كثيرة في حياتي ، والآن لا أفكر إلّا أن أعيش حالة التوبة لعل الله تعالى يغفر لي ما سلف من خطاياي . وبقيت على هذا الحال إلى أن وافاها الأجل .

قصة بِشرْ الحافي والإمام الكاظم (ع) :

في أحد الأيام كان الإمام يسير في بعض طرقات بغداد ، فمرّ بمنزل تتصاعد منه أصوات الموسيقى ، والطبول ، والعربدة ، وكان أهله يرقصون ، ويدبكون ، ويصفقون ، وصادف أن خرجت خادمة من ذلك المنزل بيدها سلّة مهملات تريد أن تضعها خارجاً وترجع . فسألها الإمام (ع): صاحب هذا المنزل حرّ أم عبد ؟ فتعجبت الخادمة من هذا السؤال وقالت : ألا ترى من هيئة هذا المنزل الفخم أن صاحبه حرّ ؟ إنه منزل بِشرْ ، وهو أحد الأشراف والأعيان المشهورين هنا . فقال (ع) : بلى ، إنّه حرّ ، ولو كان عبداً لما

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٣٠.

ارتفعت هذه الأصوات الصاخبة الماجنة من بيته ، وتكلم الإمام (ع) معها مدة ثم تركها ومضى .

ولما رجعت سألها سيدها : لِمَ تأخرت كل هذه المدة ؟ فقالت : رجل تحدث معي في الخارج . فسألها : وماذا قال لك ؟ فقصت عليه القصة ، فسألها عن علامات الرجل فوصفته له ، فعرف أنه موسى بن جعفر (ع). فقال : وفي أيّ اتجاه ذهب ؟ فأشارت له بيدها ، فهرول إلى خارج المنزل ، ولم يعط لنفسه الفرصة أن يلبس حذاءه ، وظل يركض حافياً إلى أن أدرك الإمام ، فوقع على يديه يقبّلهما ، وقال : هل من توبة يا ابن رسول الله ؟ فقال : نعم ، إذا أقلعت عما أنت عليه الآن . فقال : أعاهد الله من الآن أن أكون عبداً له ، وصدق في قوله ، فطهر منذ ذلك اليوم بيته من الخمور ، والغناء ، والموسيقى ، والمجون ، وتفرّغ لعبادة ربه بقية حياته[1] .

وكانت أخبار مثل هذه القصص تصل إلى أسماع هارون ، فكان يحسّ بالخطر ، ولما كان يوجه التهم إلى الإمام في بعض محاوراته له ، كان الإمام يقول له : وماذا فعلت أنا ؟ أي إجراء مضاد اتخذته ، وأي تنظيم شكلته ، وأيّ ثورة قمت بها ضدّك ؟ فلم يكن هارون يحير جواباً ولكنه كان يقول بلسان الحال : « وجودك ذنب » أي أن وجوك لوحده خطر عليّ ، لأنك تبيّن الحقائق للناس ، ولا تتوانى في نشر فضائح النظام ، وبالتالي فإن عرش الخلافة يهتزّ من تحتي بسببك !! .

صفوان الجمال وهارون[2] :

كان صفوان الجمال يمتلك قافلة من الجمال ولوازم النقل ، يكريها

---

(١) الغناء في الإسلام : ص ٢٠٦ .

(٢) صفوان بن مهران الجمال ، أبو محمد الأسدي الكاهلي ، مولاهم ، كوفي ثقة ، كان يسكن (بني حزم) بـ(الكوفة) ، وأخواه حسين ومسكين . كان جمالاً ، وله كتاب يرويه جماعة . وقال في (الإرشاد) للشيخ المفيد رحمه الله ، أن صفوان الجمال من شيوخ أصحاب أبي عبد الله (ع). (معجم الرجال : ج ٣ ص ٢١٥) .

للناس لسفرهم ونقل أمتعتهم . وكان من عادة هارون الرشيد أن يكتري جمال هذا الرجل عندما ينوي هو وحاشيته السفر إلى مكة ، وفي أحد الأعوام أرسل أعوانه فوقعوا عقداً مع صفوان ، وحجزوا بذلك جماله هذا العام لسفر الخليفة . وقبل أن يأتوا لاستلام الجمال صادف أن تشرف صفوان بخدمة الإمام موسى الكاظم (ع) فأخبره بما صنع مع هارون . فقال له الإمام (ع) : لِمَ أكريت جمالك لهذا الرجل الظالم ؟ فقال صفوان : فعلت ذلك لأن سفره ليس سفر معصية ، وإنما ينوي السفر إلى مكة للحج هذا العام . فقال (ع): ألا تدعو الله في قرارة نفسك أن يطيل الله عمر هارون حتى يعود من سفره ، ويرد عليك جمالك ، ويعطيك أجرتك ؟ قال : بلى . قال : إذن أنت بهذا المقدار راضٍ ببقاء الظالم ، وهذا عند الله ذنب عظيم ! .

فذهب صفوان من فوره وباع جماله وكل وسائله ، ثم أخبر الطرف المقابل بأنه فسخ العقد من جانبه ، لأنه قرّر أن يترك هذا العمل نهائياً . فأمر الخليفة بإحضاره ، وسأله عن السبب فقال : لقد أصبحت شيخاً كبيراً . ولم يعد لي قدرة على مثل هذا العمل ، وأريد أن استريح بعض الوقت ، وحتى لو قررت أن أعمل فسوف أختار عملاً آخر أقل مشقة. فقال هارون : قل الحقيقة ، لماذا بعت جمالك ؟ قال : هو ما قلت للخليفة . قال : كلا ، فقد تناهى إليَّ أن موسى بن جعفر علم بأنك أكريت جمالك لي فقال لك : إن هذا العمل خلاف الشرع ، وقسماً بالله لو لم يكن لنا فيما سبق تعامل معك ، ومع آبائك ، لأمرت الساعة بضرب عنقك[1] ! .

الفضل بن الربيع مرة أخرى مع الإمام موسى الكاظم (ع) :

سبق أن ذكرنا قصة يحى البرمكي وزيارته للإمام في السجن ، ومحاولته استخلاص اعتراف ، أو اعتذار منه لصالح الخليفة ، وفشله الذريع في مهمته تلك . وقد حصلت قصة متشابهة للفضل بن الربيع ، نذكرها ـ أيضاً ـ لأنها بالإضافة إلى غيرها من القصص والحوادث ، كانت السبب في مؤامرة

---

(١) مجمع الرجال للفنهبائي : ج ٣ ص ٢١٥

هارون ، وجهازه الحاكم ، للتخلص من الإمام موسى الكاظم (ع) . .

أرسل هارون الرشيد أحد كبار أعوانه ، وهو الفضل بن الربيع ، وكان ضابطاً عالي الرتبة في الجهاز الحاكم ، (وقد ذكرنا أن الإمام كان سجيناً عنده فترة من الزمن) ، وأوصاه أن يتكلم مع موسى بن جعفر بلسان طيب ، وأن لا يذكر هارون أمامه بلقب (أمير المؤمنين) كما هي العادة ، ويقول له : إن ابن عمك يقرؤك السلام ، ويقول لك : معذرة فإن المصلحة هي التي أوجبت الإحتفاظ بك في مكان آمن قريباً منّا ، وعدم السماح لك بالذهاب إلى المدينة إلى أن يحين الوقت المناسب ، وإلّا فإن الخليفة يحبك ولا يريد لك إلّا الخير ، وهو يقرّ بأنك لم ترتكب ذنباً ، ولم تفعل منكراً ، وقد أمر بإرسال طباخ خاص لكي يهيء لك ما تشتهي من الأطعمة ، فلعل طعام السجن لا يروقك . . الخ .

فذهب الفضل وقد ارتدى ملابسه العسكرية الرسمية ، وربط حمائل سيفه ، ودخل السجن بهذه الهيئة المهيبة ، فوجد الإمام يصلي ، فانتظر هنيهة ريثما يتم الإمام صلاته ، ولكنه قبل أن يبدأ الكلام معه نهض (ع) وشرع في صلاة جديدة . فانتظر الفضل مرة أخرى ، ولكن الإمام ظل على هذا الحال ما إن يسلم حتى يقوم ويكبر لصلاة أخرى . . إلى أن فهم الفضل أن هذا الأمر مقصود وأن الإمام يتعمّد تجاهله ، ولا يريد أن يقيم لحضوره وزناً . ولكنه كان مأموراً ولا بدّ له من أداء مأموريته ، فتربّص للإمام ، وما إن بدأ التسليم في إحدى صلواته حتى شرع الفضل في الكلام ، وأخذ يبلّغ رسالة الخليفة والإمام يصغي إليه حتى وصل إلى مسألة الطباخ الخاص والغذاء وما أشبه ، عندها قال الإمام (ع) : « لا حاضرٌ لي مال فينفعني ، وما خُلِقتُ سؤلاً » . ثم نهض وقال (الله أكبر) وعاد إلى صلاته . فقام الفضل يجرجر أذيال الخيبة ورجع إلى هارون بخفي حنين !! .

إذن فمجموع هذه الحوادث والوقائع ، أدت إلى تخطيط النظام الحاكم للقضاء على حياة الإمام ، ويمكن تلخيص أسباب استشهاد الإمام موسى الكاظم (ع) بهذه النقاط :

أولاً : كان هارون يرى في وجود الإمام الكاظم منافساً قوياً له في مسألـة الخلافة ، ويحس بالخطر الشديد من ناحيته .

ثـانياً : التبليـغ الذي كـان يقوم بـه الإمام ضـد النظام ، وإصـراره على توضيح القضايا للناس ، وفضح مساوىء الحكام أمامهم ، كلما سنحت فـرصة لذلك ، منتهى الأمر أنه (ع) كان يمارس التقية في هذا العمل .

و(التقية) : كما سبق أن ذكرنا ، هي : العمـل لإسقاط الحـاكم الظالم مع المراعاة قدر الإمكان أن لا يقع بيد الخصم ـ مالك القوة والسلطة ـ أي سند أو دليل يكون ذريعة للقضاء على المجاهدين قبـل أن يؤدوا دورهم المرسـوم . ولا تعني (التقية) بأي حال ترك العمل الجهادي ، والنوم على فراش الأحـلام الحريري .

ثالثاً : روح المقاومة العظيمة ، والصمـود العجيب الذي كـان يتمتع بـه الإمـام ، ورفضه الإستجـابة والخضـوع لإرادة الخليفـة الجـائـر ، رغـم تلك العروض المغرية التي كان يلّوح بها له .

وهكـذا رأى هارون أنـه فشل بكـل محاولاتـه في التأثيـر على شخصيـة الإمـام ، والقضاء على الـروح الرسـالية فيـه ، ووجد فيـه خصمـاً لا يمكن أن يستسلم أو يلين أمامه . ولذلك فكـر بأن الحـل النهائي لهـذه المشكلة هو قتـل الإمام ، مع علمه اليقيني بأن هذا العمل يعدّ جريمة عظمى ، نتيجتهـا الحتميّة هي سخط الله ، وعقابه الشديد ، ولكن السيـاسة الـطاغوتيـة التي كان هـارون يصرّ على اتباعها ، فرضت عليه أنْ يسلك هذا الطريق للتخلص من حياة هـذا الخصم العنيـد مهما كـانت النتائـج ، لأن شهوة الملك لا تتـرك عند صـاحبها مجالاً للتفكير السليم .

كيفية استشهاد الإمام الكاظم (ع) :

ذكرنا أن آخر سجن أقام فيه الإمام (ع) هو سجن السندي بن شاهك ، وكان هذا الجلاد يتميز بأنه ينفذ كل ما يؤمر بـه بشدة بـالغة ، وقسـاوة عجيبة ، فقام بوضع الإمام في زنزانة في سـرداب مظلم ، وقيّـده بالسـلاسل الحـديديـة

الثقيلة ، وبدأ التخطيط لمحاولة الإغتيال ، وبدأت بالتزامن معها جهود إعلامية من أجل إقناع الناس بأن الإمام فارق الدنيا مع انتهاء أجله الطبيعي .

وقد ذكرنا أن يحيى البرمكي ، من أجل أن يتوصل إلى حفظ مكانة أولاده في نظر هارون ، فقد أخذ على عاتقه أمام الخليفة ، أن يقوم بنفسه بتنفيذ كل ما يأمره به . ففوض إليه هارون تدبير الأمر ، فذهب يحيى إلى السندي بن شاهك ، وأعطاه سمّاً فتاكاً كان قد هيّأه ، وأمره أن يدسه في طعام الإمام ، وأعطاه بقية التوجيهات والتعليمات اللازمة . فقام هذا الشقي بتعبئة هذا السمّ في حبات التمر بشكل خاص ، وقدّمه فأكل منه الإمام[1] .

وقام السندي على الفور باستدعاء العلماء ، والقضاة ، وعدول المؤمنين ، وكل من هم مورد ثقة عند الناس ، وجمعهم في مكان ، ثم أخرج الإمام إليهم وقال : أيها الناس ، انظروا إلى الشيعة كيف يروّجون الإشاعات بأننا نعامل الإمام معاملة سيئة في السجن ، ونعرضه لمختلف أنواع التعذيب . وهذا موسى بن جعفر أمامكم سالم تماماً ولم يحدث له أي مكروه[2] .

وما إن أتّم كلامه حتى قال الإمام (ع) أمام الجميع : إنه كذاب ، فأنا الآن مسموم ، ولم يبق من عمري سوى يومين أو ثلاثة . فأفشل الإمام بهذا الكلام خطتهم ، ولكنهم استمروا في مكرهم ، فحملوا جنازة الإمام ، ووضعوها بجانب جسر بغداد ، وكشفوا التابوت لكي يشاهد المارّة جثمان الإمام ، وأنه لا يوجد عضو من أعضائه مقطوع أو مكسور ، وأن رقبته ليست مزرقة أو مسودة (علامة عدم الخنق أو الشنق) ، إذن فموسى بن جعفر لم يقتل ، وإنما مات موتاً طبيعياً !! وبقيت الجنازة هكذا مدّة ثلاثة أيام قبل أن يدفن الجثمان الشريف[3] .

وتذكر في المجال هذه القصة المؤلمة . فقد كان بضعة نفر من شيعة

---

(١) البحار : ج ٤٨ ص ٢٢٣ .

(٢) البحار : ج ٤٨ ص ٢٢٦ .

(٣) البحار : ج ٤٨ ص ٢٣٤ .

الإمام موسى الكاظم (ع)، قد قدموا من إيران على بعد المسافة ، ومشقة السفر على الدواب ، وقد عانوا الصعوبات الكثيرة من أجل أن يحققوا أمنيتهم في ملاقاة الإمام (ع) ولو في سجنه . ولكنهم لم يسمحوا لهم بذلك ، فمكثوا عدة أيام يكرّرون الرجاء والتوسّل ، إلى أن وافقوا أخيراً على طلبهم وقالوا لهم : حسناً ، اليوم نرتّب لكم الأمور لزيارة إمامكم ، فانتظروا هنا . وفعلاً انتظر هؤلاء المساكين ، واثقين بأنهم سوف يتشرفون برؤية إمامهم ، ثم يرجعون بعد ذلك إلى بلادهم ، ويخبرون أهليهم بأنهم وفقوا لزيارة الإمام (ع) وسألوه المسائل الفلانية وأجابهم بكذا وكذا ، وظلوا على هذا الحال من الإنتظار والتمني . وإذا بأربعة من الحمّالين يمرّون بهم وقد حملوا جنازة على أكتافهم ، وعند ذلك قال لهم مأمور السجن : هذا هو إمامكم فدونكم إيّاه !![1].



(١) المصدر نفسه .

الفصل السادس
ولاية عهد الامام الرضا (ع)

القســم الأول :

بحثنـا في هذا الفصـل بحث تاريخي يـرتبط بمسألـة فرعيـة من مسـائـل الإمامة ، والخلافة ، وهي ما يدعى اصطلاحاً بـ (ولايـة العهد) حيث أحضـر المأمون الإمام الرضا (ع) من المدينة إلى « مرو » (خراسان القديمة) ونصبه وليّاً لعهده .

ولم يكن للفظة (وليّ العهد) وجود في صدر الإسلام . كما أنه لم يكن لموضوعها أيضاً وجود . ولقد ظهرت هذه المسألة أول ما ظهرت ، في زمـان معاوية حيث نصّب ابنه يزيـد خليفة من بعـده ، وأخذ لـه البيعة من النـاس في حياته ، ولكن لم يطلق على يزيد آنذاك لقب وليّ العهد . إلاّ أننا نجـد أن هذا اللقب قـد استخـدم بكثـرة في العهـود التـاليـة وخصـوصـاً في زمـان الإمـام الرضا (ع) .

وهنا أيضاً تعرض لبعض الناس شبهـة ، نظيـر ما عـرضت لهم في قضية صلح الإمام الحسن (ع) على الرغم من أن صلح الإمام الحسن (ع) وولاية عهـد الإمـام الـرضـا (ع) يبـدوان عملين متضـادين . . . ذلـك أن الإمام الحسن (ع) (سلّم) الأمـر إلى خصمـه واعتـزل ، بينمـا (استلم) الإمـام الـرضا (ع) أمـراً من خصمه . ورأي أصحاب مثل هـذه الشبهـات أن هنـاك

قاسماً مشتركاً بين الحادثتين ، وهو المداهنة مع السلطات الحاكمة الظالمة ، فالإمام الحسن (ع) سلّم الخلافة لشخص لا يستحقها من الناحية الشرعية . والإمام الرضا (ع) استلم ولاية العهد من شخص لا يملك الصلاحية الشرعية لإعطاء مثل هذا المنصب .

فكما اعترضوا على الإمام الحسن (ع) بأنه كان ينبغي أن يقاتل بدل أن يصالح ، ولو انجرّ الأمر إلى استشهاده . كذلك هنا يستشكلون على الإمام الرضا (ع) قبوله لولاية العهد من طرف المأمون ، وأنه كان أجدر به أن يرضى بالقتل والشهادة ، ولا يرضخ لتهديد هذا الخليفة الظالم .

ونحن نحاول الآن أن نبحث مسألة ولاية عهد الإمام الرضا (ع) ـ هذه ـ التي تعتبر مسألة تأريخية هامّة ، لكي تتضح أبعادها ، وتزول الشبهات من حولها ، بعد أن كنّا قد بحثنا سابقاً مسألة صلح الإمام الحسن (ع)، وأزلنا ما كان يحيط بها من شبهات واستشكالات .

وفي البداية ينبغي أنْ ندرس هذه الحادثة من خلال الظروف التأريخية التي أحاطت بها ، ثم بعد ذلك نتطرّق إلى بحث الأسباب التي أدت إلى قبول الإمام الرضا (ع) لولاية عهد المأمون وكيفية قبوله لهذا الأمر ، وغير ذلك من المسائل . . .

سلوك العباسيين تجاه العلويين :

ورث المأمون الخلافة العباسية ، وكان على رأس برنامج العباسيين ، ومنذ اليوم الأول لاستلامهم زمام الحكم ، محاربة العلويين ، ومطاردتهم أينما كانوا ، والإمعان في قتلهم والتنكيل بهم ، ولا يقل حجم الجنايات التي ارتكبها بنو العباس في حق العلويين بسبب النزاع على مسألة الخلافة ، عن حجم جنايات الأمويين ، إنْ لم يزد أضعافاً ، غاية الأمر أنَّ الأمويين قد تلطخت أيديهم بدماء الإمام الحسين (ع) في فاجعة كربلاء ، وإلّا فبغض النظر عن مسألة قتل سيد الشهداء (ع) فإن جرائم العباسيين أكثر بكثير من جرائم الأمويين .

وقد كان المنصور ، وهو ثاني الخلفاء العباسيين ، شديد الوطأة على آل أبي طالب ، وخصوصاً مع أولاد الإمام الحسن (ع)، والذين كان قد أعطاهم البيعة في وقت سابق ، وارتكب في حقهم أنواع الفظائع التي تقشعرّ منها الأبدان . وكان يضع العلويين من ذرية رسول الله (ص) في سجون مظلمة تحت الأرض ، ويمنع عنهم الطعام والشراب . ولا يسمح لهم بالخروج حتى للتخلّي ، ويظلّون على هذا الحال مدّة طويلة من الزمن ، فإمّا أن يموتوا صبراً ، وإما أن يأمر بهدم سقف السجن فوق رؤوسهم ليدفنوا أحياءً[1] .

وسار الخلفاء الذين تلوا المنصور على سياسته نفسها .

وفي زمان المأمون قام خمسة ، أو ستة من العلويين بثورات مضادّة ، وفي زمان أبيه هارون أيضاً ، حدثت عدةّ ثورات علوية (وذلك كما يذكر المسعودي في « مروج الذهب »[2] وابن الأثير في « الكامل »[3] وكانت هذه الثورات تقمع بكل قسوة وعنف .

إذن فالعداوة بين العباسيين والعلويين ليست مسألة بسيطة ، خصوصاً وأن العباسيين لم يكونوا يرحمون أحداً في سبيل وصولهم إلى كرسي الخلافة ، حتى لو كان المنافس عباسيّاً مثلهم ، أو من اتباعهم وأنصارهم ، فقد قتلوا أبا مسلم الخراساني[4] مع عظم الخدمات التي أدّاها لهم ، وقام هارون بتصفية البرامكة جميعهم[5]، رغم التعاون ، والمحبة ، والعشرة الطويلة التي كانت بينهم وبين الخليفة ، وكان ذلك لسبب سياسي تافه ،

---

(١) كان أبو جعفر المنصور قد طلب محمداً وإبراهيم ، إبني الحسن ، فلم يقدر عليهما ، فحبس عبدالله بن الحسن وإخوته ، وجماعة من أهل بيته بـ (المدينة) ، ثم أحضرهم إلى (الكوفة)، فحبسهم بها. فلما ظهر محمد ، قتل عدة منهم في الحبس . . . (مقاتل الطالبيين : ص ١٧٨) .

(٢) مروج الذهب : ج ٤ ص ٣٢٢ .

(٣) الكامل لابن الأثير : ج ٦ ص ١١٢ .

(٤) مروج الذهب : ج ٤ ص ١٤١ .

(٥) مروج الذهب : ج ٤ ص ٣٣٣.

واصطدام المأمون مع أخيه الأمين ، وجرت بينهما حروب عنيفة ، وبعد أن انتصر عليه ، قتله ، ومثّل به بشكل فظيع !

وفي ظل مثل تلك الظروف والأحداث الداعية ، حدثت واحدة من عجائب التأريخ ، وهي أن يأمر مثل هذا الخليفة ـ القاتل المتعطش للحكم ـ بإحضار الإمام الرضا (ع) من المدينة ، ثم يعرض عليه قبول الخلافة[1] لكي يعتزل هو جانباً ، وبعد أن يرفض الإمام هذا العرض ، يطلب منه أن يقبل على الأقل بولاية العهد ، ويصرّ على طلبه هذا حتى يصل إلى درجة التهديد بالقتل . فماذا كان حافزه من وراء هذا العرض ، وماذا كانت حقيقة الأمر ؟

إن دراسة وتحليل هذه القضية من الناحية التأريخية ليس أمراً سهلاً . ولجرجي زيدان في الجزء الرابع من « تاريخ التمدن »[2] بحث في هذه القضية ، وله رأي خاصّ فيها سنذكره لاحقاً ، ولكنه يؤكد على جانب معين، وهو أن بني العباس اتبعوا أسلوب الكتمان الشديد في سياستهم ، حتى عن أقرب المقربين إليهم ، ولهذا بقيت أسرار سياستهم مجهولة . مثلاً إلى الآن لم تتضح الأسباب التي كانت وراء إسناد ولاية العهد إلى الإمام الرضا (ع)، ومن الذي كان وراء هذه القضية .

مسألة ولاية عهد الإمام الرضا (ع) والنقل التأريخي :

ولكن الأسرار لا تبقى مخفية تماماً كما يريد لها أصحابها ، فقد توضحت لنا ـ نحن الشيعة ـ الكثر من أسرار وجوانب هذه القضية ، وذلك من زاوية النقل التأريخي الذي وصل إلينا عن طريق علماء الشيعة (وليس من زاوية الحديث المروي عن الأئمة (ع))، ومثل ما هو وارد في كتاب « الإرشاد »[3] للشيخ المفيد ، وكتاب « عيون أخبار الرضا »[4] للشيخ

(١) عيون أخبار الرضا (ع) : ج ٢ ص ١٣٩ .
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي : ج ٢ ص ٤٣٩ . ط . دار مكتبة الحياة .
(٣) الإرشاد للشيخ المفيد : ص ٣١٠ . ط . الأعلمي .
(٤) عيون أخبار الرضا (ع)، للشيخ الصدوق : ج ٢ ص ١٣٩ ـ ط . الحيدرية النجف .

الصدوق الذي يحتوي على معلومات كثيرة فيما يتعلق بولاية عهد الإمام الرضا (ع) .

وبالإضافة إلى هذه التواريخ الشيعية ، فقد استندت أيضاً في بحثي هذا على بعض المراجع التأريخية السنّية ، مثل كتاب « مقاتل الطالبيين »[1] لأبي الفرج الأصفهاني الذي هو من أكابر مؤرخي العهد الإسلامي ، وكما ذكرنا سابقاً فهو سنّي من نسل بني أميّة ولقب بالاصفهاني لأنه كان يقيم في (إصفهان) . وهذا الرجل ليس شيعياً كي يقال أنه ألّف كتابه على أساس الميول الشيعية ، وأيضاً فهو ليس إنساناً تقياً إلى الدرجة التي تجعلنا نقول إنه وقع تحت تأثير الحق والحقيقة في كتاباته . فهو صاحب كتاب « الأغاني » الذي هو بالأساس بحث في تأريخ الغناء والموسيقى في العالم الإسلامي . ولكنه من خلال هذه البحوث البعيدة عن روح الدين . كان يذكر الكثر من الأحداث والحقائق التأريخية الهامة في كتابه الذي يبلغ حوالي ثمانية عشر مجلداً[2] .

ويقال : إن الصاحب بن عبّاد العالم الشيعي المعاصر له ، كان من عادته أن يصطحب معه في سفره رزمة أو عدة رزم من الكتب ، وعندما وصل كتاب أبي الفرج هذا بيده قال : لقد استغنيت به بعد الآن عن كل تلك الأحمال من الكتب ![3] .

وهذا الكتاب بالرغم من أن مؤلّفه (أبو الفرج) ! وموضوعه تأريخ الموسيقى والموسيقيين ! إلاّ أن كبار محدّثي الشيعة من قبيل المرحوم المجلسي[4] والمرحوم الشيخ عباس القمي[5] ، طالما نقلوا الأخبار والوقائع التأريخية منه .

---

(١) مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصبهاني : ص ٥٦٣ ـ ط . دار المعرفة .

(٢) راجع مقدمة كتاب (الأغاني) : ج ١ ص ١٨ ـ ط . دار الكتب المصرية .

(٣) مقدمة (الأغاني) : ج ١ ص ٣٢ .

(٤) المجلسي : صاحب (بحار الأنوار) وهو غني عن التعريف .

(٥) سبقت ترجمته .

ولأبي الفرج كتاب آخر هو « مقاتل الطالبيين » ويعد من الكتب المعتبرة في التأريخ الإسلامي ، حيث يجمع فيه المؤلف أخبار ثورات العلويين واستشهادهم ، ومقتل أولاد أبي طالب سواء من العلويين وهم الأغلبية ، أو من غير العلويين . وفي هذا الكتاب عشر صفحات خصّصت للإمام الرضا (ع) وقصة ولاية العهد[1]. والملاحظ أنّ هذا الكتاب ينطبق كثيراً مع تواريخ الشيعة ، وعلى اوخص مع ما ورد في (إرشاد) المفيد ، وكأنما كانت مصادر نقل الكتابين واحدة .

والآن ندخل في بحث الحوافز التي دفعت المأمون إلى طرح مسألة ولاية العهد بالنسبة للإمام الرضا (ع) . . هل فكّر المأمون حقاً في أن يستلم الإمام الرضا (ع) زمام الأمور من بعده ، إن مات أو قتل ، أي أن تنتقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي ؟

وإذا كانت عنده فكرة كهذه ، فهل بقي على فكرته حتى النهاية ، حيث لا ينبغي في هذه الحالة أن نقبل مقولة أن المأمون قام بدسّ السمّ للإمام الرضا (ع)، بل نؤيد قول الذين يعتقدون أن الإمام الرضا (ع) انتقل عن دار الدنيا بالوفاة الطبيعية ؟

من زاوية نظر علماء الشيعة ، فإن وجود حسن النيّة عند المأمون واستمرارها للنهاية أمر غير مقبول ، بينما يعتقد كثير من الغربيّين أنّ المأمون كان شيعياً في الواقع ، وكان يعتقد حقاً بآل علي ، ويحبهم بإخلاص .

المأمون والتشيع :

يعتبر المأمون أكثر الخلفاء (الزمنيين)، وربما أكثر سلاطين العالم علماً وثقافة ، وكان يحب العلم ، ويعشق المباحثات العلمية . ولا يوجد تردّد في أن المأمون كان لديه ميل روحي وفكري باتجاه التشيّع ، لأنه لم يكن يتحدث عن التشيّع في الجلسات التي كان يشترك فيها الإمام الرضا (ع) والشخصيات

---

(١) مقاتل الطالبيين : ص ٥٦٣ .

الشيعية فقط ، بل كان يفعل ذلك في الجلسات الخاصة مع علماء السنّة .

ينقل ابن عبد البرّ[1] ـ وهو أحد علماء السنّة المشهورين ـ هذه القصة المذكورة في كتب الشيعة ، وهي أن المأمون دعا في يوم من الأيام أربعين من أكابر علماء السنّة في بغداد ، وأمرهم بالحضور إلى مجلسه في الصباح الباكر من اليوم التالي ، ولما حضروا أخبرهم بأنّه يريد أن يباحثهم في ما يتعلّق بمسألة الخلافة .

وينقل محمد تقي شريعتي في كتابه « الخلافة والولاية » جانباً مما دار في تلك الجلسة .

وكان المأمون في المباحثة والإستدلال من القوة والتسلط ، بحيث استطاع أنْ يحجّهم جميعاً ، وينتصر عليهم . وقد مضت في فصل سابق قصة المأمون التي يروي فيها بنفسه كيف تعلّم التشيّع من أبيه هارون ، لما رأى من تصرفه وكلامه مع الإمام موسى الكاظم (ع)، حيث ينقل هذه القصة المرحوم الشيخ عباس القمي في كتاب « منتهى الآمال »[2] بالإضافة إلى روايات الشيعة في كتبهم الأخرى .

إذن فلا يوجد شك في وجود ميل إلى مذهب التشيع عند المأمون، غاية ما في الأمر أنه كان كما يقال عنه « شيعي قاتل للأئمة (ع) » . وهذه المسألة ليست غريبة ، فأهل الكوفة أيضاً كان عندهم ميل للإمام الحسين ، وعقيدة في التشيع لأهل البيت (ع)، ومع ذلك قتلوا سيد الشهداء (ع).

كذلك لا يوجد شك في أن المأمون كان رجلاً عالماً ، ومحبّاً للمسائل العلمية . ولهذا يعتقد كثير من الغربيّين أن المأمون سلّم ولاية العهد للإمام الرضا عن عقيدة وحسن نيّة ، ولكنّ حوادث الزمان منعت من تحقيق هدف

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ترجمة المأمون) .

(٢) منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل : كتاب بالفارسية للشيخ عباس القمي طيب الله ثراه ، وتقوم الدار الإسلامية في بيروت بإخراجه الآن بحلة جديدة وباللغة العربية في ١١/٦/١٩٩٢ م .

المأمون ، لأن الإمام الرضا فارق الدنيا بأجله الطبيعي وانتفى بذلك هذا الموضوع !.

ولكنّ هذه المسألة لا تبدو صحيحة من وجهة نظر علماء الشيعة ، ذلك أن الدلائل والقرائن قائمة على خلافها . ولو كان هذا الأمر قد تم حقّاً في جوّ من الإخلاص والجدّية ، لما كان موقف الإمام الرضا (ع) سلبياً تجاه قبول ولاية العهد هذه فهو (ع) لم يتلقّ هذه المسألة بصورة جدية أبداً .

رأي الشيخ المفيد[1] والشيخ الصدوق[2] :

والفرض الآخر - والذي لا يبدو بعيداً جداً ، لأن أمثال الشيخ المفيد والشيخ الصدوق قبلوه وتبنّوه - هو أن المأمون كان مخلصاً في البداية تجاه الإمام الرضا (ع)، ولكنه ندم فيما بعد ، وغيّر نواياه . فينقل هذا الشيخان (وهو نفس ما ينقله أبو الفرج الأصفهاني) ما مفاده أن المأمون كان يتحدث مع شخص فقال : عندما كان أخي الأمين خليفة ، أمر بإحضاري (كان هارون قد وضع قسماً من المملكة تحت تصرف المأمون بعنوان ولي العهد لأخيه الأمين) فلم أمتثل لأمره . فأرسل جيشاً لمحاربتي والقبض عليّ وإحضاري مقيّداً .

(١) الشيخ المفيد : هو محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام البغدادي (ت ٤١٣ هـ) فضله أشهر من أن يوصف في الفقه ، والكلام ، والرواية ، والثقة ، والعلم ، له كتب كثيرة منها (الإرشاد) و(المقنعة) . انتهت إليه رئاسة الإمامية في وقته ، كان مقدماً في العلم ، وصناعة الكلام، وكان فقيهاً متقدماً فيه ، حسن الخاطر ، دقيق الفطنة ، حاضر الجواب وكان يوم وفاته عظيماً . لم يُرَ أعظم منه ، من كثرة الناس للصلاة عليه ، وكثرة البكاء من المخالف . وقد ذكره المترجمون بأنه حديد الخاطر ، جم الفضائل ، غزير العلم . (سنن النبي (ص): ص ٢٥).

(٢) الشيخ الصدوق : هو أبو جعفر ، محمد بن علي ، بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ)، نزيل الري ، شيخنا وفقيهنا ، ووجه الطائفة بـ (خراسان) ، وورد في بغداد سنة (٣٥٥ هـ) ، وسمع منه شيوخ الطائفة، وهو حدث السن ، كان ثقة، جليل القدر، بصيراً بالفقه والأخبار، والرجال، ناقداً للآثار، حفظة ، له مصنفات كثيرة. (سنن النبي (ص): ص ١٨).

ومن ناحية أخرى قامت عدّة ثورات في نواحي خراسان ، فأرسلت جيشاً لقمعها ، ولكن هذا الجيش مُني بالهزيمة ، وتتابعت عليّ الهزائم إلى أن رأيت أنّ الروح المعنوية لقادة جيشي قد ضعفت كثيراً ، فأصبح مصيري واضحاً ، لأنّي فقدت قدرة المقاومة أمام أخي ، وأوشك جيشه أن يقبض عليَّ ويرسلني إليه مكتوف اليدين حيث يُنكل بي أخي أشد التنكيل . فنويت أن ألجأ إلى الله سبحانه ، وأن أتوب إليه من ذنوبي .

ثم أشار لمحدثه إلى غرفة وقال : وفي هذا المكان أمرت أن يحضروا لي ماءً ، فاغتسلت وتطهرت ، ثم لبست ملابساً بيضاء طاهرة ، وجلست هناك أقرأ كل ما كنت أحفظه من القرآن ، وصليت أربع ركعات ، ثم نذرت لله على نفسي نذراً بأنه إذا حفظني ، ونصرني على أخي ، فسوف أقوم بتسليم الخلافة إلى أصحابها الشرعيين . وبعد ذلك بدأت الأمور تتغير لصالحي ، فلم أُمْنَ بعدها بأية هزيمة . وأرسلت قوّات إلى جبهة (سيستان) فكان النصر حليفها ، ثم أرسلت طاهر بن الحسين لقتال أخي ، فانتصر على جيشه ، وظلت الإنتصارات تتوالى إلى أن استتب الأمر لي بصورة كاملة . والآن بعد أن استجاب الله دعائي ، وحقّق رجائي ، فإني أريد أن أفي بنذري وأسلم الخلافة إلى علي بن موسى فهو صاحبها الشرعي[1] .

الإحتمال الآخر :

وهناك احتما آخر لأصل القضية ، وهو أن المأمون أساساً لم يكن له اختيار في هذه المسألة ، بل كانت من ابتكار الفضل بن سهل ذي الرياستين[2]، وزير المأمون، حيث جاء يوماً وقال للمأمون : إن آباءك قد

---

(١) الإرشاد : ص ٣١١ ـ البحار : ج ٤٩ ص ١٣٧ .

(٢) كان المأمون وزير باسم الفضل بن سهل ، وكان له أخ أيضاً في جهاز الحكم اسمه الحسن بن سهل . وكان هذان الأخوان مجوسيين ومن أصل إيراني خالص . وكان الفضل شخصاً ذكياً ومثقفاً ، وكان له اطلاع في علم النجوم ، فجاء في عهد البرامكة ، وكانوا يشكلون الجهاز الحاكم في عهد هارون ـ وأسلم على يديهم هو وأخوه (البعض قالوا : إن أباهم كان قد أسلم =

أساؤوا التصرف مع آل علي ، وارتكبوا الجرائم الكثيرة ضدهم ، فعليك الآن أن تختار أفضل آل علي ، وهو اليوم علي بن موسى ، وتسلم إليه ولاية العهد . فاضطر المأمون مكرهاً إلى النزول عند رغبة وزيره الذي يمتلك السلطات الحقيقية بيده[1].

وفي هذه الحالة يبرز سؤال وهو : لماذا طرح الفضل هذه المسألة ؟ وهل كان شيعياً معتقداً بالإمام الرضا (ع)؟ أم إنه بقي على عقيدته المجوسية السابقة ، وأراد بهذه الطريقة أن يسحب الخلافة مؤقتاً من العباسيين ؟ أو إنه كان يريد في الواقع أن يتلاعب بأساس الخلافة الإسلامية ؟

وعلى هذا الفرض لو كان قدّر لخطة الفضل أن تنجح ، لكان خطرها على الإسلام أشدّ من خطر خلافة المأمون ، لأن الأخير مهما يكن من أمر فهو خليفة مسلم ، ولكن الفضل بن سهل وجماعته ربما كانوا يريدون أن يقتطعوا إيران من دنيا الإسلام ليعيدوها إلى عهد المجوسية[2].

رأي جرجي زيدان :

جرجي زيادن من الذين يعتقدون أن هذه المسألة كانت من ابتكار الفضل بن سهل ، وأنه كان شيعياً مؤيداً للإمام الرضا (ع)[3] . ولكن هذا

= من قبل ، ولكن البعض الآخر نفوا ذلك) . ثم أخذ الفضل بن سهل يترقّى شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح وزير المأمون (كان الوزير آنذاك يعادل رئيس الوزراء في هذا الزمان) ثم استلم منصباً هاماً آخر وهو القيادة العامة للجيش ، ولذلك سمي بـ (ذي الرياستين) . وكان معظم جيش المأمون من الإيرانيين . فكانت حرب الأمين والمأمون من ناحية حرباً بين العرب والإيرانيين ، وكان المأمون من طرف الأم إيرانياً ، فيذكر المسعودي في « مروج الذهب » وفي « التنبيه والإشراف » ـ كما يذكر غيره أيضاً ـ أن أم المأمون كانت امرأة « قيسية » . على أيّ حال وصل الأمر بالفضل بن سهل إلى أن يتسلط على كل أمور الدولة ، ويحول المأمون إلى مجرد آلة بيده .

(١) مروج الذهب : ج ٤ ص ٢٩٩ . تاريخ التمدن الإسلامي : ج ٢ ص ٤٣٩ .

(٢) راجع البحار : ج ٤٩ ص ١٤٢ .

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي : ج ٢ ص ٤٣٩ .

الرأي لا يتفق [illegible] . ولو كان الفضل مخلصاً حقاً ، وكان يريد للتشيع أن ينتصر ويحكم ، لم يكن رد فعل الإمام الرضا (ع) بتلك الصورة السلبية ، بل إن كثيراً من الروايات والتواريخ الشيعية تؤكد أن الإمام الرضا كان يخالف الفضل بن سهل بأشد مما كان يخالف المأمون نفسه ، وكان (ع) يعتبره خطراً كبيراً على الإسلام ، وقد حذّر المأمون منه ومن أخيه ، كما تؤكد هذه التواريخ أن الفضل بن سهل كان كثير السعاية ضد الإمام الرضا (ع).

الإحتمال الثالث :

وهو أن المسألة كانت من ابتكار المأمون ، ولكن لا على أساس العقيدة ، وخلوص النية ، بل لأسباب سياسية بحتة نذكرها فيما يلي :

أ ـ لفت نظر الإيرانيين : وذلك أن الإيرانيين عموماً ، كانت لهم ميول باتجاه التشيع وموالاة أهل بيت علي (ع)، وكانت ثوراتهم ضد الأمويين منذ البداية تحت شعار « الرضا من آل محمد » . ولهذا فإنّ المأمون هو الذي أعطى لقب « الرضا » لعلي بن موسى (ع) بعد أن نصبه لولاية العهد ، وكان يقصد بذلك إحياء ذكرى حبيبة عند الإيرانيين الذين كانوا يقاتلون قبل حوالي تسعين عاماً تحت راية (الرضا من آل محمد) ، وبذلك يلفت انتباههم ويكسبهم إلى جانبه أولاً ، ثم بعد ذلك يقوم بإزاحة الإمام الرضا (ع) من طريقه ، أن ينتظر عامل الزمن ليسوي هذه المسألة ، فقد كان الإمام يكبره بحوالي عشرين عاماً ، فربما كان المأمون يقول في نفسه : إنّ ولاية العهد لهذا الرجل لا تشكل خطراً عليّ ، ولا شكّ أنه سوف يموت قبلي .

ب ـ إخماد ثورات العلويين : يذكر البعض علّة أخرى لهذه السياسة ، وهي أن المأمون قد رأى أن العلويين أصبحوا يشكّلون خطراً جدّياً ضدّ نظام حكمه ، لأنّ ثوراتهم كثرت واشتد نشاطهم في عهده . ولهذا فإن دافع المأمون في إسناد ولاية العهد إلى الإمام الرضا (ع) هو محاولة إرضاء للعلويين وتهدئتهم ، وسحب مبررات الثورة والتمرّد من أيديهم . وتأييداً لهذه النظرية فإنّه قام فعلاً بإصدار العفو العام عن جميع العلويين ، ومن جملتهم

(زيد النار)[1] أخو الإمام الرضا (ع)، رغم أنهم ارتكبوا في نظره جرائم لا تغتفر .

ج ـ تجريد الإمام الرضا (ع) من سلاحه : وهذا المعنى وارد في رواياتنا ، ذلك أن الإمام الرضا (ع) قال يوماً للمأمون ما مضمونه : هذا هو هدفك ، فأنت تريد بذلك أن تفسد عليّ أمري . وهذا شيء طبيعي فإن النظام الحاكم عندما يرى معارضاً خطراً له ، فإن إحدى الطرق لتجريده من سلاحه هو إعطاؤه منصباً في هذا النظام . وكان المأمون يهدف ـ أيضاً ـ إلى تشويه سمعة الإمام الرضا (ع) أمام أولئك الذين يعتقدون أن الخلافة حق لآل علي (ع)، وأنهم إذا استلموا الخلافة فإن الدنيا سوف تصبح جنة ، وتسود العدالة في العالم . فعندما يقوم بهذه الخطة (تسليم سلطة صورية للإمام) فإن الناس سوف يشعرون بخيبة الأمل عندما يرون أن الأوضاع لم تتغير ، ولم تتحسن . وأكثر من ذلك يستطيع أن يتهم آل علي بأنهم عندما يكونون خارج السلطة ، فإنهم يتكلمون عن الحق والعدل وما أشبه ذلك . ولكنهم عندما يصلون إلى السلطة فإنهم يرضون بالواقع الفاسد وينسون كلامهم السابق[2] .

والواقع أن الباحث ، يصعب عليه من الناحية التأريخية أن يصل إلى نتيجة قاطعة بالنسبة إلى المأمون في هذه المسألة . . هل كانت من ابتكاره ؟

أم من ابتكار الفضل بن سهل ؟

وإذا كانت من ابتكار المأمون ، فهل كان عنده حسن نيّة أم لا ؟

وإذا كانت نيته حسنة فهل استمر عليها إلى النهاية أم رجع عنها ؟

وإذا لم يكن عنده إخلاص وحسن نيّة ، فماذا كانت أهدافه السياسية ؟

---

(١) زيد النار : وحرق زيد بن موسى دور بني العباس بـ(البصرة) فلقب بذلك ، وسمي زيد النار (مقاتل الطالبيين : ص ٥٣٤).

(٢) قال الرضا (ع) للمأمون : تريد بتوليتي للعهد « أن يقول الناس : إن علي بن موسى لم يزهد في الدنيا ، بل زهدت الدنيا فيه ، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة ! » (البحار . ج ٤٩ ص ١٢٩) .

كل تلك الأمور تعتريها الشبهات من الوجهة التأريخية . طبعاً معظيم الآراء المطروحة لها أدلة ولكنها ليست قطعيّة . وربما تكون عقيدة الشيخ الصدوق وأمثاله صحيحة لأنها تتلاءم مع منطق الطبيعة البشرية . حيث أن كل إنسان عندما يمرّ بكرب عظيم ، وييأس من كل شيء في الحياة ، فإنه يلجأ إلى الله سبحانه ، ويتخذ قرار التوبة والرجوع عن الغيّ . ولكنه عندما يجد الخلاص والنجاة فإنه ينسى قرارة وعهده مع الله . والقرآن يقرر هذا المعنى فيقول : ﴿ **فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين * فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون** ﴾[1]. فالمأمون مرّ بهذه التجربة ، وصلحت سريرته في بداية الأمر ، ولكنه بعد أن تخلّص من مشاكله نسي ما عاهد الله عليه ، ورجع إلى طريقته المنحرفة .

وإني أرى من الأفضل أن نبحث هذه المسألة من وجهة الإمام الرضا (ع)، ونضع نصب أعيننا المسلّمات التأريخية الثابتة ، لأنه بذلك ـ حسب رأيي ـ تُحلّ كثير من المسائل المربوطة بالمأمون أيضاً .

مسلّمات تأريخية :

١ ـ إحضار الإمام من المدينة إلى (مرو) : وقد تمّ هذا الأمر من دون التشاور المسبق ولا بأخذ موافقة الإمام (ع) على ذلك . فلم يسجل أحد أنه حصلت مفاوضات ، أو مكاتبات مع الإمام الرضا (ع)ـ عندما كان في المدينة ـ حول أسباب دعوة المأمون له . ولم يأمر المأمون بإحضار الإمام وحده ، بل ومعه عدد كبير من آل أبي طالب أيضاً[2] .

وبالإضافة إلى ذلك فقد حدّد لرجاله مسيراً خاصاً بحيث لا يصادف مرور

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٦٥ .

(٢) قال أبو الفرج الأصفهاني : « إن المأمون وجّه إلى جماعة من آل أبي طالب ، فحملهم إليه من المدينة ، وفيهم علي بن موسى الرضا ، فأخذ بهم على طريق (البصرة)، حتى جاؤوه بهم ، وكان المتولي لإشخاصهم المعروف بـ (الجلودي) من أهل (خراسان) ، فقدم بهم على المأمون ، فأنزلهم داراً ، وأنزل علي بن موسى الرضا داراً » (مقاتل الطالبيين : ص ٥٦٢) .

الإمام الرضا (ع) على المناطق التي تقطنها أكثرية شيعية ، خصوصاً الكوفة ، لأنه كان يخاف من ردّة فعل الشيعة تجاه اعتقال الإمام ، وإحضاره بالإجبار ، وبهذه الصورة . وأمرهم أن يسلكوا طريق البصرة - خوزستان - فارس - نيشابور . كما أن الأفراد الذين اختارهم لهذه المهمة ، كانوا من الذين يحملون الحقد والعداء الشديد للإمام الرضا (ع)، وكان رئيسهم يدعى (الجلودي[1]) وهو عربي بحسب الظاهر ، وكان وفيّاً للمأمون ، وعدواً لدوداً للإمام الرضا (ع).

وعندما أتمّ هو وأفراده هذه المهمة ووصلوا بالمعتقلين إلى (مرو)، وبعد أن طرح المأمون مسألة ولاية العهد بالنسبة للإمام الرضا (ع)، خالف الجلودي واثنان آخران من جماعته ، وأعلنوا معارضتهم الشديدة لهذا الأمر ، لما يحملون في صدورهم من كراهية للإمام الرضا (ع)، وأخيراً اضطر المأمون إلى حبسهم نتيجة إصرارهم على مخالفة أمره[2] .

وفي يوم ، أمر المأمون بإحضار هؤلاء الثلاثة إلى مجلسه ، وكان الإمام

---

(١) كان للجلودي موقف سيء جداً تجاه الإمام الرضا (ع)، وهو أنه بعد فشل ثورة لأحد العلويين في المدينة، أمر هارون الجلودي أن يذهب إلى المدينة ، وينهب جميع أموال آل أبي طالب، حتى النساء يسلب كل ما عليهنّ من حليّ ، ويأخذ جميع ثيابهن ، ولا يترك لأي امرأة منهنّ إلاّ ثوباً واحداً فقط يستر بدنها . ولما وصل الدور إلى بيت الإمام الرضا (ع)، أراد أن يدخله ، فاعترضه الإمام عند الباب ، ولم يسمح له بالدخول ، فحصلت مشادة بينهما وقال الجلودي : أنا مأمور أن أدخل وأخلع ثياب النساء بنفسي . فقال الإمام : أنا مستعد أن عطيك كل ما تريد، ولكن لا يمكن أن أسمع لك بالدخول . وأخيراً وبعد طول جدال قال الإمام لنسائه : إجمعنّ كل ما عندكنّ من حليّ وثياب، فجمعنها فأعطاها للرجل وصرفه . (البحار : ج ٤٩ ص ١٦٧).

(٢) « قبل الرضا (ع) ولاية العهد ، ودعا المأمون القواد ، والقضاة ، والشاكرية (المستخدمين) ، وولد العباس ، إلى ذلك ، فاضطربوا عليه ، فأخرج أموالاً كثيرة ، وأعطى القواد وأرضاهم ، إلاّ ثلاثة نفر من قواده أبوا ذلك : أحدهم الجلودي ، وعلي بن عمران ، وابن مويس (أبو يونس ، أبو مونس - خ ل)، فإنهم أبوا أن يدخلوا في بيعة الرضا (ع) فحبسهم ، وبويع للرضا (ع)، وكتب بذلك إلى البلدان. . . » (البحار : ج ٤٩ ص ١٣٤) .

الـرضـا (ع) وعـدد آخـر من جملتهم الفضـل بن سهـل ذو الـريـاستين ، حـاضرين ، فـطلب المأمـون رأيهم مجدداً ، فـأعلنـوا ولاءهم الكـامـل لـه ، ومخالفتهم الشديدة للإمام الرضـا (ع) مهما تكن النتـائج ، وتكلمـوا بكلمات حادة ، فأمر بضرب أعناقهم ، ولما وصل دور (الجلودي) كان الإمام جالسـاً بجانب المأمون ، فهمس في أذنه قائلاً : إصرف النظر عن هذا الرجـل . فقال الجلودي مبادراً : استحلفك بالله يا أمير المؤمنين أن لا تسمع كلامه فيّ . فقال المـأمون : قسمـك محفوظ ، فلن أسمـع كـلامـه فيـك أبـداً ، وأمـر بضـرب عنقه[1] .

على أيّ حـال فقد أحضـروا الإمـام (ع) إلى (مـرو) بهـذه الكيفيـة ، ووضعوه في مكان منفـرد ، بينما وضعـوا جميع مـرافقيه من آل أبي طـالب في مكان آخر ، وكان الجميع تحت التحفظ والحراسة ، وهناك فقط طرح المأمون فكرته على الإمام الرضا (ع) .

٢ ـ امتناع الإمام الرضا (ع): يذكر أبو الفرج في « مقاتل الطالبيين »[2] أن المأمون أرسل في البداية الفضل بن سهل ، وأخاه الحسن بن سهـل ، إلى الإمام الرضا (ع) وطرحا عليه هذا الإثنان موضوع ولاية العهد ، فامتنع الإمام عن قبـول هـذا العـرض ، فقـالا بلهجـة تهـديـديـة : إنَّ هـذه القضيـة ليست اختيـاريّـة ، فنحن مـأمـوران من قبـل الخليفـة أن نضـرب عنقـك في حـال امتناعك . فأصرّ الإمام على رفضه ، فرجعا إلى المأمون وأخبراه الخبر ، فـأمر بإحضار الإمام إلى مجلسه ، وأعاد عليه العرض والتهديد ، وكان مما استدل به في كلامه أن قال : ولماذا لا تقبـل هذا الأمـر ؟ ألم يشترك جـدّك علي بن أبي طـالب (ع) في شورى الخـلافة ؟ يـريد بـذلك أن يقـول : بأن هـذا الأمـر لا يتنـافى مع سنّـة أهل بيتـك ، لأن علياً (ع) عنـدما قبـل الإشتراك في مجلس شورى انتخاب الخليفـة، فقد كـان هذا يعني أنـه صرف النـظر مؤقتاً عن حقـه

---

(١) البحار : ج ٤٩ ص ١٦٧ .

(٢) مقاتل الطالبيين : ص ٥٦٣ .

الشرعي من قبل الله سبحانه ، وسلّم أمام الأوضاع ، ليرى ماذا يكون موقف الاخرين . . هل يسلّمون أمر الخلافة إليه أم لا ؟ فإذن ، لو أن مجلس الشورى سلّم الخلافة إلى جدك عليّ لكان قبل ذلك حتماً، وعلى هذا يتحتم عليك الآن بالمثل أن تقبل ما نعرضه عليك . وأخيراً وبعد التهديد بالقتل من جانب المأمون ، وافق الإمام الرضا (ع)، ولكن بشرط . .

٣ ـ شرط الإمام الرضا (ع): اشترط الإمام الرضا (ع)، في مقابل موافقته على قبول منصب ولاية العهد ، أن لا يُطلب منه التدخل في أي شأن من شؤون الحكم والإدارة ، وأن لا تناط به أيّة مسؤولية في الدولة[1] .

وكان هدف الإمام من وراء هذا الشرط أن يحتفظ بصبغة المعارضة تجاه النظام الحاكم ، وأن يفهم الناس ، وخصوصاً شيعته ، أنه لا يمكن أن يتعاون عملياً مع هؤلاء الظلمة .

ولهذا لم يشارك الإمام الرضا (ع) حتى في صلاة العيد ، إلى أن حدثت القصة المعروفة ، وهي أن المأمون طلب في أحد الأعياد من الإمام أن يصلّي بالناس لأن هؤلاء قد كثر كلامهم وكثرت اتهاماتهم للخليفة ونظام حكمه . فقال الإمام : حسناً أقبل ، ولكن على شرط أن أؤدّي مراسم هذه الصلاة كما كان يفعل جدي رسول الله (ص)، لا كما هو المرسوم عندكم ، فوافق المأمون على ذلك .

وبدأ الإمام مسيرته من بيته إلى مكان الصلاة ، ولكن ما إن وصل إلى منتصف الطريق ، حتى شعر المأمون ووزيره الفضل بن سهل بالخطر ، وأصدر الأوامر بإرجاع الإمام ، لأنه كاد أن يُحدث بسلوكه وتصرفه ثورة بين جماهير المسلمين ضدّ المأمون ونظامه المنحرف عن الإسلام[2] .

٤ ـ طريقة تصرف الإمام (ع) بعد قبول ولاية العهد : يروي علماء

---

(١) البحار : ج ٤٩ ص ١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه : ج ٤٩ ص ١٧١ ـ عيون أخبار الرضا (ع): ج ٢ ص ١٤٩ .

الشيعة في كتبهم ، وحتى علماء السنّة ، ومنهم أبو الفرج ، جانباً من أقوال الإمام وتصرفاته بعد تنصيبه وليّاً لعهد المأمون :

يقول أبو الفرج : عيّن المأمون يوماً ، وأمر الناس أن يحضروا لمبايعه الإمام الرضا (ع) وتهنئته عتلى منصبه الجديد . وأجلس الإمام الرضا إلى جانبه : وكان أول من أمره أن يبايع ، هو ولده العباس، وكان الشخص الثاني واحداً من السادة العلويين ، وهكذا وبأمر الخليفة ، كان يأتي عباسي فيبايع، ثم يتبعه علوي وهكذا، وكان كل من يبايع يأخذ جائزته ويرجع إلى مكانه . وكان الإمام الرضا (ع) يمدّ يده للبيعة وهي مقبوضة . وكان الطرف المقابل يضع يده فوقها . فقال له المأمون : ابسط يدك حتى يبايعك الناس . فقال الإمام الرضا (ع): كلا ، فقد كان جدي رسول الله (ص) يفعل هكذا[1] (ربما كانت هذه الطريقة التي اتبعها الإمام تعني أن هذه البيعة باطلة من الناحية الشرعية ، ولا يترتب عليها أي أثر).

وبعد ذلك قام الشعراء والخطباء الموالون للنظام ، وبدأوا بإلقاء خطب الثناء ، وقصائد المدح في حق المأمون وفي حق الإمام الرضا (ع)[2] . ثم التفت المأمون إلى الإمام الرضا (ع) وقال له : قم فاخطب الناس وتكلّم فيهم . وكان المأمون يتوقع من الإمام أنْ يقدم إليه آيات الشكر والتقدير ، وأن يمدحه ويمدح نظامه ، ولكن الإمام الرضا (ع) قام فألقى خطبة موجزة ، لم تتجاوز السطر ونصف السطر ثم جلس[3] . ولم يكن في كلامه أي إشارة إلى ما كان يريده المأمون ، فكان في ذلك خيبة أمل له ، وفضح مبطن لخطته وتدبيره من بداية هذا الأمر .

---

(١) مقاتل الطالبيين : ص ٥٦٤ .

(٢) عيون أخبار الرضا (ع) : ج ٢ ص ١٤١ .

(٣) راجع الخطبة في عيون أخبار الرضا (ع): ج ٢ ص ١٤٥ ـ قال أبو الفرج : قام الرضا (ع)، فقال بعد حمد الله والثناء عليه : « إن لنا عليكمْ حقاً برسول الله (ص)، ولكم علينا حق به ، فإذا أديتم إلينا ذلك ، وجب علينا الحق لكم . ولم يذكر عنه غير هذا في ذلك المجلس » (ا هـ) . (مقاتل الطالبيين : ص ٥٦٤) .

القسم الثاني :

كان موضوع بحثنا يدور حول مسألة ولاية عهد الإمام الرضا (ع) بالنسبة للمأمون ، وقلنا :

إن في هذه القصة سلسلة من المسائل القطعية والمسلّم بها من الناحية التأريخية ، وسلسلة أخرى من المسائل المشتبهة والغامضة ، والتي دفعت بعض المؤرخين مثل (جرجي زيدان) إلى الإعتراف بأن سياسة بني العباس كانت تقوم على الكتمان الشديد ، وكانوا نادراً ما يسمحون بتسرب الأسرار السياسية ، ومنها الأسرار المحيطة بمسألة ولاية عهد الإمام الرضا (ع) .

والشيء الذي يمكن القطع به هو أن مسألة ولاية العهد لم تكن مبادرة من الإمام الرضا (ع)، كما أنها لم تتمّ بالمشاورة والإتفاق معه (ع) وهو في المدينة . بل إنَّ المأمون ـ الخليفة العباسي ـ أرسل بصورة سرية عدداً من رجاله من مقرّ حكمه في خراسان القديمة ـ مرو ، وبلاد ما وراء النهر ، وغيرها مما يعتبر اليوم جزءاً من الأراضي الروسية ـ إلى المدينة ، ليعتقلوا عدداً من بني هاشم ، وعلى رأسهم الإمام الرضا (ع)، ويحضروهم بالإجبار إلى (مرو) . وحدد خط سيرهم بحيث لا يتفق مرور الإمام الرضا (ع) على المدن والمناطق الشيعية .

وعندما وصلوا إلى (مروا) أنزلوا الإمام الرضا (ع) في مكانٍ وأنزلوا أصحابه في مكان آخر . وهناك عرض المأمون على الإمام الرضا (ع) قبول ولاية العهد . وربما يكون قد عرض الخلافة على الإمام أولاً (علس حسب بعض الآراء) .

وسواء أكان هذا أم ذاك ، فإن الإمام الرضا (ع) واجه عرض المأمون وطلبه بالرفض الشديد . فماذا كان منطق الإمام في رفضه ، ولمذا امتنع عن الموافقة ؟

لا يمكن الإجابة على هذا السؤال بصورة قاطعة طبعاً ، ولكن الروايات

التي ينقلها علماء الشيعة (كما هو وارد في « عيون أخبار الرضا »[1] ، تفيد بأن الإمام الرضا (ع) قال في معرض الجواب على كلام المأمون (لقد رأيت أن أعتزل الخلافة على أن أنصبك في مكاني وأبايعك) : « إما أن تكون صاحب حقّ في هذه الخلافة ، وإما أن لا تكون . . فإذا كانت هذه الخلافة التي أنت متلبّس بها شرعية ، فليس من حقك أن تخلع رداءً ألبسك الله إياه . وإذا لم تكن صاحب حق فيها ، فكيف تمنح لغيرك شيئاً لا تملكه ؟ » وكأن الإمام الرضا (ع) كان يريد أن يقول للمأمون : إذا كنت تعترف بأنك لست أهلاً للخلافة ، فينبغي عليك أن تفعل مثل ما فعل معاوية بن يزيد بن معاوية (الذي أعلن عدم أهليته للخلافة ، واعترف بخطأه وخطأ آبائه ، ثم اعتزل الأمر ، ومضى لشأنه) ، لا أن تقوم بتفويض الأمر وتسليم الخلافة إلى شخص تعينه أنت .

وعند ذلك اضطّر المأمون إلى استخدام لغة التهديد ، ومزج تهديده بالاستدلال التأريخي فقال : لقد شارك جدّك علي بن أبي طالب (ع) في شورى الخلافة ، وقد هدّد خليفة الوقت ـ عمر بن الخطاب ـ بأنه إن لم يتوصل أهل الشورى في خلال ثلاثة أيام إلى قرار ، أو تمرد بعضهم على قرار الأكثرية ، فإن (أبا طلحة الأنصاري) يكون مأموراً بضرب أعناقهم . فأنت الآن في موقف علي بن أبي طالب (ع)، وعليك أن تتبع جدك وتشارك في هذا الأمر ، وأنا اليوم خليفة المسلمين وفي موقف عمر ، فإن اتخذت قراراً صارماً بحقك ـ في حال رفضك ـ فإني لن أكون ملاماً أمام المسلمين ، لأن عمر رأى المصلحة في تعيين مجلس لشورى الخلافة ، وأنا أرى اليوم أن مصلحة المسلمين هي في إسناد ولاية العهد إليك ، فإمّا أن توافق وإما أنْ آمر بضرب عنقك .

إذن فواحدة من مسلّمات التأريخ هي أنَّ الإمام الرضا (ع) امتنع عن قبول ولاية العهد ، ولكنه اضطر في النهاية إلى القبول بعد تهديد المأمون له بالقتل .

---

(١) عيون أخبار الرضا (ع) : ج ٢ ص ١٣٨ . ط . الحيدرية ـ النجف الأشرف .

والمسألة الأخرى التي يمكن القطع بها هي أنَّ الإمام الرضا (ع) اشترط على المأمون منذ البداية أن لا يُطلب منه التدخل في شؤون الحكم ، ولا في القضاء ، ولا في العزل والنصب ، أو أيّ أمر آخر من أمور الدولة . وكأنما أراد الإمام (ع) أن يُفهم الناس بذلك ، أن هذا المنصب الذي أُسند إليه ، إنما هو منصب صوري لا أكثر ، وأنه لم ولن يضع يده في يد المأمون ونظامه .

وأكد (ع) هذا المعنى في قوله وسلوكه وذلك في المهرجان العظيم الذي أقامه المأمون لأخذ البيعة من الناس للإمام الرضا (ع) ، والذي دعا فيه جميع الشخصيات البارزة في الدولة من الوزراء ، وقادة الجيش ، والقضاة ، والعلماء ، وغيرهم ، وحضر الجميع ، وكانوا يرتدون الثياب الخضراء[1] التي كانت شعاراً رسمياً مقرراً آنذاك . وكان أول من أمره المأمون باعطاء البيعة هو ولده العباس الذي كان في السابق مرشحاً لولاية العهد . وجاء الآخرون واحداً بعد الآخر وبايعوا .

ثم قام الإمام (ع) وألقى خطبة موجزة جداً ، تحمل كلماتها معنى الإعتراض على عمل المأمون والإعراض عنه وعن نظامه ، فقال (ع) بعد حمد الله والثناء عليه : « لنا عليكم حق برسول الله (ص)، ولكم علينا حقّ به ، فإذا أنتم أدّيتم إلينا ذلك ، وجب علينا الحق لكم »[2]. لقد كان المأمون يريد من الإمام أن يتكلم في اتجاه معيّن كأن يشكره ، ويؤيّد أعماله ، ولكن كلام الإمام كان في اتجاه آخر تماماً .

واستمر موقف الإمام الرضا (ع) هكذا سلبياً تجاه النظام الحاكم . وبعد فترة من الزمن ، لاحظ المأمون أثر موقف الإمام هذا على الناس الذين بدأوا

---

(١) يقول البعض : إن فرض اللباس الأخضر كشعار كان من تدبير الفضل بن سهل ، لأن شعار العباسيّين كان اللباس الأسود ، بينما اللباس الأخضر كان شعار المجوس . ولهذا فإن هذا التدبير يعطي إيحاءً بمحاولة إحياء الروح الزرداشتية . ولكني لا أدري كم لهذا القول نصيب من الصحة (المؤلف) .

(٢) مقاتل الطالبيين : ص ٥٦٤ .

يتكلمـون ضد الخليفـة ونظامـه ، فطلب من الإمـام أن يشـارك على الأقـل في صلاة العيد من أجـل تهدئـة الأوضاع ، فـامتنع (ع) وذكّـر المأمـون بالإتفـاق والشرط ، ولكن بعد الإصرار الشديد من المأمـون قال الإمـام : إذا كان لا بـدّ من ذلـك فعلى شرط أن أعمـل كما عمـل جدّي رسـول الله (ص) لا كما هـو المعمول به عندكم ، فوافق المأمون . وما أنْ خرج الإمام من بيته لأداء مراسم صـلاة العيـد ، حتى قـامت ضجّـة بين النـاس ، وأخـذ الهيـاج بين جمـاهيـر المسلمين يتصـاعد بينمـا كان الإمـام يمشي إلى مكـان الصـلاة بهيئـة تنم عن الإحتجاج الصارخ على الأوضاع ، مما اضطر السلطة إلى إرجاع الإمام بعد أن وصـل إلى منتصف الـطريق ، تخـوفـاً من أن يؤدي الأمـــر إلى حـدوث ثـــورة جماهيرية عارمة ضد المأمون ونظامه .

وعلى هـذا فالمقـدار الـواضـح والمسلّم بـه من هـذه القضيـة هـو أنهم أحضروا الإمام الرضا (ع) إلى (مـرو) بالإجبـار ، وفرضـوا عليه قبـول ولاية عهد المأمون ، وهدّدوه بالقتل في حالة الرفض .

وبعد التهديد قبل الإمام بهذا المنصب ولكن بشرط أن لا يتدخـل عمليّـاً في أمور الدولة . ونفذ الإمام شرطه هذا ، وأثبت للناس ، ولشيعته ، وللتأريخ أنه لا يمكن لحجّه الله ، ووصيّ رسـول الله الشرعي ، أن يتعـاون مع غـاصبي الخلافة ، والمتسلطين على رقاب المسلمين بلا حق .

المســائل الغامضــة :

ولكن هنـاك مسائـل كثيـرة فيمـا يتعلّق بهـذه القضيـة مـا زالت غـامضـة ومجهولة ، حيث يَختلف اجتهاد علماء التأريخ بشأنها :

فماذا كان أصل هذه القضية ؟

وكيف خـطر للمأمـون أن يُحضر الإمـام الـرضـا (ع) من المـدينـة إلى عاصمة حكمـه ، ليسلّم إليه ولايـة العهد ، فتخـرج الخلافـة بذلـك من البيت العباسي إلى البيت العلويّ ؟

وهل كان هـذا الأمر من ابتكـار المأمـون أم الفضل بن سهـل السرخسيّ الذي كان وزيراً متنفذاً ، وكانت عساكر المأمون التي يتألف أغلبيتهـا الساحقـة من الإيرانيين تحت إمرتـه ، وكان يتمكن بـذلك أن يفـرض على الخليفة رأيـه ورغبته .

وإذا كان صحيحاً أن الفضل بن سهل هـو الذي كـان وراء طرح مسـألة ولاية العهد على الإمام الرضا (ع)، فماذا كانت دوافعه ونواياه ؟

يقـول البعض (من أمثـال « جـرجي زيـدان » و« إدوارد بـراون ») : إن الفضـل بن سهل كـان شيعياً مخلصـاً ، وكانت عنـده رغبـة جـادّة في أن ينقـل الخلافة إلى البيت العلوي[1] .

فلو كـان هذا الكـلام صحيحاً ، إذن لكـان على الإمام الـرضـا(ع) أن يتعاون معه من أجل خلع المأمـون ، لأن الوسيلة ـ بنـاء على هذا الإفتـراض ـ كـانت مهيّأة لانتقـال الخـلافـة إلى العلويين أصحـابهـا الشـرعيّين ، ولم يكن له (ع) أن لا يقبل بولاية العهد إلّا بعد أن يُهدّد بالقتـل ، أضف إلى ذلك أنـه اشترط أن يكون هذا المنصب صوريـاً ، وأن لا يطلب منـه التدخـل في أيّ أمر من أمور الدولة .

ولكن هــذا الإفتـراض غيـر صحيـح ، أي إنــه لا يمكن القبـول بـأن الفضـل بن سهل ذا الـرياستين ، كـان شيعياً حقـاً ، وأنـه تصـرف مـع الإمـام الرضا (ع) بروح من الإخلاص والمحبة .

وإذا سلّمنا جدلاً بصحة هذا الإفتراض ، وأنه كـان يمكن خلع المأمـون بـالتعاون بين الإمـام الـرضـا (ع) والفضـل بن سهـل ، فـإن أوضـاع الـدولـة الإسـلامية بشكـل عام لم تكن لتسـاعـد على استتبـاب أمـر الخـلافـة لـلإمـام الرضا (ع) بعد ذلك ، لأن (خراسان) آنذاك ، لم تكن سوى جزء من الدولة الإسلامية ، تنتهي حدودها من جانب عند منطقة (الـري) ، حيث تقابلهـا من

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي : ج ٢ ص ٤٣٩ .

الجانب الآخر ـ العراق التي كانت دار الخلافة سابقاً ـ ، وتأتي بعدها (الحجاز)، و(اليمن) ، و(مصر) ، و(سورية) ، وهي مناطق لم تكن تابعة لميول الإيرانيين ، وأهل (خراسان)، بل كانت لها ميول وتوجّهات أخرى .

فإذا افترضنا أن الإمام الرضا (ع) أصبح بالتعاون مع ذي الرياستين خليفة في (خراسان) ، فإن (بغداد) كانت ستقف في وجهه بصلابة ، كما حدثت بوادر ذلك بالفعل فما أنْ وصل خبر ولاية عهد الإمام الرضا (ع) إلى بغداد ، وعلم العباسيون بذلك ، حتى قاموا على الفور بعزل والي المأمون ، وبايعوا رجلاً من بني العباس يدعى (إبراهيم بن شكلة) الذي لم يكن يمتلك أيّ كفاءة تذكر ، وأعلنوا التمرد والعصيان ، وقالوا : هيهات أن نخضع لسلطة العلويّين . . فلقد جاهد أجدادنا سنين طويلة ، وضحوا بأرواحهم ، فكيف نسلّم اليوم الخلافة إلى هؤلاء ؟[1] .

إذن كانت بغداد ستثور في وجه الإمام الرضا (ع) ، وتتبعها في ذلك مناطق أخرى .

ومن خلال هذا التحليل يتبيّن أحد أسباب رفض الإمام الرضا (ع) لمسألة ولاية العهد هذه .

ثم إن كون هذه المسألة من ابتكار الفضل بن سهل محل تشكيك وتردّد ، وبفرض أنه صاحب هذا الإبتكار ، فمن المشكوك فيه ـ جداً ـ أنه كان يمتلك عواطف وميولاً تشيعية . والإحتمال الأكبر بالنسبة للفضل بن سهل أنه ـ أساساً ـ لم يكن صادقاً في إسلامه ، وكان يريد بهذه الخطة أن يُرجع إيران إلى

---

(١) وهجا المأمون إبراهيم بن المهدي المعروف بـ (ابن شكلة) عمه ، وكان المأمون يظهر التشيع ، وابن شكله ، التسنن ، فقال المأمون :

إذا المُرجيُّ سرَّك أن تراه ... يموت لحينه من قبل موتهْ
فجدد عنده ذكرى عليّ ... وصلّ على النبيّ وأهل بيتهْ

(راجع مروج الذهب : ج ٤ ص ٣٠٠ . وج ٤ ص ٣٢٥) .

عهد ما قبل الإسلام[1] ، فقد كان يعلم جيداً أن الإيرانيين يعتقدون بالإسلام ، ويعارضون أيّة محاولة مكشوفة تستهدف خليفتهم الذي هو كما يفترض رمز دينهم ، ففكّر في أن ينفذ خطته على مرحلتين :

المرحلة الأولى : أن يأتي برجل محبوب ومقدّر عند الإيرانيين كالإمام الرضا (ع)، فينصبه وليّاً للعهد، وبذلك يزيح المأمون تدريجياً عن السلطة .

ثم بعد ذلك يتفرّغ للحاكم الجديد ، فيسلّط عليه الصعوبات من الخارج عن طريق معارضة بني العبّاس في بغداد ، ومن الداخل عن طريق إثارة الإضطرابات والقلاقل ، فتتهيّأ بذلك الأرضية من أجل إخراج إيران من دائرة الخلافة الإسلامية ، وإرجاعها إلى عهد الزرادشتية .

وإذا كان هذا الإحتمال صحيحاً ، إذن كان على الإمام الرضا (ع) أن يتعاون مع المأمون من أجل مواجهة خطر أعظم ، وهو خطر الفضل بن سهل الذي يعتبر أدهى على الإسلام من خطر المأمون ، ذلك أن الأخير مهما يكن من أمر فهو خليفة مسلم ، وليست عنده نيّة لمحو الإسلام والقضاء عليه .

وهناك نقطة أخرى يجب أن أُلفت النظر إليها ، وهي أننا لا ينبغي أن نتصور أن جميع الخلفاء الذين ناهضوا الأئمة (ع) وقتلوهم ، كانوا على السواء ، وعلى هذا فلا وجه للقول : ما هو الفرق بين المأمون وبين يزيد بن معاوية ؟ كلا . فالفرق كبير جداً ، إذ إنَّ المأمون في طبقته كان من أفضل الخلفاء والسلاطين ، سواءً من الناحية العلمية ، أو من ناحية الكفاءة الإدارية والسياسية ، وكان على أيّ حال رجلاً ذا سعة نظر ، وذكاء خارق ، ومفيداً بالنسبة لرعيته ، فهذا التمدن الحضاري العظيم - الذي نفتخر به اليوم - في تأريخنا الإسلامي ، حدث على يد خلفاء من أمثال المأمون وأبيه هارون .

ومسألة (الملك العقيم)[2] التي طغت على المأمون ، ودفعته إلى دسّ

---

(١) ذكرنا بأن أيّاً من هذه المسائل لا يتمتع بصفة القطعية ، بل أنها كلها من قبيل الشبهات التأريخية ولكن بعض الروايات تفيد هذا المعني .

(٢) اشارة إلى قول الرشيد لولده المأمون : « لو نازعتني الذي فيه لأخذت الذي فيه عيناك لأن الملك عقيم » .

السم للإمام الذي يحبه ، ويعتقد به ، شيء ، وسائر المسائل شيء آخر ، والإنصاف يقتضي عدم الخلط بين الأشياء ، ولا يجيز لنا أن نضع يزيد الخليفة الجاهل الأخرق ـ مثلاً ـ في منزلة واحدة مع خليفة عالم ذكي كالمأمون ، وإن كان للأخير أخطاؤه الجسيمة بحق أئمة الدين (ع) .

والروايات الشيعية تؤكد بأن الإمام الرضا (ع) كان يكره الفضل بن سهل أكثر مما كان يكره المأمون ، وكان (ع) يأخذ جانب المأمون في الموارد التي يحصل فيها خلاف بينه وبين الفضل بن سهل .

ففي رواية أن الفضل بن سهل ورجلاً آخر يدعى (هشام بن إبراهيم) جاء إلى الإمام الرضا (ع) يوماً وقالا له : إن الخلافة هي حقك الشرعي ، والمأمون خليفة غاصب ، فإذا كنت توافقنا ، فإننا سوف نقتل المأمون ، ونبايعك بالخلافة من بعده . ولكن الإمام (ع) لم يسمع لكلامهما وطردهما من حضرته شرّ طرفة . فعلما أنهما ارتكبا خطأً عاقبته سيئة جداً ، فذهبا من فورهما إلى المأمون وقالا : كنّا الساعة عند علي بن موسى ، وأردنا أن نمتحنه ، فعرضنا عليه أن يتعاون معنا لقتلك وليكون هو الخليفة من بعدك ، لكي نرى ماذا يكون منه . فرأينا أن نيّته تجاهك حسنة لأنه طردنا ولم يتجاوب معنا . ولكن الإمام الرضا (ع) قام بإطلاع المأمون على حقيقة الأمر بعد ذلك في جلسة خاصة بينهما (وكان المأمون يفكّر نفس التفكير) وقال له : إن هذين الرجلين يكذبان عليك ، فلم يكن قصدهما امتحاني ، وإنما كانا جادّين تماماً في عرضهما ، فكن على حذر منهما[1] .

وهناك افتراض آخر ، وهو أن هذه المسألة كانت من ابتكار المأمون نفسه ، والسؤال هنا : لماذا فعل المأمون ذلك ؟ وهل كانت نيّته حسنة أم سيئة ؟ وإذا كانت نيّته حسنة ، فهل بقي على نيّته تلك إلى النهاية ، أم أنه غيّر موقفه بعد ذلك ؟

بالطبع ، إنَّ مقولة أنَّ المأمون بقي على حسن نيته إلى النهاية ، غير مقبولة

---

(١) عيون أخبار الرضا (ع) ؛ ج ٢ ص ١٦٤ .

أبـداً ، وأقصى مايمكن قبـوله هـو أن نيّته كـانت حسنـة في البـدايـة فقط ، وعلى هـذا المعنى تقـوم عقيـدة الشيـخ الصـدوق حيث يـذكـر في كتـاب « عيـون أخبـار الرضا »[1] (ويؤيده في ذلك الشيخ المفيد) : أن المأمون عندما وقع في شدة بسبب إطباق جيش أخيه الأمين عليه ، نذر نذراًبأنه إنْ نصره الله على أخيه فإنه سوف يقوم بإرجاع الخلافة إلى أهلهـا الشرعيين . ويكـون سبب امتناع الإمـام الرضا (ع) عن قبول ولاية العهد في هذه الحالة ، هو علمه (ع) بأن المأمون كان واقعاً تحت تأثير عواطف آنيّة ومؤقتة ، وأنه ـ حتماً ـ سوف يغيّر موقفـه بعد ذلك بسبب طبيعة حب السلطة المتأصل فيه .

ولا يـوافق كثيـر من العلمـاء على رأي . الشيـخ الصـدوق هـذا ، بـل يعتقدون أن المأمون لم يكن عنده حسن نيّة منذ البداية ، وإنمـا كان وراء عمله أهداف سياسية ونوايا مغرضة. فماذا كانت هذه الأهـداف والنوايـا ؟ وهل كـان يـريد بهـذه الوسيلة أن يخمـد ثورات العلويين ؟ أم كـان يريـد أن يشوه سمعـة الإمام الرضا (ع) كما يفعل أهل السياسة غالباً ، حيث أنهم عندما يريدون أن يهدموا شخصية معارض قوي له مكانة في الأمة ، فإنّهم يسندون إليه منصباً في نظام الحكم ، ثم يقومون بعد ذلك بالتشويش على أعمالـه ، بحيث يضطر من كان يعتقد به ويؤيده ، إلى أن يسيء الظن به ويسحب تأييده عنه .

ونجـد هذا المعنى في روايـاتنا حيث قـال الإمـام الـرضـا (ع) مـرة في حديث له مع المأمون : أنا أعلم أنك تريد بهذه الوسيلة أن تفسد عليّ أمري . فاهتاج المأمون لسماع ذلك وقال غاضبـاً : ما هـذا الكلام ، لمـاذا تنسب هذه الأشياء إليّ ؟[2] .

دراسـة للإفتـراضات المختلفة :

في أحـد هـذه الإفتـراضـات ، وهـو أن الفضـل بن سهـل كـان شيعيـاً مخلصاً ، كانت وظيفة الإمام الرضا (ع) هي التعـاون الإيجابي ، وعلى هـذا

---

(١) البحار : ج ٤٩ ١٣٧ ـ عيون أخبار الرضا (ع) ؛ ج ٢ ١٥٠ .

(٢) سبقت الإشارة إلى نية المأمون من تولية العهد للإمام الرضا (ع) في هامش ما سبق .

فليس هناك اعتراض على قبوله لولاية العهد ، وإذا كان هناك ثمة اعتراض فهو : لماذا لم يقبل ذلك بصورة جديّة ؟

ويمكننا هنا أن نقول (من زاوية محايدة لا من زاوية مذهبية) : إما أن يكون الإمام الرضا (ع) رجل دين ، أو أن يكون رجل دنيا . .

فإن كان رجل دين ، فإنه كان ينبغي عليه أن يتعاون مع الفضل بن سهل ، لأن الأرضية كانت مهيأة لرجوع الخلافة الإسلامية إلى أصحابها الشرعيين .

وإن كان رجل دنيا ، فإنه ـ أيضاً ـ كان ينبغي أن يتعاون مع هذا الرجل لأنها كانت فرصة للقفز فوق كرسي الحكم والسلطة .

إذن ، فطرد الإمام للفضل بن سهل ، وعدم قبوله واستعداده للتعاون معه ، يدلّ على أن هذا الإفتراض كان خطأ من الأساس .

ولكن إذا كان الإفتراض بأن المسألة كانت من ابتكار ذي الرياستين ، وكان هذا يقصدد بذلك التآمر ضد الإسلام ، فإن عمل الإمام الرضا (ع) كان صحيحاً مائة بالمائة ، حيث قارن (ع) بين هذين الشرين (شر الفضل وشر المأمون) فاختار أهونهما وهو التعاون مع المأمون ، مع ملاحظة أنه اكتفى بالحد الأدنى من هذا التعاون .

والإشكال الأكبر الذي يواجهنا في هذه القضية ، هو افتراض أن هذا الإبتكار كان من قبل المأمون نفسه . فهنا ربما يعترض البعض ويقولون : إن المأمون عندما دعا الإمام الرضا (ع) للتعاون معه ، وكان يبيت سوء النية ، فقد كان على الإمام الرضا (ع) أن يقاوم أمام التهديد ، وأن يفضّل القتل على القبول حتى بالولاية الصورية لعهد المأمون .

وهنا ينبغي علينا أن نسأل عن الحكم الشرعي في مثل هذه المسألة ؟

إنّ الشرع يجيز للإنسان في بعض الأحيان أنْ يعمل عملاً يؤدي إلى قتله ، ولكن بشرط أن يكون التأثير المترتب علي قتله أعظم نفعاً ممّا هو مترتب

على بقائه حياً . وذلك مثل ما فعل سيّد الشهداء (ع)، حيث فضل أن يُقتل على أن يعطي البيعة ليزيد ، لأنه كان يعلم أن في قتله فائدتين عظيمتين لم تكونا لتتحققان لو أنه فضل البقاء حياً :

الفائدة الأولى : هي عدم إعطاء الشرعية لحكومة يزيد الذي كان ينوي محو الإسلام من الأساس [1].

والفائدة الثانية : هي إحداث هزّة عنيفة في عقول وضمائر المسلمين الذين كانوا يعيشون حالة من سبات العقل ، وتخدير الشعور ، وسلب الإرادة .

وقد حدثت بالفعل صحوة كبيرة بين المسلمين بعد أن رأوا ابن بنت رسول الله (ص) يريق دماءه الزكية تطبيقاً لمسألة هامة في الدين الإسلامي ، وهي وجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر [2]، أمام الحاكم الظالم ، وعدم الخنوع له ، والسكوت على ظلمه .

ولكن هل كانت ظروف الإمام الرضا (ع) مشابهة لظروف الإمام الحسين (ع)؟ أي هل كان الإمام الرضا (ع) يقف على مفترق طريقين كما

---

(١) إن يزيد بن معاوية (لع) تمثل بهذه الأبيات :

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لا تشل
لست في خندق إن لم أنتقم	من بني أحمد ما كان فصل
وكذاك الشيخ أوصاني به	فاتبعت الشيخ فيما قد سأل
قد قتلنا القرم من ساداتهم	وعدلناه ببدر فاعتدل

هذا الذي يريد أن ينتقم من بني أحمد أليست نيته واضحة في محو الإسلام من الأساس ؟!
(راجع البحار : ج ٤٥ ص ١٥٤ ـ عوالم العلوم : الإمام الحسين (ع) : ص ٣٩٧) .

(٢) قال الحسين (ع): « . . . وأني لم أخرج أشرا ، ولا بطراً ، ولا مفسداً ، ولا ظالماً ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ، أريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب (ع) . . . » (عوالم العلوم : الإمام الحسين (ع) : ص ١٧٩) .

وقف جدّه الإمام الحسين (ع)، بحيث كان يتوجب عليه أن يسلم نفسه إلى القتل باختياره وبإرادته ؟

طبعاً ، لا وجه للقول هنا بأنه ماذا كانت الفائدة من مهادنة الإمام الرضا (ع) للمأمون ؟ ألم يقم المأمون بعد فترة من الزمن بدسّ السم[1] له وإزهاق روحه ؟ فلماذا لم يفضل الإمام منذ البداية أن يُقتل بالسيف ؟

ولردّ مثل هذه التساؤلات أضرب المثل التالي : إذا كنت على يقين بأنني سوف أموت اليوم عند الغروب . ولكنني مخيّر الآن بين أمرين . . إما أن أُقتل ، وإما أن أعمل العمل الفلاني . هنا لا يجوز لي أن أقول بأنه لا قيمة لبضع ساعات بقيت من عمري . كلا ، بل يجب أن أفكر بأنه في هذا المقدار المتبقي من عمري ، هل يتطلب الأمر أن أضحي بحياتي وبكامل إرادتي أم لا ؟

إنّ الإمام الرضا (ع) كان مخيّراً بين أمرين : إما أن يقبل ولاية عهد المأمون الصورية ، وإما أن يقتل بالسيف . ولما رأى (ع) أن قتله لن يعود بفائدة هامة على الإسلام ، فضّل الخيار الآخر والذي كانت له بالفعل آثار أكثر أهمية ونفعاً .

والدين الإسلامي لا يعتبر التعاون مع الظالم ذنباً في كل الحالات، بل إن هناك بعض الاستثناءات التي تلاحظ الظروف المختلفة وتلاحظ ـ أيضاً ـ نوع التعاون وأهدافه .

التعاون مع خلفاء الجور في رأي الأئمة (ع):

مع كل تلك المخالفة الشديدة التي كان يتمتع بها أئمتنا الأطهار (ع) تجاه الخلفاء الزمنيين ، وكانوا يمنعون شيعتهم من التعاون معهم ، وقصة

---

(١) مسألة دسّ السمّ للإمام الرضا (ع) بأمر المأمون ، أمر ثابت وقطعي من ناحية الروايات الشيعية ، ولكنها ليست كذلك في اعتقاد الجميع ، فكثير من المؤرخين ومنهم المسعودي الذي يعتبره البعض شيعياً يرون أن الإمام الرضا (ع) فارق الدنيا بأجله الطبيعي ولم يقتل .

صفوان الجمال التي مرّ ذكرها في فصل سابق ، مثال واحد على ذلك ، فقد كانوا في موارد خاصة يشجعون بعض الأفراد على التعاون مع الحكام الظالمين من أجل الوصول إلى بعض الأهداف المشروعة . وهكذا فإن فقهنا بالإستناد إلى سيرة الأئمة (ع) ـ وإلى القرآن أيضاً ـ يجيز للإنسان المؤمن بل يوجب عليه أحياناً ، إذا اجتمعت فيه شرائط معينة ، أن يشغل منصباً في الجهاز الحاكم الظالم ، وذلك بهدف التقليل من المظالم والمفاسد ، أو تقديم خدمات للمؤمنين[1] .

استدلال الامام الرضا (ع) :

احتجّ البعض على الإمام الرضا (ع) في زمانه وقالوا له (بعد أن أصبح وليّاً لعهد المأمون) : لماذا يرد اسمك مع أسماء هؤلاء ؟ فقال (ع) : أيهما أعلى . . مقام الأنبياء ، أم مقام الأوصياء ؟ قالوا : مقام الأنبياء فقال : أيهما أسوأ . . الملك المشرك الكافر ، أم الملك المسلم الفاسق ؟ قالوا : الملك المشرك الكافر . فقال : أيهما أشدّ مؤاخذة . . من يطلب التعاون بنفسه مع الحاكم الظالم ، أم من يفرض عليه ذلك فرضاً ؟ قالوا : من يطلب التعاون بنفسه . فقال يوسف الصديق كان نبيّاً ، وأنا وصيّ ونبي . وعزيز مصر كان ملكاً مشركاً كافراً ، والمأمون ملك مسلم فاسق . ولقد طلب يوسف (ع) بنفسه من الملك فقال : ﴿ إجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم ﴾ . وأنا أُجبرت على قبول ولاية عهد المأمون[2] .

---

(١) كما مرّ بالنسبة إلى عمل (علي بن يقطين) مع خلفاء الجور من بني العباس .

(٢) وها هو ، سلام الله عليه ، يقول للريان بن الصلت : « قد علم الله كراهتي لذلك فلما خيّرت بين قبول ذلك وبين القتل ، اخترت القبول على القتل ، ويحهم أما علموا أن يوسف (ع)، كان نبياً رسولاً ، فلما دفعته الضرورة إلى تولي خزائن العزيز قال له : « اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم » ، ودفعتني الضرورة إلى قبول ذلك على إكراه وإجبار ، بعد الإشراف على الهلاك ، على أني ما دخلت في هذا الأمر ، إلّا دخول خارج منه . فإلى الله المشتكى ، وهو المستعان . . . » (البحار : ج ٤٩ ص ١٣٠ ـ عيون أخبار الرضا (ع) : ج ٢ ص ١٣٩ ـ أمالي الصدوق : ص ٧٢ـ علل الشرائع : ج ٢ ص ٢٢٧) .

وهكذا أثبت لهم الإمام الرضا (ع) بأن التعاون مع الحاكم الظالم ، لا ينبغي أن يُحكم عليه من خلال النظرة السطحية .

والإمام موسى الكاظم (ع) الذي منع صفوان الجمّال من إكراء جماله لهارون الرشيد ، هو نفسه الذي شجّع (علي بن يقطين) على البقاء في جهاز حكم هارون ، وكتمان تشيّعه ، واستعمال التقية مع القوم فيتوضأ كما يتوضؤون ، يصلي كما يصلّون ، وطمأنه بأن وضوءه وصلاته وسائر عباداته التي يؤديها بهذه الصورة صحيحة ، وفعلاً استطاع ابن يقطين أن يقدم بهذه الطريقة خدمات كثيرة للإمامه ، وللمسلمين ، دون أن يشعر الخليفة وأعوانه بذلك .

وهذا هو الشيء الذي يجيزه العقل والمنطق . وتجيزه جميع المذاهب أيضاً ، فوجود الإنسان ضمن نظام ظالم بحيث تكون قواه في خدمة ذلك النظام شيء ، ووجوده بحيث يستفيد من قوى ذلك النظام لكي يصل إلى أهدافه المشروعة ، شيء آخر . ورفض هذا المنطق لا يعتبر إلّا نوعاً من أنواع الجمود والتعصب الذي لا مبّرر له . وأئمتنا (ع) كانوا يمنعون ذلك النوع من التعاون الذي يقوي سلطة الحاكم الظالم فقط ، ولم يكونوا يعطون العذر لأيّ أحد من شيعتهم عندما كان يراجعهم ، ويقول لهم : إذا لم أعمل مع هؤلاء ولم أقدم لهم الخدمات ، فإنَّ غيري سوف يقوم بذلك .

وكانوا يقولون له : يجب أن يمتنع الجميع عن التعاون معهم ، لكي تشلّ أمورهم وتتوقف أعمالهم .

ولكن الأئمة (ع) من جهة أخرى كانوا يشجعون الأفراد الملتزمين الذين كانوا يستغلون مناصبهم ضمن الأنظمة الجائرة استغلالاً نافعاً للمسلمين .

فالروايات التي لدينا عن الأئمة الأطهار (ع) والتي ينقلها الشيخ الأنصاري في باب ولاية الجائر من كتاب « المكاسب »[1] في مدح أشخاص

---

(١) المكاسب : ص ٥٩ .

مثل (علي بن يقطين) ، و(إسماعيل بن بزيع) ، تحيّر الإنسان حقاً ، فهي ترفع أمثال هؤلاء إلى مرتبة أولياء الله المقرّبين ، برغم أنهم كانوا يحتلّون مناصب حساسة في أنظمة الخلفاء الجائرين .

ولاية الجائر[1] :

لدينا مسألة في الفقه بعنوان (ولاية الجائر) أي قبول منصب من طرف الحاكم الظالم . وقد قرّر الفقهاء بأن هذا العمل الذي هو حرام بحد ذاته ، مستحب في بعض الموارد ، بل يكتسب صفة الوجوب في موارد أخرى . فقالوا :

إذا توقف التمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قبول منصب من طرف الحاكم الظالم ، فإن قبول هذا المنصب واجب .

وهذا هو المنطق السليم ، لأن الإنسان في هذه الحالة إذا تقبل مثل هذا المنصب ، فإنه يستطيع أن يعمل ليقوي نفسه، وجماعته في مقابل إضعاف أعدائه ، وعرقلة أعمالهم .

وأنا لا أتصور أن أهل المسالك الأخرى من ماديين وشيوعيين وغيرهم ، ينكرون هذا الشيء ، فيأمرون أتباعهم برفض كل منصب يقدّم إليهم من طرف عدوهم ، بل يقولون لهم : إقبلوا ذلك ، ولكن إعملوا على طريقتكم ، ومن أجل أهدافكم .

---

(١) راجع كتاب (المقنع) للشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ) ـ باب الدخول في أعمال السلطان ، وطلب الحوائج إليه ـ أوائل المقالات للشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) ـ القول في معاونة الظالمين ، والأعمال من قبلهم ، والمتابعة لهم ، والإكتساب منهم ، والانتفاع بأموالهم ـ كتاب المقنعة) للشيخ المفيد ـ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ كتاب (المهذب) للقاضي عبد العزيز بن البراج الطرابلسي (ت ٤٨١ هـ) ـ باب خدمة السلطان وأخذ جوائزه ـ كتاب (النهاية في حجر الفقه والفتاوي) ـ لشيخ الطائفة الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) : ص ٣٦٩ ـ الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) ـ مسألة في الولاية من قبل السلطان الجائر ـ في الاجتماع السياسي الإسلامي ـ الشيخ محمد مهدي شمس الدين : ص ٣٢٩) .

ونحن نرى أن الإمام الرضا (ع) عندما قبل منصب ولاية العهد ، فإنه لم يحصل بذلك أيّ نفه للخليفة المأمون ، ولا لنظامه ، بل كانت المصلحة في جانب الإمام الرضا (ع) نفسه ، فبالإضافة إلى أنَّ هذا العمل أدى إلى تشخيص العدو من الصديق بصورة أوضح ، فقد استطاع الإمام بصورة غير مباشرة أن يثبت شخصيته العلمية من خلال هذا المنصب . ولم يكن ذلك ممكناً في أي وقت آخر من عمر الإمام .

فمن بين جميع أئمتنا الأطهار (ع) لم تثبت الشخصية العلمية لأحد منهم بقدر ما ثبتت لأمير المؤمنين والإمام الصادق ، والإمام الرضا (ع) .

فأمير المؤمنين (ع) استطاع أن يظهر علمه في خلال الأربع سنوات التي أمضاها في الخلافة ، بواسطة تلك الخطب والإحتجاجات التي بقيت في التأريخ .

والإمام الصادق (ع) استطاع أن ينشر علمه من خلال تلك الفرصة التي سنحت بسبب الحروب التي حدثت بين بني العباس وبين الأمويين ، حيث قام (ع) بإنشاء حوزة علمية ضمّت أكثر من أربعة آلاف طالب علم[1] .

والإمام الرضا (ع) استطاع أنَّ يؤكد شخصيته العلمية من خلال تلك الفترة القصيرة التي بقيها في ولاية العهد ، وساعده في ذلك حبّ المأمون للعلم والمباحثات العلمية . فكان هذا الخليفة يقوم بعقد تلك الجلسات العجيبة (المثبتة في كتب الإحتجاجات)[2] ، والتي كان يجمع فيها كل أصناف العلماء والمفكرين ، من ماديين ، ومسيحيين ، ويهود ، ومجوس ، وصابئة ، وبوذّيين ، وغيرهم ، ثم يدعو الإمام الرضا (ع) ليتباحث معهم في حضوره . فكانت هذه الجلسات فرصة ذهبية استغلها الإمام ليعرض من خلالها الفكر الإسلامي ، وينشر العلم الصحيح ، وكذلك ليدحض جميع الأفكار الباطلة ، ويثبت خوّاء جميع التيارات المخالفة للإسلام .

---

(١) الإمام الصادق (ع) والواقع المعاش : ص ٧٣ .

(٢) راجع الإحتجاج للشيخ الطبرسي : ج ٢ ص ٣٩٦ . والبحار ـ كتاب الإحتجاج .

ســؤال وجــواب :

سؤال : عندما عيّن معاوية ابنه يزيد ولياً لعهده ، خالفه في ذلك جميع المسلمين ، لا لأن يزيد كان شخصاً فاسداً ، بل لأنهم كانوا يخالفون مسألة ولاية العهد من الأساس . فكيف أصبحت ولاية العهد في زمان المأمون مسألة مقبولة عند المسلمين ؟

جواب : لم يخالف جميع المسلمين معاوية في عمله هذا ، ذلك أن معظمهم كانوا غافلين أو متغافلين عن الأخطار المترتبة على مثل هذا العمل . والذين عارضوا ذلك كانوا قلة من المسلمين الذين أعلنوا أن هذا العمل إنما هو بدعة تُبتدع لأول مرة في دنيا الإسلام . وكانت هذه هي العلة في ردّة الفعل الشديدة للإمام الحسين (ع) الذي أراد أن يبين حرمة هذا العمل وعدم مشروعيته .

وأما في العهود التالية ، فإن هذا الأمر فقد صبغته الدينية وعاد إلى شكله الأول قبل الإسلام . وهذا هو أيضاً سبب امتناع الإمام الرضا (ع) عن قبول ولاية عهد المأمون . ومن خلال كلمة الإمام الرضا (ع) حينما قال للمأمون : « وإذا لم تكن الخلافة ملكاً لك ، فكيف تعطي لغيرك شيئاً لا تملكه ؟ » نفهم أن عنوان (ولاية العهد) في هذه القضية خطأ من الأساس ، لأن معنى ذلك أن المأمون كان يمتلك الحق في الخلافة ، وهو يريد أن ينتخب زيداً من الناس ليخلفه في هذا المنصب ، في حين أن الأمر لم يكن كذلك .

سؤال : ورد في حديثكم افتراض بأنه في حالة كون الفضل بن سهل شيعياً حقاً ، فقد كان على الإمام الرضا (ع) أن يتعاون معه من أجل خلع المأمون عن الخلافة ، وهنا يرد إشكال بأنه في هذه الصورة كان يلزم الإمام أن يقرّ أعمال المأمون مدة من الزمن ، في حين أن علياً (ع) لم يكن يجيز إقرار عمل الظالم ، ولو ليوم واحد ، فما هو حلّ هذا الإشكال ؟

جواب : يبدو لي أن هذا الإشكال لا محل له ، فهناك اختلاف كبير بين وضع الإمام الرضا (ع) بالنسبة للمأمون ، ووضع أمير المؤمنين (ع) بالنسبة

لمعاوية . فإقرار أمير المؤمنين (ع) يكون بجعل معاوية الظالم حاكماً منصوباً من قبله على الشام ، ولذلك لم يكن (ع) مستعداً لهذا العمل مهما كلّف الأمر . ولكن إقرار الإمام الرضا (ع) في حالة قبوله ولاية العهد يكون بالسكوت فترة من الزمن في مقابل المأمون ، وعدم الإعتراض على أعماله[1].

وعلى العموم ، فهناك من الناحية الشرعية فرق بين أن يكون لإنسان تأثير مباشر في أحداث مفسدة ، وبين كونه يريد أن يزيل مفسدة موجودة بالفعل ، ولكل من هاتين الحالتين حكم شرعي مختلف . فتنصيب أمير المؤمنين (ع) لمعاوية حاكماً من قبله يعتبر إحداثاً لمفسدة ، ولذلك امتنع (ع) عن تنصيب معاوية حاكماً على الشام من قبله ، ولو ليوم واحد . أما في الفرض الذي ذكرتموه ، فقد كان الإمام الرضا (ع) أمام مفسدة موجودة بالفعل وهي كون الخلافة بيد من لا يستحقها ، وفي هذه الحالة ، فإن الصبر والسكوت مدة من الزمن ، جائز من أجل مصلحة أكبر ، وهي إزالة هذا الخليفة الجائر . إذن لا محلّ للقياس بين عمل أمير المؤمنين (ع) ، وعمل الإمام الرضا (ع).

سؤال : ذكرتم في بياناتكم أنه لم يثبت من الناحية التأريخية أن الإمام الرضا (ع) قتل مسموماً على يد المأمون . ولكن هناك عدّة إثباتات على ذلك :

الأول : هو إن المأمون كان يرى بأن عامل الزمن ليس في صالحه ، إذ إنه كلما كان يمرّ الوقت ، كلّما كان يتبين للناس أكثر فأكثر بأن المأمون على خطأ وأن الحقّ مع الإمام الرضا (ع)، ولذلك اضطر إلى دسّ السمّ له وقتله ، لكي يحتفظ بالخلافة لنفسه .

والثاني : هو أنه من المستبعد أن يموت الإمام الرضا (ع) في الثانية والخمسين من عمره ـ على أحد الأقول ـ موتاً طبيعياً ، لأنه كان يراعي الأصول

---

(١) الملاك في فهم فعل الإمام المعصوم (ع)، هو الإجابة على السؤال التالي : على الإمام يحتاج إلى غيره ليعرف ماذا يفعل في الظروف الموضوعية التي يصادفها ، والأحداث التي تواجهه ليحقق غاية وجوده الشريف ، وهو حفظ واستمرار الرسالة المحمدية ؟

الصحيحة والصحية ، ولم يكن عنده إفراط أو تفريط مثلنا .

والثالث : هو هذا الحديث المعروف : « ما منّا إلاّ مسموم أو مقتول »[1] وهو يشمل الإمام الرضا (ع) وينفي عنه بذلك الوفاة الطبيعية .

وتصريح المسعودي صاحب « مروج الذهب »[2] الذي ذكر بأن الإمام الرضا (ع) مات بالأجل الطبيعي ليس دليلاً ، فأكثر المؤرخين الشيعة يذكرون أن الإمام الرضا (ع) قتل مسموماً ، فماذا تقولون ؟

جواب : أنا لم أقل : إن الإمام الرضا (ع) لم يقتل مسموماً . وأنا أؤيّد رأيكم ، وذلك من خلال مجموع القرائن التي تؤكد بأن المأمون دسّ السمّ للإمام الرضا (ع) .

وكان أحد الأسباب الرئيسة لذلك هو ثورة بني العباس في (بغداد) ضد المأمون ، واعتراضهم على تنصيب الإمام الرضا (ع) وليّاً لعهده . فتوجه المأمون من مقرّه في (خراسان) إلى (بغداد) ليضع حلاً لهذه المشكلة ، وكانت تنقل إليه بصفة مستمرة تقارير عن أوضاع (بغداد)، وأخبار العباسيّين هناك ، ففهم من ذلك بأن هذه المشكلة لا يمكن أن تحلّ إلاّ بسحب منصب ولاية العهد من الإمام الرضا (ع)، ولكنه لم يكن يستطيع أن يعزل الإمام عن هذا المنصب لسبب ما ، إذن لم يبق إلاّ طريقة واحدة للتخلص من الإمام وهي قتله .

كما أنه رأى أيضاً أن في وجود الفضل بن سهل خطراً كبيراً عليه ، لأنه كان يزداد قدرة ونفوذاً ، يوماً بعد يوم ، ولذلك فإنه عندما وصل إلى (سرخس)[3] في خط سيره ، أرسل أفراداً من رجاله ليقتلوا الفضل بن

---

(١) الأنوار البهية : ص ٢٦٦ .

(٢) قال صاحب مروج الذهب : « وفي خلافته (يعني المأمون) قبض علي بن موسى الرضا (ع) مسموماً بـ(طوس) ، ودفن هنالك ، وهو يومئذٍ ابن تسع وأربعين سنة وستة أشهر ، وقيل غير ذلك » (مروج الذهب للمسعودي : ج ٤ ص ٣٠٠) .

(٣) سرخس : بلد جليل ، ومدينة جليلة عظيمة ، وهي برية وجبال ورمال ، وفيها أخلاط من =

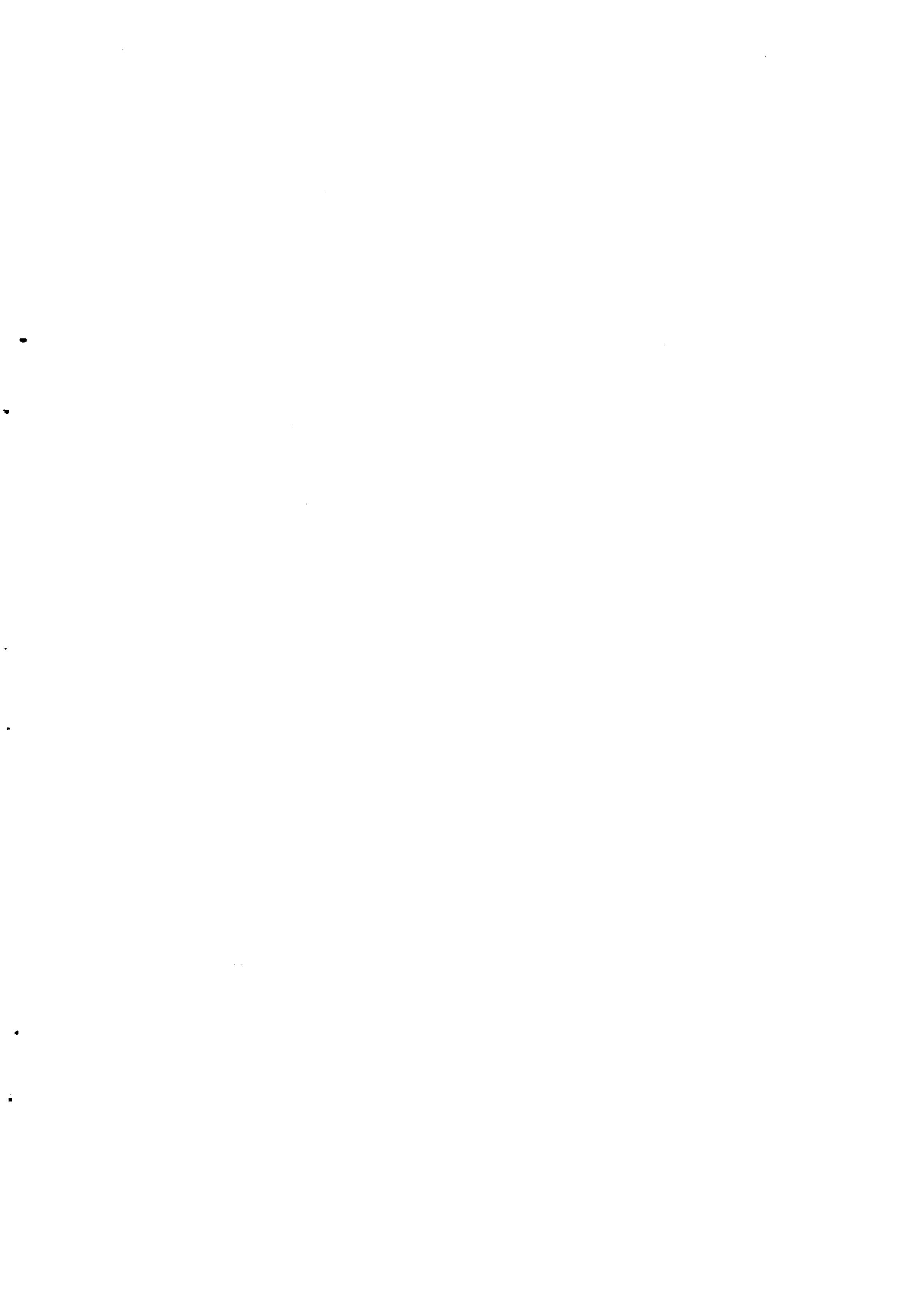
سهل ، فدخلوا عليه وكان في الحمّام فقطعوه بسيوفهم إرباً إرباً ، ثم واصل سيره ، وعندما وصل إلى (طوس)[1]، أوعز بدسّ السمّ للإمام الرضا (ع) لكي يُرضي بذلك أهل بغداد ، ويُعلمهم بأن هذا الأمر الذي أثار سخطهم قد تمت تسويته ، فلا داعي للثورة والتمرد بعد ذلك .

ولا يوجد شك من خلال روايات الشيعة بأن المأمون دسّ السمّ للإمام الرضا (ع) وقتله . ولكن بعض المؤرخين من غير الشيعة لا يعتقدون بذلك ، ومنهم المؤرخون الأوروبيون الذين يطالعون الوثائق التأريخية ، فيرون أن أغلب المؤرخين من أهل السنّة يؤكدون في رواياتهم أن الإمام الرضا (ع) بعد أن وصل إلى (طوس) مرض هناك ثم مات على أثر مرضه ، وإذا استدرك أحدهم فإنه يقول في روايته : (وقيل) أنه مات مسموماً . فأردت أن أتكلّم في هذا المجال بمنطق غير منطق الشيعة توسيعاً لأفق البحث ، وإلاّ فكل الدلائل والقرائن تؤكد بأن الإمام الرضا (ع) مات مسموماً .



= الناس ، افتتحها عبدالله بن حاتم السلمي في خلافة عثمان . وشرب أهلها من الآبار ، وليس فيها نهر ، ولا عين . وهي من كور (خراسان) (آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان ـ تأليف إسحاق بن الحسين من أعلام القرن الرابع الهجري : ص ٧٦) .

(١) طوس : من كور نيسابور ، بها قوم من العرب ، وأكثر أهلها عجم . وبها توفي هارون الرشيد ، وفيها قبره . وفي كتاب البلدان لابن الفقيه : بها قوم من العرب من طيء . وهي ناحية من مدينة (مشهد المقدسة) هذه الأيام في الجمهورية الإسلامية الإيرانية (راجع آكام المرجان : ص ٧٣) .



الفصل السابع
كلمة حول الامام الحسن العسكري (ع)

الإمام الحسن العسكري (ع) من الأئمة الذين عاشوا في ظل ظروف صعبة وخانقة جداً . إذ كلما كان الوقت يقترب من عهد إمامة صاحب الزمان ، وخاتم الأئمة (عج)، وكلما كان حكام الجور وخلفاء الباطل يشددون من ضغوطهم على الأئمة المعصومين ، ويحكمون الحصار عليهم .

وكان الإمام الحسن العسكري (ع) يعيش حالة الإقامة الجبرية في (سامراء)[1] التي أصبحت مركز الخلافة في ذلك الوقت .

---

(١) سامراء : وأما مدينة (سر من رأى) ، فبناها المعتصم بن هارون الرشيد .

وكانت قبل ذلك صحراء ، لا عمارة فيها ، وكان بها في القديم دير للنصارى . وكان سبب بنيانها ، أن المعتصم كان كثيراً ما يتخذ الأتراك ، فلما أفضت إليه الخلافة ألحَّ في طلبهم . خرج من بغداد ، وطلب موضعاً يحضر فيه نهراً ، حتى وصل إلى (القاطول)، فابتدأ بالبناء ، وأقطع القواد ، والكتاب ، والناس . فبنوا على (القاطول) ودجلة. ثم سار إلى موضع (سر من رأى)، فاشترى الدير ، وكتب في إشخاص الفعلة والبنائين ، وأهل المهن ، وسائر الصناعات . ثم أقطع للقواد ، والكتاب ، والناس ، وأفرد قطائع الأتراك عن قطائع الناس جميعاً . وأمر ببناء المساجد والأسواق . واشترى للأتراك والجواري . وبنى المعتصم العمارات قصوراً ، وصيَّر في كل بستان قصراً ، فيه مجالس ، وبرك ، وميادين . مات المعتصم (٢٢٧ هـ) وتابع هارون الواثق ، والمتوكل وغيره من الخلفاء بعده البناء فيها إلى أن أصبحت مدينة (سامراء = سر من رأى = سر من را) (آكام المرجان : ص ٣٦) .

ففي زمان الخليفة العباسي (المعتصم) شكى أهل بغداد كثيراً من تسلط جنوده وضباطه وجورهم ، فلم يصغ هذا الخليفة في بادىء الأمر لشكاوي الناس وضجيجهم ، ولكنه استجاب لضغوطهم في النهاية ، فانتقل بعساكره إلى (سامراء) فترة من الزمن لعل الأوضاع تهدأ ، ثم عاد إلى بغداد ، ولكن المشكلة بقيت قائمة ، فقرّر نقل مركز الخلافة إلى (سامراء) بصورة نهائية .

ولقد عاش الإمام العسكري (ع)، كما عاش والده الإمام الهادي (ع)، في (سامراء) ، في مكان يقال له (العسكر) أو (العسكري)، وكان عبارة عن ثكنة عسكرية يتخذها عساكر الخليفة مقراً لهم ، أي أنهم اختاروا مكاناً لهذين الإمامين يقيمان فيه بحيث يكونان دائماً تحت المراقبة والحراسة ، وتحت نظر الخليفة مباشرة . قد فارق الإمام الحسن العسكري (ع) الحياة في سنّ الثامنة والعشرين من عمره ، وكانت مدة إمامته ست سنوات فقط قضاها كلها ـ طبقاً للنصوص التاريخية ـ إما في السجون ، وإمّا معزولاً عن الناس في بيته ، حيث لم يكن يسمح لأحد بزيارته والتحدث معه . وعندما كان يصادف أحياناً أن ينتقل من مكان لآخر ، أو عندما كانوا يستدعونه إلى قصر الخلافة ، فإنّهم كانوا يضعونه تحت الحراسة المشدّدة ، ويمنعون كل أحد من الإتصال به .

ولما كانت تظهر لكل إمام من أئمة أهل البيت (ع) صفة يُعرف بها بين الناس ـ حيث يصف (الخواجة نصير الدين) في بنوده الإثني عشر كل إمام بصفة ، كانت تظهر فيه بوضوح أكثر من غيرها ـ فقد كانت الصفة التي اشتهر بها الإمام الحسن العسكري (ع) وعُرف بها هي صفة الهيبة والجلالة والرواء (أي حسن المنظر) ، وكان كل من يلقاه يقع تحت تأثير هيبته وجمال محيّاه ، قبل أن يسمع منه شيئاً ، أو يستفيد منه علماً . أما إذا أخذ هذا البحر الزّاخر بالعلم والحكمة بالكلام ، وعذب المنطق ، فللإنسان أن يتصور ماذا يكون من الطرف المقابل ، وهناك في هذا المجال العديد من الحكايات والروايات التي تفيد بأنه حتى أولئك الذين كانوا مكلّفين بحراسة هذا الإمام في تنقلاته ، أو

في سجنـه ، كـانـوا لا يتمـالكـون أنفسهم من احتـرام الإمــام ، وتجليله ، والخضوع أمام هيبته ، وعظمته المعنوية .

والسبب الرئيـس الذي كان يدفع السلطات الحاكمـة إلى التشدّد الكبيـر على الإمـام الحسن العسكري (ع)، وهـو شيوع الخبـر بأن مهـدي هذه الأمـة يخـرج من صلب هذا الإمـام . وهو السبب نفسـه الذي دعـا « فرعـون » ـ لما سمع بأن مولوداً ذكراً سوف يولد في بني إسرائيل ويكون زوال ملكه على يديه ـ إلى القيام بقتل كل المواليـد الذكـور في بني إسرائيـل وترك الإنـاث فقط[1] . وكان يأمر نساءً من قبله بتفتيش بيوت بني إسرائيل ، ووضع كل النساء الحوامل تحت المراقبة إلى أنْ يلدن . ولم يفكر هذا الأحمق المتجبّر بأنـه إذا كان هـذا الخبَر صحيحاً ، فهل يتمكن أنْ يحول دون تنفيذ أمر الله ؟

وما أحسن ما أنشد « مولـوي » حيث أشار إلى مـوقف المعتصم المشابـه لموقف فرعون بهذا البيت :

هــل انـطلقت بجنـودك (أيهـا الأحمق) إلى بـوابـة الغيب
لـكي تـســدّ الـطريـق أمــام قــدوم رجــال الـغيــب ؟؟

وكــان المعتصـم يــأمــر كــل فتـرة بتفـتيش بـيت الإمــام الـحسـن العسكـري (ع) ، وخصوصـاً بعد أن رحـل الإمام إلى جـوار ربه ، لأنـه كـان يـسمــع إشــاعــات بـأن الـمهـدي (ع) قــد ولــد فـعــلاً . ولـكـن ولادة الإمام المهدي (عج) كانت قد تمت بتدبيـر الله تعالى بصـورة سريـة بحيث لم يطلع على هذه الحقيقة إلاّ القليل ، وكان عمره (عج) ست سنوات عندما توفي والـده ، وكان الإمـام الحسن العسكري لا يـري مولـوده إلاّ لخـواص الشيعـة فقط ، الـذين كانـوا يأتـون من أماكن متفـرقة للتيقن من صحـة الخبـر ، بينمـا كـان (ع) يخفيه عن عـامة النـاس . وعندمـا حضرت الإمـام العسكري (ع) الـوفاة ، هجم مـأمور الخليفـة العباسي ، وفتشـوا بيت الإمام تفتيشـاً كامـلاً ،

---

(١) راجع قصص الأنبياء للسيد نعمة الله الجزائري : ص ٢٥١ .

وأمروا النساء الجاسوسات أن يفحصن كل نساء الإمام الجواري وغيرهنّ ، وينظرن هل بينهنّ امرأة حامل أم لا ؟ وعندما اشتبهنّ في إحدى الجواري أخذنها ، ووضعنها تحت المراقبة سنة كاملة ، ولكن ثبت فيما بعد أنها لم تكن بحامل[1] .

وكانت والدة الإمام الحسن العسكري (ع) تدعى « حُدَيْث »[2] ، ولكنها أصبحت معروفة بلقب « الجدّة » لأنها جدة الإمام الحجة (عج) . وهناك نساء أخريات في التأريخ يلقّبن أيضاً بلقب « الجدّة » باعتبار أن شهرتهن ترتبط بأحفادهنّ . ومن جملتهنّ جدّة « شاة عباس » وتوجد في (أصفهان) مدرستان باسم « الجدّة » ، ولكن شهرة والدة الإمام الحسن العسكري (ع) لم تكن فقط لأنها كانت جدة الإمام الحجة (عج) ، بل لأنها كانت ـ أيضاً ـ تتمتع بشخصية علمية ومكانة عظيمة، بحيث يذكر المحدث القمي في « الأنوار البهية »[3] أنها كانت مفزع الشيعة بعد الإمام الحسن العسكري (ع). فكان الشيعة بعد وفاة إمامهم يلجؤون إليها لمعرفة جواب مسائلهم، باعتبار أن إمام زمانهم كان مختفياً ، ولم يكن بإمكانهم الوصول إليه .

يقول رجل : ذهبت إلى عمة الإمام العسكري (ع) « حكيمة خاتون » بنت الإمام الجواد (ع) ، وتحدثت معها فيما يتعلق بالعقائد ، ومسألة الإمامة ، وغيرها ، فأخذت تستعرض عقيدتها في الأئمة المعصومين (ع) إلى أن وصلت إلى الإمام العسكري (ع) . ثم قالت : وأما إمامي الحالي فهو

---

(١) الأنوار البهية : ص ٢٦٩ .

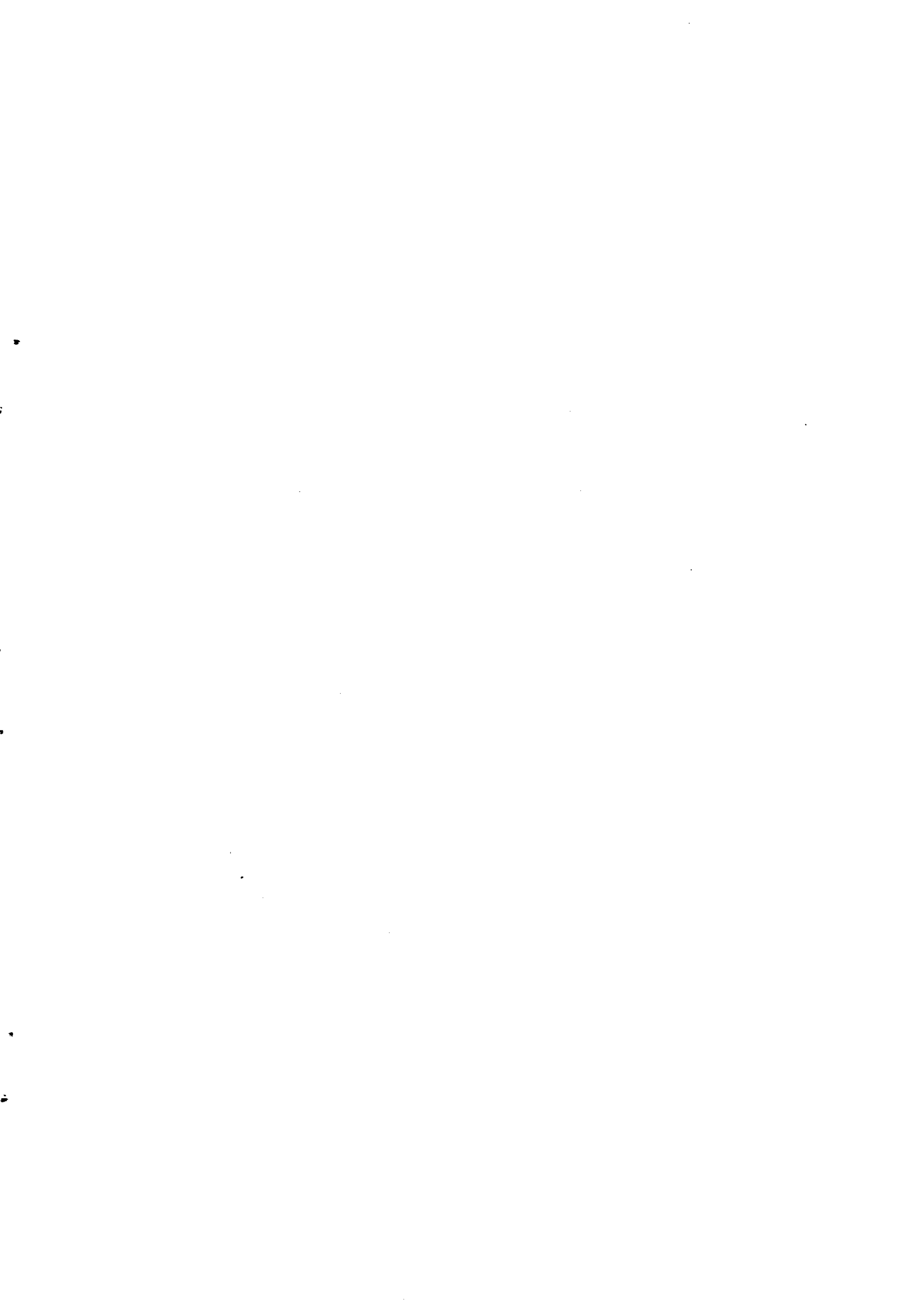
(٢) الواقع أننا نجد اختلافاً كبيراً في المصادر التي بين أيدينا حول اسم والدة العسكري (ع)، المباركة وقد ذكرتها المصادر باسم : (سليل ، سوسن ، حديثة ، حديث ـ حريبة ، وهي نوبية من النوبة : بلاد واسعة عريضة من جنوبي مصر . وقد مدح النبي (ص) أهلها فقال : « من لم يكن له أخ ، فليتخذ أخاً من النوبة . (حياة الإمام الحسن العسكري ـ باقر شريف القرشي : ص ١٦) .

(٣) الأنوار البهية : ص ٢٥٠ « . . . ويقال لها الجدة ، وكانت من العارفات الصالحات ، وكفى في فضلها أنها كانت مفزع الشيعة بعد وفاة أبي محمد (ع) » .

ولده الذي هـو الآن مخفي عن الأنظار . فقلت : فـإن عرضت لنـا مسألـة فإلى من نرجع؟ فقالت: ارجعوا إلى « الجدّة » . فقلت: عجباً، فارق الإمام الدنيا ، وأوصى إلى امرأة ؟ فقالت : لقـد صنع الإمـام العسكري (ع) نفس مـا صنع الإمــام الحسين (ع) ، فقــد كــان وصيُــه الــواقعي في البــاطـن علي بـن الحسين (ع) ، ولكن ألم يوجه في الظاهر كثيراً من وصايـاه إلى أخته السيـدة زينب (ع) ، فـالـوصيّ البـاطن لـلإمـام الحسن العسكـري (ع)، هـو ولـده المخفيّ عن الأنظار ، ولكنه جعل وصيّه الظاهر هذه المرأة الجليلة القدر ، من أجل التعمية على الأعداء وتثبيط همتهم في طلبه والبحث عنه[1] .



(١) الأنوار البهية : ص ٢٥١ .



الفصل الثامن

القسم الأول : العدل الكلي ، والعدالة الشاملة

إن جميع الأنبياء الذين بعثوا من قبل الله سبحانه بين البشر كانوا يسعون وراء هدفين رئيسيّين :

الهدف الأول : هو إقامة علاقة صحيحة بين البشر وبين الله ربهم ، وبعبارة أخرى : تخليص البشر من عبادة كل موجود سوى الله تبارك وتعالى ، وهو ما يتلّخص في هذه الكلمة الطيبة « لا إله إلاّ الله » .

والهدف الثاني : هو إقامة علاقات سليمة بين البشر أنفسهم على أساس العدل ، والإحسان ، والسلام ، والمحبة ، والتعاون ، وخدمة بعضهم البعض .

والقرآن الكريم يبيّن هذين الهدفين حيث يقول فيما يتعلق بالأول وهو يخاطب خاتم الأنبياء (ص) : ﴿ **يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً** ﴾[1] .

ويقول موضحاً الهدف الثاني : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط** ﴾[2] .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٤٦ .

(٢) سورة الحديد ، الآية : ٢٥ .

وهكـذا نرى أن القـرآن يقرّر أصـل القسط والعـدالـة في بنـاء المجتمـع البشري ، ويعتبر العمل بهذا الأصل أحد الأهداف الرئيسـة لجميع الـرسالات السماوية .

وسؤالنا هنا : هل سيأتي يوم على البشرية ترى فيه تطبيق العدالة الكليـة الشـاملة ، بحيث لا يبقى أي أثـر بين النـاس لأنـواع الـظلم ، والجـور ، والإستغلال ، والحقد ، والكراهية ، والحروب ، وسفك الدماء ، ولا يبقى أثر لما يلازم هذه الأمور من الرذائل الأخلاقية ، كالكذب ، والنفـاق ، والخداع ، والطمع ، والبخـل . . الخ ؟ أم أن ذلـك مجرد وهم وخيـال لن يتحقق في يوم من الأيام أبداً ؟

قد نجد بين المسلمين المتدينين من يقول : أنا لا أنكر العـدل الإلهي . وأن الله سبحانه خلق كل شيء على أساس العدل ، ولكني أعتقد أن دنيانا هذه بلغت درجـة من الدنـاءة والإنحطاط ، وتـرسّخت جذور الـظلم فيهـا ، بحيث أصبـح من المستحيل تـطبيق العدالـة الواقعيـة بين النـاس ، وبـالتـالي سيـادة السلام ، والمحبة ، والإنسانية الحقيقية ، في هذه الدنيا .

فـالدنيـا هي دار الظلم ، والعـدل الكلي والتام يختص بـالآخـرة فقط ، حيث يتم هنــاك جبـران الــظلم الـذي وقـع في الـدنيــا ، وردّ الحقـوق إلى أصحابها . وتوجد هذه الفكرة المتشائمة على نـطاق أوسع بين غيـر المسلمين أهل الأديان السماوية .

ولكن الميـزة الأساسيـة للعقيدة الإسـلامية ـ وخصـوصـاً من وجهـة نـظر الشيعة ،هي نفي التشاؤم عن البشر ، وبيان أنّ عهد الظلام بمـا فيه من ظلم ، وجـور ، وبغي ، وانحراف فكـري ، وفسـاد أخـلاقي ، ومـا يستتبـع ذلـك من حروب ، ونزاعـات ، واختلافـات ، إنما هـو عهد مؤقت ، حيث سيعقبـه عهد النـور ، فتنصلح الـدنيـا ، وتسـود العـدالـة الحقيقيـة فيهـا ، ويقــوم النـاس بالقسط[1] .

---

(١) إشارة من حضرة، المؤلف (عليه الرحمة) ، إلى ظهور صـاحب الزمـان (عج) الـذي به تمتلىء الدنيا عدلاً وخيراً كما ملئت ظلماً وجوراً .

وإذا تأملنا في القرآن الكريم ، فإننا نجده يعطي هذه البشارة ، حيث يقرّر أن مستقبل البشرية في هذه الدنيا هو طيّ بساط الشر والظلم ، ومجيء عهد الخير والعدل ، وهذه واحدة من الآيات التي تبيّن ، ذلك : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾[1] .

وهنا يعطي الله سبحانه وعداً قاطعاً لأهل الإيمان والعمل الصالح بأنّ العاقبة في هذه الدنيا سوف تكون لهم ، وأن الذي يحكم العالم في النهاية هو شعار (لا إله إلّا الله) ودين الله بكل ما فيه من المعنويات والقيم الصحيحة وعلى رأسها العدالة الحقيقية والتامة .

وأما التوجه المادي ، وعبادة الماديات ، والأنانيات ، وسائر القيم المنحرفة ، فسوف يكون مصيرها الزّوال من بين المجتمعات البشرية .

وهكذا نستخلص من القرآن الكريم هذه الفكرة وهي أن مسألة التطبيق العملي للعدالة الكلية الشاملة ليست مجرد أماني ، وخيالات وهمية ، وإنما هي حقيقة تسير الدنيا باتجاهها لأنها سنّة إلهية لا بد أن يجريها الله تعالى ، فيحكم العدل في هذه الدنيا قروناً وقروناً من الزمان لا ندري كم هي ، يكون الإنسان فيها قد بلغ رشده وتكامل معنوياً بحيث أصبح ينفر بطبعه الفطري السليم من الظلم ، وكل أنواع الظلمات المعنوية .

وبحثنا هنا يدور حول الأساس الذي يستند عليه الإسلام عندما يقرّر بأن العدالة الشاملة الكلية سوف تتحقق في هذه الدنيا . ولبيان ذلك يلزم أن أقوم فيما يلي بشرح النقاط الثلاث التالية :

الأولى : ماهية العدالة .

والثانية : هل يوجد ميل في فطرة البشر نحو العدالة ، أم أنه ينفر منها

---

(١) سورة النور ، الآية : ٥٥ .

بفطرته وطبيعته ؟ وإذا كان لها أن تطبق في وقت ما فلا يكون ذلك إلّا بالإكراه والإجبار ؟

والثالثة : هل إنَّ العدالة الكلية التامة شيء عملي ، أم هي مجرد فكرة مثالية ؟ وإذا كان لها أن تطبق عملياً فبأيّ وسيلة يكون ذلك ؟؟

تعريف العدالة[1] :

قد لا تكون هناك حاجة لتعريف العدالة ، فالبشر على أي حال يعرف جيداً ما هو الظلم ، وما هي التفرقة والتمييز . والعدالة ما هي إلّا النقطة المقابلة لهذه الأشياء .

وبعبارة أخرى ، فإن الناس بحسب خلقتهم واستعداداتهم الفطرية ، وكذلك بحسب النشاطات والأعمال التي يقومون بها، يتمتعون باستحقاقات معيّنة ، العدالة هي أن يعطي كل ذي حق حقه ، بعكس الظلم الذي هو حبس الحقوق عن أصحابها، وبعكس التفرقة ، وهي عدم المساواة في المعاملة بين الأفراد الذين يتمتعون بالمؤهلات والإستعدادات نفسها ، ويقومون بالأعمال نفسها .

وقد وجد قديماً بين البشر ـ امتداداً من عهد الفلاسفة اليونانيين الأوائل إلى سائر العهود الأوروبية اللاحقة ـ أفراد ينكرون واقعية العدالة وكونها أمراً طبيعياً في المجتمع البشري ، ويقولون بأن العدالة هي ذلك الشيء الذي يقرّره القانون الحاكم وتفرضه القوة .

---

(١) سبق للأستاذ الشهيد (رضوان الله عليه) أن عرّف العدل في كتابه (العدل الإلهي) : فقال :
أ ـ يقصد بالعدل : كون الشيء موزوناً ومنه التعادل الإجتماعي ، والفيزيائي ، والكيميائي ، والعالم كله متعادل موزون . ب ـ والمعنى الثاني للعدل هو التساوي ، ونفي أي لون من ألوان الترجيح . ج ـ والمعنى الثالث للعدل : هو رعاية حقوق الأفراد ، وإعطاء كل ذي حق ماله من حق . ويتعرض إلى شواهد من أقوال الشاعر مولوي الذي يعرف العدل بقوله : العدل هو وضع الشيء في موضعه ، هو إعطاؤك الأشجار ماء . (راجع العدل الإلهي ـ للمؤلف (رضوان الله تعالى عليه) : ص ٦٨ وما بعدها) . طبع الدار الإسلامية بيروت .

ولكن هذه الفكرة غير صحيحة بالمرّة ، فالعدالة لها واقعية لا يمكن إنكارها ، لأن العدالة تابعة للحق ، والحق له واقعية يكتسبها من أصل الخلقة ، فكلّ موجود يتمتع في أصل خلقته وتكوينه بصلاحيات واستحقاقات معيّنة ، والإنسان ـ إضافة إلى ذلك ـ يكتسب استحقاقات أخرى بأعماله ونشاطاته ، وليست العدالة أكثر من أن يأخذ كل ذي حق حقه الطبيعي دون زيادة ولا نقصان .

والذي يساعد على ذلك أنَّ الطبيعة التي خلقها الله سبحانه ، فيها متسع للعدالة بما أودع فيها من الإمكانات الوفيرة والخيرات الكثيرة، والذين ينكرون واقعية العدالة يتوهمون أنه لو أعطيت الحقوق إلى أصحابها فلن يكفي مخزون الطبيعة لذلك .

هل حبّ العدالة والرغبة فيها شيء فطري ؟

إنَّ البشر بفطرته وتكوينه ، يحب أشياءً في الحياة ، ولا يملك دليلاً لذلك سوى تركيبه النفسي والروحي ، ومثال ذلك حبه للجمال ، فالإنسان عندما يرى نفسه أمام شيء جميل، فإنه لا يملك إلاّ أنْ يعجب به ، وينجذب إليه دون أن تجبره قوّة من الخارج على ذلك . وقس على ذلك حب العلم ، وحب الفضائل الأخلاقية ، كالشجاعة ، والبطولة ، والأمانة ، والوفاء .. الخ . فهل إن الميل إلى العدالة سواء الفردية ، أو الإجتماعية ، بغض النظر عن حصول المنفعة الشخصية ، جزء من المطالب البشرية ؟ وهل يوجد شيء كهذا في فطرة البشر أم لا ؟

نظـرية (نيتشه)[1] و(ماكيافيلي)[2] :

يعتقد أكثر الفلاسفة الأوروبيين بأنه لا يوجد في فطرة البشر أي ميـل نحو العدالة ، وقد جرّت فكرتهم هذه الـدنيا في نهـاية المـطاف إلى الدمـار ، فهم يقولون : إن العدالة من اختراع الضعفاء والعاجزين ، وذلـك من أجل مـواجهة الأقوياء ، فهم يـدّعون أن العـدالة شيء حسن ، وأن الإنسـان ينبغي أن يكون عادلاً في تعامله مع الآخرين . وهذا كلام فـارغ بدليـل أن الذين يـدافعون عن العدالة ويدعون إليها ، ما إن يمتلكون القوة حتى يفعلوا نفس مـا فعل الأقـوياء من قبلهم . يقـول الفيلسوف الألمـاني (نيتشه) : كـم حـدث لي أن ضحكت عنـدما كنت أرى الضعفـاء يتحدثـون عن العدالـة ويطالبـون بها ، وكنت أقـول لهـم : أيها المساكين ، لو كنتم تملكون مخـالباً لمـا تفوهتم بمثـل هذا الكـلام أبداً !

وهؤلاء الذين لا يؤمنون بـأن العدالـة جزء من الأمـور المودعـة في طبيعة البشر وفطرتهم ينقسمـون إلى فريقين : ففـريق يقولـون بأنـه لا ينبغي للبشر أن يسعى وراء العدالة حتى ولوبعنوان أمنية من الأماني ، بـل ينبغي أن يسعى وراء القوة لا غير . ويأتون بمثـل على فكرتهم مفـاده أن (القرن القصيـر أفضل من الذنب الطويل)، ويرمزون بالقـرن هنا إلى القـوة ، بينما يـرمزون بـالذنب إلى العدالة . ومن هذا الفريق (نيتشه) و (ماكيافيلي).

---

(١) فـردريك نيتشـه (ت ١٩٠٠ م) : ولد في مـدينة ريكن في (بـروسيا)، أثـر تأثيـراً عميقاً على فلسفة القارة الأوروبيـة وآدابها . وخـاصة في المـانيا وفرنسا ، كـان ابناً لكـاهن بروتستـانتي ، وحفيداً لكاهنين ، درس فقه اللغة ، وعين استاذاً في (بازل) في (سويسرة) عام (١٨٦٩ م)، وأصبح من الرعايا السويسريين . في الحرب الفرنسية البروسية (١٩٧٠ ـ ١٨٧١ م) خدم فتـرة قصيـرة تابعـاً طبياً للجـانب البروسي ، صادق ريتشارد فـاغنر (ولـد ١٨١٣ م) ، ولكنهما افتـرقا سريعاً لأن المترجم عقلي ، وذاك موسيقي . أولى مؤلفاته : « إنساني، إنساني إلى أقصى حد » عام (١٩٧٨ م) (الموسوعة الفلسفية المختصرة) .

(٢) ماكيافيلي (ت ١٥١٩ م) راجع مقدمة كتاب (الأمير) ـ ط . دار الآفاق ـ بيروت .

نظـرية (برتراند رسـل) :[3]

والفـريق الآخر لا يـوافق على ذلـك بـل يقـول : ينبغي السعي وراء العدالة ، ولكن ليس بصفتها هدفـاً ، بل لأن مصـالح الفـرد توجـد فيها . ومن هؤلاء (بـرترانـد رسل) الـذي يدعي بهـذا النمط من التفكير أنـه ـ أيضـاً ـ من أنصار الإنسانية وحب الإنسان ، وهو مجبور على مثل هذا الإدعـاء لأن فلسفته توجب عليه ذلك .

يقول هذا الفيلسوف البريـطاني : إنَّ الإنسان مفـطور بطبيعتـه على حب المصلحـة الشخصية ، وهـذا شيء مفروغ منـه ، ولا يقبل أي نقـاش . . إذن فماذا ينبغي أن نفعل من أجـل تطبيق العـدالة وسيـادتها في المجتمـع ؟ إننا لا يمكننا أن نفرض العدلة فرضـاً على الناس لأن طبيعتهم وفطرتهم لا تتـلاءم مع ذلك . نعم يمكننا أن نعمـل شيئاً آخـر ، وهو أن نقـوم بتنمية عقـل الإنسان ، وتقـوية علمـه ، إلى أن يصـل إلى مـرحلة نستـطيـع أن نقـول لـه فيهـا : أيهـا الإنســان ، صحيـح أن المصلحــة الشخصيـة هي التي تمتلك الأصــالـة في الحيـاة ، وليس لأحد أن يحـاول صرفـك عن السعي وراءهـا . ولكن إعلم إنْ مصلحتك الفردية لا يمكن تأمينها إلاّ عن طريق إيجـاد العدالـة في المجتمع ، ذلك أنك لا تمتلك دائماً من القوة في مقـابل الآخـرين ما يتيـح لك الحصـول على كـل مـا تـريـد عن طـريق البغي والعـدوان، لأنهم ســوف يـردّون على اعتدائك ، وبالتالي فبدل أن تحصل على المنفعة ، فسوف تصاب بالضرر .

نقـد هذه النظـريـة :

واضـح أن هذه النـظرية ليست سليمـة ، لأنهـا تصـدق على الضعفـاء ـ فقط ـ دون الأقوياء . والعلم في هذه النظرية يدفع الفرد إلى الإلتـزام بالعـدالة من أجل تأمين مصلحتـه الشخصية فقط ، فـإذا امتلك القدرة والقـوة التي تؤمن حصوله على مصالحه الشخصيـة بطريقـة مباشـرة . فإنَّ معـنى العـدالة ينعـدم تمـاماً بـالنسبة لـه في هذه الحـالة . ولهـذا فإن فلسفـة (برتـراند رسـل) على

---

(١) راجع ترجمة في الموسوعة الفلسفية المختصرة : ص ٢١٠ .

النقيض من كل شعاراته الإنسانية ، تعطي الحق لكل الأقوياء من الدرجة الأولى ، والذين لا يشعرون بأي خوف من الآخرين ، أن يرتكبوا بحقهم ما شاء لهم من الظلم والعدوان .

النظريـــة الماركسيـــة :

يذهب الماركسيون إلى أن العدالة شيء عمليّ ، ولكنها لا يمكن أن تتحقق عن طريق الإنسان ذاته ، لأنه لا يملك القدرة على إقامة العدالة . . فلا يمكن تربيته بحيث يكون راغباً في العدالة ، وطالباً لها بمعنى الكلمة ، ولا يمكن تنمية عقله وعلمه إلى الحد الذي يرى فيه بأن مصلحته الشخصية إنما توجد في العدالة . إذن كيف تتحقق العدالة ؟ إنها لا تتحقق إلاّ بواسطة (آلهة) الآلة والماكنة .

وبتعبير آخر : أيها الإنسان . . ليس لك أن تطلب العدالة وتسعى وراءها ، فهذا ليس من شأنك . وإذا تصورت بأنه يمكنك أن تصبح عادلاً فهذا تصور كاذب، لأنك بطبيعتك لست محباً للعدالة، وإذا فكرت بأن عقلك يمكن أن يرشدك في يوم من الأيام إلى طريقة لتطبيق العدالة عملياً فهذا تفكير باطل، لأن الآلة وحدها هي التي تستطيع أن تقود البشر إلى تطبيق العدالة بصورة تلقائية. فالتطورات التي تحدثها الوسائل الإقتصادية والإنتاجية توصل البشرية إلى دنيا الرأسمالية أولاً، ثم يتم الإنتقال بعد ذلك بصرة طبيعية إلى دنيا الإشتراكية حيث تقوم الآلة بإقرار المساواة والعدالة في المجتمع بصورة جبرية، شاء الناس أم أبوا، (طبعاً، أثبتت التجارب والأحداث فيما بعد، أن كثيراً من الحسابات التي توصل إليها الماركسيون كانت خاطئة، وغير عملية بالمرّة).

النظـرية الإسلامية :

أما النظرية الإسلامية فترى أن جميع تلك الأفكار والفلسفات إنما هي نوع من التشاؤم وسوء الظن بطبيعة البشر وفطرته، فإذا كانت البشرية اليوم تهرب من العدالة، فذلك لأنها لم تصل إلى مرحلة الكمال بعد. فالعدالة

مرتكزة في أصل خلقة البشر. وإذا رُبيّ الإنسان بصورة صحيحة وعلى يد (مربّ كامل) فإنه حتماً يصل إلى مرحلة يصبح فيها طالباً للعدالة بنفسه وبصورة واقعية، بحيث يفضّل العدالة الجماعية على المصلحة الشخصية، ويصبح حبّ العدالة عند شيئاً نابعاً من ذاته كحب الجمال مثلاً يندفع إليه بكل وجوده دون أن يجبره أحد، أو شيء على ذلك.

والواقع أن العدالة من مقولات الجمال ومصاديقه، الجمال المعقول وليس المحسوس طبعاً. ويخطىء الذين يزعمون بأن الإنسان بفطرته ليس مريداً للعدالة، ولا طالباً لها، وأنه لا يتقبلها إلا أن تُفرض عليه فرضاً، أو يدّعون بأن عقل البشر يجب أن يصل إلى مرحلة يرى فيها مصلحته الشخصية في العدالة، أو يعتقدون بأن تكامل الوسائل الإنتاجية هو الذي يؤدي إلى إقرار العدالة، بصورة تلقائية دون أن يكون للإنسان أي دور في ذلك.

كلا، فهناك أفراد بين البشر أثبت التأريخ أنهم كانوا يتمتعون بصفة العدل، حب العدالة ، دون أن يجبرهم شيء على ذلك ، أو يكون حافزهم تأمين منافعهم الذاتية ، بل على العكس من ذلك فكثيراً ما دفعتهم هذه الصفة إلى مخالفة هذا الحافز والعمل في اتجاه مضاد له . فالعدالة عندهم فكرة ، وأمنية ، وهدف ، بل هي أشبه بمحبوب يعشقونه ، ويضحّون بأنفسهم في سبيله . وهؤلاء كانوا نماذج للإنسان الكامل في العصول السابقة ، وإذا لم يمكن الوصول إلى درجتهم في هذا المجال ، فعلى أيّ حال يمكن لأي فرد أن يكون نموذجاً مصغراً لهم .

لقد كان علي بن أبي طالب (ع) واحداً من أبرز وأشهر تلك النماذج الرائعة ، حيث استطاع عملياً أن يثبت بطلان كل الفلسفات التي تدعي بأن العدالة شيء غريب عن فطرة الإنسان .

وعندما نضرب مثالاً بأمير المؤمنين (ع) فلا يتصور البعض بأن هذا الأمر منحصر في شخص واحد فقط ، كلّا ، فقد كان (ع) أستاذاً لمدرسة تلقّى فيها الكثيرون دروس العدالة ، وتخرجوا منها بتفوّق ، وساروا على هذا النهج طيلة حياتهم.

كما أننا نرى في كل العصور والأزمنة، وحتى في زماننا هذا، أفراداً يؤمنون بالعدالة بصورة واقعية، وقد مُزجت فطرتهم بحبها مزجاً، وسوف يكون إنسان العصور القادمة أيضاً كذلك.

التطبيق العملي للعدالة الكلية وكيفيته :

من البديهي أن العدالة شيء عملي وقابل للتطبيق، لأنها تتلاءم مع فطرة الإنسان أولاً، وتنسجم مع قوانين الكون والطبيعة ثانياً، ولكن تحقيق هذا الأمر يحتاج إلى وضع برنامج صحيح، والإشراف على إجرائه وتنفيذه بدقة وكفاءة عالية، ولن يتم بصورته الكاملة إلاّ في عهد صاحب الزمان (عج) فهو ذلك (المربي الكامل) الذي تنتظره البشرية جمعاء لترى تطبيق العدل الكلي، والعدالة الشاملة على يديه[1].

والغريب في الأمر أن هناك الكثيرين ممن يتصوّرون بأن مسألة ظهور الإمام الحجة (عج)، هي مسألة مساوية لإنحطاط العالم وتقهقر البشرية، ولكن القضية على العكس من ذلك، فهي عنوان الرقي الفكري، والأخلاقي، والعلميّ للبشر، وذلك بحكم كل الشواهد والأدلة التي وصلت إلينا عن طريق ديننا الذي يُحدّثنا عن موضوع ظهور الحجة (عج) وسيادة العدل الكلي الشامل في طول الدنيا وعرضها.

ففي أحاديث «أصول الكافي»[2] نقرأ بأنه عندما يظهر الحجة (عج)، فإن الله سبحانه وتعالى يمسح بيد قدرته على أفراد البشر فيزداد عقلهم، كما يزداد فكرهم وعملهم، بعد أن تُنزع من نفوسهم طبيعة الشر والعدوان، ولن يكون

---

(١) «... فيخرج (يعني المهدي - عج)، ويقتل أعداء الله، حيث ثقفهم، ويقيم حدود الله، ويحكم بحكم الله تعالى» (الأنوار البهية؛ ص ٣١٤).

(٢) أصول الكافي : هما المجلد الأول والثاني من كتاب (الكافي) لثقة الإسلام، أبي جعفر محمد بن اسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٨ / ٣٢٩ هـ)، الذي يتألف من سبعة مجلدات : الأصول (٢) - الفروع (٤) - الروضة (١) - والخبر الذي أورد المؤلف (رضوان الله تعالى عليه) مضمونه، مستمد من (الأصول من الكافي : ج ١ ص ٣٣٤).

هناك في الدنيا بعد ذلك ذئاب بشرية ، أي لن يكون هناك ظالم ومظلوم في هذا العالم ، وهذا هو دليل الرُقيّ الحقيقي ، والتكامل الواقعي للإنسان . وقبل أن أذكر جانباً من تلك الشواهد والأدلة التي أشرت إليها والتي تتعلق بسيادة العدالة في زمان الإمام المنتظر (عج) وتطبيقها بنجاح تام ، أود أن أتطرق قليلاً إلى مسألة طول عمر هذا الإمام الغائب (عج) .

مسألة عمر الإمام الحجة (عج)[1] :

عندما يطرح موضوع الإمام الحجة المنتظر (عج) ، فإن كثيراً من الناس يتساءلون : هل من الممكن أن يعمر الإنسان ألفاً ومائتي سنة ؟ أليس ذلك مخالفاً لقانون الطبيعة؟

إن هؤلاء يتصورون أن كل الأمور التي تحدث في هذه الدنيا تنطبق مائة بالمائة مع قوانين الطبيعة الإعتيادية أي مع تلك القوانين التي توصل إليها علم البشر . . في حين أن جميع التطورات الكبرى التي حدثت في تأريخ حياة جميع الموجودات الحية ـ من نبات وحيوان ـ لم تكن تطورات عادية . فهل أن انعقاد أول نطفة للحياة على وجه الأرض يتطابق مع أصول علم الحياة ؟ كلاّ ، فلم يكن ذلك متطابقاً مع أي قانون طبيعي في الأرض.

واستناداً إلى النظريات العلمية المعتبرة اليوم، فإن عمر أرضنا هذه يقدر بحوالي أربعين ملياراً من السنين ، حيث كانت الأرض في بداية أمرها كتلة مصهورة ملتهبة يستحيل على أي كائن حيّ أن يعيش فيها . ثم مدت مليارات

---

(١) الواقع أن هناك بحوثاً عديدة تعرضت إلى مسألة عمر الإمام الحجة (عج) لأنها تستوجب التوقف عندها في كل دراسة تتناول مسألة الظهور ، ويمكن العودة إلى : (المهدي الموعود للسيد عبد الحسين دستغيب ـ ط . دار التعارف ـ بيروت ـ المهدي المنتظر لأبي الفضل عبدالله بن الصديق الحسني الأدريسي ـ ط . عالم الكتب ـ بيروت . المهدي في القرآن لصادق الحسيني الشيرازي ط . دار الصادق ـ بيروت . والذي يلفت النظر ويؤكد اعتبار المسألة موضوع البحث ، هو البحث القيم والممتاز الذي تناوله السيد الشهيد السعيد محمد باقر الصدر في كتابه (بحث حول المهدي ط . دار التعارف ـ بيروت) (العسيلي) .

عديدة من السنين ، حتى بردت هذه الكتلة ، وظهر على سطحها أول موجود حي .

والعلم اليوم يقرّر بأن أي كائن حي لا بدّ أن يتولّد أو ينشأ من كائن حيّ آخر ، ولا يمكن أن يوجد كائن حيّ من كائن غير حيّ أبداً ، إلّا أنه لم يستطع إلى الآن أن يفسّر كيف وجد أول كائن حي على وجه الأرض ، وكيف انعقدت أول نطفة للحياة فيها .

وعندما يتجاوز العلم هذه النقطة ، فإنه يقع في الحيرة مرة أخرى . . ذلك أن العلم يقرر بأن أول خلية حية وجدت على وجه الأرض أخذت تنقسم ، وتتكاثر ، وتنتقل من مرحلة إلى مرحلة في التكامل والتطور إلى أن جاء وقت انشعبت فيه إلى فرعين رئيسيين ، ونشأت من ذلك المملكة النباتية والمملكة الحيوانية . . فكيف حصل هذا التطور الكبير الذي أدى إلى أن تنقسم الخلايا البدائية الأولى إلى فرع نباتي وفرع حيواني ، يكمل واحد منهما الآخر ، خصوصاً من ناحية امتصاص وإطلاق الغازات الموجودة في الجوّ ؟؟

وهكذا يواصل العلم حيرته في المراحل الأخرى ـ وخصوصاً في المرحلة التي وجد فيها الإنسان ، ذلك المخلوق العجيب الذي يتمتع بالعقل ، والفكر ، والإرادة ـ ويبقى عاجزاً عن إعطاء تفسيرات مقنعة لكل هذه الأحداث .

ثم هل إن مسألة الوحي مثلاً ، أمر عادي لا يلفت النظر ؟

هل إنَّ مسألة وصول إنسان ما إلى درجة يكون مستعداً فيها لاستلام تعليمات آتية من عالم ما وراء الطبيعة ، أقل شأناً . من مسألة بقاء فرد من الأفراد حياً لمدة ألف ومائتي سنة أو أكثر من ذلك ؟

كلّا ، بل يمكننا القول بأن مسألة طول عمر الإنسان شيء طبيعي لا يخرج عن دائرة القوانين الطبيعية ، بدليل أن العلم يسعى اليوم إلى ابتكار وسائل أو عقاقير تزيد في معدل عمر الإنسان .

فقانون الطبيعة لم يحدد رقماً معيناً لحياة الإنسان على وجه الأرض . . صحيح أن خلايا بدن الإنسان لها دورة حياتية محدودة ، ولكن هذا لا يكون إلّا في ظروف معينة ، وإذا اكتشف العلم في المستقبل العلاقة العلمية بين الظروف المحيطة ، ومدة دورة حياة خلايا الجسم الإنساني ، فلا يستبعد أن يتمكن الإنسان إنئذٍ أن يعيش خمسمائة سنة ، أو ألف سنة ، وربما أكثر !

أضف إلى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد بيّن عبر الكثير من آياته الكونية بأن هناك أشياء تحدث في هذه الدنيا ، وفي بعض المراحل المعينة ، ويكون ذلك أشبه شيء بيد تخرج من وراء الغيب فتحدث تطورات خارقة في الحياة لا تنطبق مع قانون الطبيعة أصلاً ، ولا يمكن التنبوء بها مسبقاً . .

فسواء درسنا المسألة من الناحية العلمية ، أم من الناحية الغيبية ، فإنّ موضوع طول عمر صاحب الزمان (عج) لا يحتاج إلى أي تشكيك ، أو إرتياب ، خصوصاً بعد أن صرحت الأحاديث والروايات الدينية بذلك . إنّ إحدى وظائف الدين هي أن يفتح عقل الإنسان ، ويخرج تفكيره من الدائرة الضيقة للأحداث العادية المألوفة التي يراها في حياته اليومية .

والآن نعود إلى موضوعنا الذي كنّا نتحدث فيه . .

خصائص عهد الإمام المهدي (عج) من خلال النصوص الدينية :

يتفق علماء الشيعة والسنّة على هذا الحديث الشريف المنقول بالتواتر عن رسول الله (ص) حيث يقول فيه : « لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد ، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي »[1] . إذن فلا يوجد أدنى ريب في أن ظهور صاحب الزمان (عج) أمر حتمي قضاه الله سبحانه وتعالى ، ولا يمكن أن ينقضي عمر الدنيا إلّا إذا تحقق هذا الأمر .

---

(١) راجع الفردوس بمأثور الخطاب لشيرويه الديلمي (ت ٥٠٩ هـ) : ج ٣ ص ٣٧٢ ـ الفوائد المجموعة : ص ٣٣٦ ـ الإحياء : ج ٣ ص ١٥٧ ـ الأتحاف : ج ٧ ص ٥٧٢ ـ كنز العمال : رقم الحديث : ٣٢٧٦١ . عقد الدرر للسلمي : ص ٣٢ .

ولـذلك فـإن انتـظار ظهـور الحجـة (عـج) لا يختص بـالشيعـة فقط بـل يشاركهم في ذلك أهل السنّة حيث يـروون من طرقهم الكثيـر من الأحاديث في هذا الباب .

ويقول النبي (ص) في حديث آخـر (مبيّناً كيف أنـه يرى بـوضوح ذلـك العهد الذي تتكامل فيه البشرية وتصل إلى رقيّهـا المنشود) : « المهـدي يبعث في أمتي على اختلاف من الناس والزلازل»[1] (أي إنه يظهر في ظـرف يكون فيه بين أفراد البشر اختلافات ونزاعات شديدة ، ولا يقصد بالزلازل هنـا الزلازل الأرضية الطبيعيّة ، بل المقصـود تلك الأخطار النـاشئة عن الأعمـال المنحرفـة للبشر ، والتي تهدّد بتدمير الأرض تدميراً شاملاً) . .

« فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً » : (من البديهي أن هذا العمل لن يتم بالإكراه والإجبار ، بدليل الفقرة التالية من الحديث) . .

« يـرضى عنـه سـاكن السمـاء وسـاكن الأرض » (أي إن حكمـه سـوف يُرضي جميع الموجودات التي تقول يومئذ بلسان الحال : الحمد لله الذي رفع به عنّا شر الظلم والجور نهائياً) .

ثم يقـول (ص): « يقسم المال صحـاحاً » فيقـول الأصحاب : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ فيقول (ص): « يقسم بالعدل والسوية » .

ويواصل (ص) حديثه فيقول : « ويملأ الله به قلوب أمة محمد (ص) غنى ، ويسعهم عـدلـه » (هنـا إشـارة إلى الغنى المعنـوي)، أي أن القلوب سوف تملأ بالصفات العالية ، وتنظف من الصفات الدنيئة كالبخل ، والطمع ، والحقد، والحسد ، وغير ذلك من الأشياء التي تشعر الإنسان بـالفقر وإن كـان جيبه مملوءاً بالمال.

ويقـول أميـر المؤمنين (ع) في « نهـج البـلاغـة»[2] مشيـراً إلى عهــد الظهور :

---

(١) عقد الدرر : ص ٤٣ وأحاديث متفرقة فيما بعدها .

(٢) المعجم المفرس لنهج البلاغة : ص ٤٨ .

« **حتى تقوم الحرب بكم على ساق** » (أي تشتد الحروب وتدوم ردحاً من الزمن) .

« باديأ نواجذها » (أي مكشرة عن أنيابها كالسباع المفترسة ، وذلك كناية عن كثرة الفتك والقتل بين الناس) .

« **مملوءة أخلافها** » : (أي أثداؤها) .

« **حلواً رضاعها ، علقماً عاقبتها** » : (أي إنَّ تجار الحروب والإنتهازيين يتوقعون الفوائد العظيمة، والمكاسب الكثيرة لأنفسهم من وراء تلك الحروب ، ولكنهم في النهاية لا يجدون إلاّ طعم الخسائر المرّ كمرارة العلقم).

« ألا وفي غدٍ، وسيأتي غد بما لا تعرفون »: (أي اعلموا إنَّ المستقبل سوف يكون مليئاً بالأحداث التي لا تتوقعونها) .

« **يأخذ الوالي من غيرها عمّالها على مساوي أعمالها** » : (أي إنَّ أول عمل يقوم به ذلك « الوالي الإلهي » هو عزل الحكام الظالمين في الأرض ، واحداً بعد واحد ، ونصب أعوانه الصالحين مكانهم ، فتنصلح الدنيا تبعاً لذلك) ،

« **وتخرج الأرض له أفاليذ أكبادها** » : (أي كل ما أودع الله سبحانه فيها من الخيرات والمواهب والمعادن التي لم تخرجها حتى ذلك الوقت) .

« **وتلقي إليه سلماً مقاليدها** » : (أي أنه لن يبقى سر من الأسرار العلمية المتعلقة بالأرض إلاّ ويكشف على يدي المهدي المنتظر (عج)).

« **فيريكم كيف عدل السيرة** » . (أي كيف تكون العدالة الحقيقية ويثبت بذلك زيف كل هذا الضجيج الإعلامي في العالم حول حقوق البشر والحرية والسلام. . . الخ) .

« **ويحيي ميت الكتاب والسنّة** » : (أي يعيد إلى الحياة قوانين القرآن

والسنّة النبوية المحمدية، التي بقيت متروكة ومهجورة مدّة طويلة من الزمن حتى كادت أن تندثر) .

ويقول (ع)في حديث آخر :

« **إذا قام القائم حكم بالعدل** »[1] (لما كان لكل واحد من الأئمة المعصومين (ع) لقب يُعرف به بين الناس ، ويكون مشتقاً من صفة أساسية تظهر فيه أكثر مما تظهر في غيره ، فإن الإمام المنتظر له لقب مأخوذ من صفة القيام أي النهوض والثورة ، فهو يلقب (بالقائم) أي إنه إذا ظهر فإنه سيعلنها ثورة مستمرة لا هوادة فيها، ولا مهادنة إلى أن يصل إلى هدفه وهو إقرار العدالة في كل العالم ، ولذلك فإنه (عج) يعرف بصفتي القيام والعدل) .

« **وارتفع في أيامه الجور** » . (أي تنعدم هذه الصفة الذميمة من بين الناس) .

« **وأمنت به السُبل** » : (فعندما تقوم العدالة الحقيقية في العالم ، تنعدم أسباب الخوف والقلق ، ويعمّ الأمن أرجاء المعمورة) .

« **وأخرجت الأرض بركاتها** » : (هذه هي جائزة الله سبحانه للناس عندما يقومون بالقسط ، ويرضون بحكم العدالة) .

ولا يجد الرجل منكم يومئذٍ موضعاً لصدقته ، ولا برّه، وهو قوله تعالى : ﴿ **والعاقبة للمقتين** ﴾[2].

وهكذا تتحدث الكثير من الروايات الإسلامية المتعلقة بزمان الظهور عن السلام والوئام ، وعن الأمن والإزدهار ، وعن البركة والوفرة ، وعن زوال الرذائل والمفاسد من شرب الخمر والزنا . . الخ ، وعن تكامل الإنسان معنوياً بحيث ينفر بطبعه من الكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والبهتان ، وما أشبه ، وكل هذه الأشياء مبنيّة كما ذكرنا سابقاً على أساس فلسفة الإسلام الذي يرى

---

(١) المعجم المفهرس : ص ٢٤ .

(٢) سورة الأعراف، الآية : ١٢٨ .

بأن عاقبة البشرية هي العدالة التامة الشاملة . ولكنه لا يوافق الفكرة القائلة بأن تلك العدالة التي سوف تأتي تعني أن تفكير الإنسان سوف يصل إلى مرحلة يقتنع فيها بأن منفعته هي في حفظ منافع الآخرين . ففي ذلك الزمان الموعود تصبح العدالة بالنسبة للإنسان بمثابة محبوب يعشقه ، وذلك عندما ترتقي روحه ، وتصل تربيته إلى حدّ الكمال، وهذا لا يحصل إلا إذا وجدت حكومة مبنية على أساس الإيمان والتوحيد ، ومعرفة الله ، وتطبيق التعاليم القرآنية .

ونحن ـ معاشر المسلمين ـ سعداء لأننا على العكس من كل هذا التشاؤم الموجود في دنيا الغرب، فإننا نمتلك عقيدة متفائلة جداً بمستقبل البشرية .

يقول (برتراند رسل)[1] في كتابه « الآمال الجديدة » : « إن غالبية العلماء الغربيين قد قطعوا آمالهم من المستقبل، وهم يعتقدون بأن العلم قد وصل اليوم إلى مرحلة أصبح يهدد فيها البشرية بالدمار الوشيك . ومن هؤلاء العلماء (اينشتين)[2] الشهير الذي يصرح بأن الإنسان أخذ اليوم يحفر قبره بيديه ، فلم يعد الأمر يحتاج إلى أكثر من الضغط على زرّ واحد ، حتى تكون الأرض ومن عليها في خبر كان ! »

ونحن لو لم يكن عندنا اعتقاد بالله ، وبالقدرة الغيبية الإلهية ، ولو لم يطمئننا القرآن بشأن مستقبل البشرية ، لكنا مجبورين على أن نعطي الحق لهؤلاء المتشائمين ، لأن الحرب العالمية الثالثة عندما تنشب ـ لا سمح الله ـ فإن الأسلحة الاستراتيجية المتطورة المكتظة بها ترسانات الدول (المتقدمة) لن تدع مجالاً بحيث يكون هناك غالب ومغلوب ، بل سيكون مصير جميع شعوب العالم بلا استثناء هو الدمار والفناء .

ونحن نعتقد مطمئنين بأنه حتى لو حصلت مثل هذه الإنزلاقات الخطرة،

---

(١) سبق وأشرنا إلى مصدر ترجمته.

(٢) اينشتين : صاحب نظرية (النسبية): البرت اينشتاين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥ م) : فيزيائي اميركي ، ولد في المانيا ، وضع النظرية النسبية الخاصة، ثم العامة في الزمان (١٩١٦ م) . حائز على جائزة نوبل في الفيزياء ١٩٢١ م) . (المنجد في اللغة والإعلام).

فإنّ يد الله فوق كل شيء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾[1].

ولقد قيل بأن أفضل الأعمال هو انتظار الفرج ، أي التفاؤل بمجيء الفرج الشامل والنهائي . والسبب في ذلك هو أن هذا الأمر يرمز إلى المستوى العالي للإيمان بالله تعالى ، والثقة التامة بوعده . جعلنا الله من المنتظرين الحقيقيين لفرج إمام زماننا (عج)، ووفقنا لإدراك دولة الحق والعدل التي سوف تقوم بإذن الله على يديه الشريفتين . .

« اللهم إنّا نرغب إليك في دولة كريمة تعزّ بها الإسلام وأهله وتذلّ بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك ، وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة »[2].

القسم الثاني : المهدي الموعود :

يدور البحث في هذا القسم حول مسألة المهدوية ـ أي الإعتقاد بحتمية ظهور المهدي الموعود . وقد يتصور البعض ممن يفتقرون إلى الاطلاع الكافي ـ وخصوصاً من الذين لا يعتقدون بأصول مذهب التشيع ـ بأن هذه المسألة لم تظهر إلى الوجود إلاّ في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وبالتحديد بعد ولادة الإمام الحجة المنتظر (عج) . ولإثبات خطأ هذا التصور ، أريد أن أبيّن هنا من أين وكيف ظهرت هذه المسألة ؟ وسواءً أكانت بصورتها الكاملة المفصلة ، أم بصورتها الإجمالية المقتصرة على الإشارة والإلماع .

المهدوية في القرآن والأحاديث الشريفة :

أولاً : توجد هذه المسألة في القرآن الكريم بصورة بشارة عامة ومؤكدة . أي إنَّ من يتدبر في الآيات القرآنية ، يرى أن طائفة منها تذكر تلك

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣ .

(٢) من دعاء الإفتتاح وهو مروي عن صاحب الأمر (عج) .

النتيجة المترتبة على ظهور الإمام المهدي (عج)، على أنها أمر قطعي لا بدّ أن يحدث في المستقبل . ومن جملتها هذه الآية الكريمة على سبيل المثال : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ، أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾[1] . ويذكر المفسرون أن المقصود (بالذكر) هنا هو التوراة[2]، والآية صريحة في بيان حتمية هذا الأمر ، أي لقد قضينا قضاءً مبرماً، بأنه سيأتي يوم على البشرية، يمسك فيه عباد الله الصالحون بزمام الأمور في طول الأرض وعرضها. فالأرض لن تبقى إلى الأبد تحت سيطرة الجبارين والظالمين ، وسوف تقوم دولة الحق العالمية الدائمة، بعد زوال دولة الباطل المؤقتة .

وتذكر آية اخرى هذه البشارة القطعية الإلهية بأن دين الإسلام المقدس سوف يكون دين البشرية جمعاء ، في حين أن تمام الأديان الأخرى سوف تزول ـ أو لا أقل ـ تضمحلّ وتنزوي جانباً . وتحقيق هذا الوعد بأبعاده الكاملة لا يتم إلّا في زمان ظهور الحجة (عج) ، فيخضع أهل الأرض جميعاً لدين الإسلام ، ويصبح الدين المحمدي الدين العالمي السائد في كل الكرة الأرضية[3] . وهناك آيات كثيرة أخرى في هذا المجال، تحتاج إلى بحث مفصل خاص لا يسعنا التعرض لها هنا .

ثانياً : وإذا ضربنا صفحاً عن الآيات القرآنية ، فإننا نواجه عالم الأحاديث النبوية الشريفة . فهل يا ترى ذكر نبي الإسلام (ص) شيئاً في هذا الباب أم لا ؟

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية: ١٠٥ .

(٢) قال الفيض الكاشاني في (تفسير الصافي) وهو متوفى (١٠٩١ هـ) في تفسير (الذكر) : الكتب كلها ذكر. (الصافي : ج ٢ ص ٣٥٧) ـ وقال جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في تفسير (الذكر) : التوراة. (الكشاف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل ، في وجوه التأويل : ج ٢ ص ٥٨٦ .

(٣) يمكن العودة إلى كتاب (المحجة في ما نزل في القائم الحجة) للسيد هاشم البحراني لتجد فيه الآيات والأخبار التي تؤكد ما أورده المؤلف الأستاذ (رضوان الله تعالى عليه) .

ولـو كانت الـروايات المتعلقـة بالمهـدي الموعـود منحصرة في روايـات الشيعة فقط ، لكان هناك مجال للشكّاكين أن يقولوا معترضين : لو كانت مسألة المهدي الموعود مسألة واقعية ، لكان ينبغي للنبي (ص) أن يبينها في أحاديثه الشريفة . ولو كانت للنبي (ص) أحـاديث في هذا المعنى لتنـاقلتها بـالروايـة سائر الفرق الإسلامية، ولما اقتصر على روايتها الشيعة فقط.

ولحسن الحظ ، فإنَّ هذا هو الواقع ، لأنَّ روايات باب المهدي المـوعود التي يتناقلها أهل السنّة إن لم تزد على روايات الشيعـة فإنهـا لا تقل عنهـا على أي حال[1].

وهناك كتب كثيرة موضوعة لهذا الغرض بالذات ، من جملتها كتـابان تمّ تأليفهما في (قم) في الفتـرة الأخيرة . . الكتـاب الأول بعنوان « المهـدي » وهو باللغة العربية وبقلم المـرحوم آيـة الله الصدر (أعلى الله مقـامه)[2] . وقـد نقل المؤلف كـل الروايـات التي أوردهـا في الحـديث عن المهـدي المنتـظر، عن طريق أهل السنّة. والكتاب الثاني بعنوان « منتخب الأثر»[3] وقد تمّ تأليفه بأمر من المـرحوم آيـة الله السيد البـروجردي (رض)، وبقلم أحـد فضـلاء الحـوزة العلمية البارزين في (قم) وهو الشيخ آقا ميرزا لطف الله الصافي . وعند مطالعة هذا الكتاب يجد القارىء الكثير من الروايات المنقولـة عن طريق أهـل السنّة، والتي تتحدث عن هذا الموضوع بمضامين وتعابير مختلفة .

---

(١) يمكن العودة إلى (عقد الدرر في أخبار المنتـظر) ـ ليوسف بن عبد العزيـز المقدسي الشـافعي السلمي ، وهو من علماء القرن الرابع الهجري ـ طـ . دار الكتب العلمية ـ بيروت. وكما يمكن العودة إلى كتاب (البرهان في عـلامات مهـدي آخر الـزمان ـ لعلي بن حسـام الدين ، الشهيـر بـ (المتقي الهندي الجـويـوري ، المتوفى سنة ٩٧٥ هـ) ـ تحقيق علي أكبر غفـاري ـ مطبعـة الخيام ؟ قم ١٣٩٩ هـ وهذين الكتابين في مكتبتنا وهما يشيران إلى أسماء كتب كثيرة عنـد أهل السنّة والجماعة مؤلفة حول وجود وظهور وعلامات صاحب الزمان (عج) .

(٢) سبقت الإشارة إلى كتاب آية الله الصدر (أعلى الله مقامه).

(٣) منتخب الأثـر في الإمام الثـاني عشـر (ع) ـ تـأليف لـطف الله الصـافي الكلبـايكـاني ـ طـ ٢ ـ مصطفوي / قم .

ولا بأس هنا أن نشير إلى حديث لأمير المؤمنين (ع) في (نهج البلاغة) وهذا الحديث ـ كما سمعت شخصياً من المرحوم آية الله البروجردي ـ متواتر، أي إنه لم يرد في كتاب « نهج البلاغة » فقط ، وإنما ورد أيضاً في مراجع تأريخية أخرى. وموضع الشاهد من هذا الحديث هو آخره ، حيث يلمح أمير المؤمنين (ع) في بعض جمل إلى مسألة المهدي الموعود (عج) فيقول :

« اللهم بلى ، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، إما ظاهراً مشهوراً ، وإما خائفاً مغموراً . لئلا تبطل حجج الله وبيّناته . يحفظ الله بهم حججه وبيّناته ، حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم »[1].

وفي هذه الكلمات إشارة إلى ضرورة وجود المهدي المنتظر ، وهو آخر حجج الله ، وإن كان غائباً عن أعين الناس ، ومختفياً عنهم لحكمة معيّنة. وفيها كذلك إشارة إلى ضرورة ظهوره وإن طالت مدة غيبته ، وذلك عندما تتوفر شرائط معينة بحيث يلزم الأمر حفظ حجة الله على عباده، والحيلولة دون بطلانها.

(المهدوية) من الناحية التأريخية :

تعمدت الإيجاز في استعراض الآيات القرآنية والروايات الشريفة المتصلة بمسألة المهدي المنتظر (عج)، وذلك لأني أريد أن أركز على هذا البحث من الزاوية التأريخية، فأبيّن جانباً من الآثار التي تركتها هذه المسألة على تأريخ الإسلام.

فعندما نطالع التأريخ الإسلامي، نجد أنه فضلاً عن الروايات الواردة في هذا المجال، والمنقولة عن النبي الأكرم (ص)، أو عن أمير المؤمنين (ع)، فإنه منذ النصف الثاني للقرن الهجري الأول ، أصبحت الأخبار والتنبؤات المتعلقة بمسألة المهدي الموعود سبباً لبروز حوادث كثيرة في تأريخ الإسلام؛ ، وذلك بأن أخذ البعض يسيئون الإستفادة من أحاديث

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة : ص ١١٢ .

الرسول (ص) وما فيها من البشارة بظهور (المهدي)، وهـذا بحد ذاتـه دليل على وجود جذور لهذه المسألة، وإلّا لم يكن هناك مبرر لبروز تلك الحوادث .

قيام (المختار)[1] والإعتقاد بالمهدوية :

إن أول أثر ظهر في تأريخ الإسلام لعقيدة المهدوية، كان في قصة انتقام المختـار من قتلة الإمام الحسين (ع) وليس هنـاك شـك في أن المختـار كـان رجلًا سياسياً محنكاً ، أكثر من كونـه رجل دين ومـذهب. طبعاً لا أريـد هنا أن أحكم على المختار بأنه كان إنساناً خيّراً أم شريراً ، ولكنه على أي حال ، كان يعلم جيداً بأن هدفه وإن كـان الإنتقام من قتلة سيـد الشهداء (ع). وهـذا مما يوفر له أرضية شعبية مساعـدة ، إلّا أن الناس لم يكـونوا مستعـدين للقيام بهـذا العمل تحت قيادته . وعلى إحدى الـروايات ، فقـد حاول المختـار أن يحصل على دعم الإمـام زين العابـدين (ع)[2] في هـذا الأمـر ، ولكنـه لم يـوفق في

---

(١) المختـار بن أبي عبيد بن مسعـود الثقفي ، أبو إسحـاق (ت ٦٧هـ) : من زعماء الثائرين على بني أميـة ، وأحد الشجعـان الأفذاذ من أهـل الطائف. تـوجه أبـوه إلى العـراق فـاستشهـد يـوم الجسـر ، وبقي المختار في المـدينة منقـطعاً إلى بني هـاشم ، كان مـع علي (ع) بالعـراق ، وسكن البصـرة بعد علي (ع). ولمـا قتل الحسين (ع) سنـة (٦١ هـ) انحـرف المختـار عن عبيـدالله بن زياد (أميـر البصرة) ، فقبض عليـه ابن زياد، وجلده وحبسـه ، وأطلقه بشفـاعـة، عبدالله بن عمر صهـره . دخل الكـوفة بعـد موت يـزيد بن معـاوية، ودعـا إلى إمامـة محمد بن الحنفية. قتل كثيراً من الذين قـاتلوا الحسين (ع). قتله مصعب بن الزبيـر . وفي (الإصابـة (وهو من غريب المصادفات : أن عبد الملك بن عمر ذكر أنه رأى عبيدالله بن زياد وقـد جيء إليه بـرأس الحسين (ع) ثم رأى المختار وقد جيء إليه برأس عبيدالله بن زياد، ثم رأى مصعب بن الزبير وقـد أتي برأس المختـار ، ثم رأى عبد الملك بن مـروان وقد حمـل إليه رأس مصعب . (الإصابة : رقم التـرجمة ٨٥٤٧ ـ الفـرق بين الفرق : ٣١ ـ ٣٧ ـ ابن الأثيـر : ج ٤ ص ٨٢ ـ الـطبـري : ج ٧ ص ١٤٦ ـ فـرق الشيعـة : ص ٢٣ ـ الأعـلام : ج ٧ ص ١٩٢ ـ الأخبـار الطوال : ص ٢٨٢ ـ القاموس : كيسان) .

(٢) يقول المسعودي : « . . . وكتب المختار كتاباً إلى علي بن الحسين السجاد يريده على أن يبايع له ، ويقول بإمامته ، ويظهر دعوته ، وأنفذ إليه ما لا عظيماً ، فـأبى علي أن يقبل ذلـك منه ، أو يجيبه عن كتابه. . . وأظهر كذبه وفجوره ودخوله على الناس بإظهار الميـل إلى آل أبي طالب . فلمـا يئس المختار من علي بن الحسين كتب إلى عمـه محمد بن الحنفيـة ، يـريـده على مثـل =

ذلك ، فلم يجد أمامه إلاّ أن يستغل مسألة الإمام المهدي الموعود الذي أخبر به رسول الله (ص)، فطرح اسم محمد بن الحنفية وهو ابن أمير المؤمنين (ع) وأخو الإمام الحسين (ع)، على أنه هو الإمام المهدي المنتظر الذي بشر به رسول الله (ص)، وأعلن نفسه نائباً لذلك الإمام .

وظل المختار مدّة من الزمان يلعب لعبته السياسية تحت عنوان نيابة المهدي أي بصفته نائباً لمحمد بن الحنفية .

والسؤال هنا : هل إنَّ محمد بن الحنفية كان مقتنعاً حقاً بأنه المهدي الموعود ، وهل إنه هو الذي نصّب المختار نائباً عنه ؟

يقول البعض : نعم ، كان الأمر هكذا في الظاهر، ولكن الدافع الحقيقي لقبول محمد بن الحنفية بهذا الأمر ، هو فقط تهيئة الأرضية من أجل الإنتقام والأخذ بالثأر من قتلة الإمام الحسين (ع)، ولكن هذا غير ثابت بالطبع . وبعد أن مات محمد بن الحنفية قال جماعة المعتقدين به : إن المهدي الموعود لا يمكن أن يموت حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً . إذن فمحمد بن الحنفيّة لم يمت في الواقع ، وإنما اختفى في جبل (رضوى)[1]، ومن هنا ظهر إلى الوجود مذهب (الكيسانية)[2].

= ذلك ، فأشار عليه علي بن الحسين أن لا يجيبه إلى شيء من ذلك ، فإنه الذي يحمله على ذلك اجتذابه لقلوب الناس بهم ، وكفر به إليهم عجبتهم ، وباطنه مخالف لظاهره في الميل إليهم ، والتولي لهم ، والبراءة من أعدائهم بل هو من أعدائهم لا من أوليائهم ، والواجب عليه ، أن يشهر أمره ، ويظهر كذبه . . . » (مروج الذهب : ج ٣ ص ٢٧٢) .

(١) يقول كثير عزّه :

وسبط لا تراه العين حتى	يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيها زماناً	بـ (رضوي) عنده عسل وماء

(راجع مروج الذهب : ج ٣ ص ٢٧٧) .

(٢) الكيسانية : وهم القائلون بإمامة محمد بن الحنفية . وقد تنازعت الكيسانية من بعد قولهم بإمامة محمد بن الحنفية : فمنهم من قطع على موته ، ومنهم من زعم أنه لم يمت ، وأنه حي في جبال (رضوي). وإنما سموا بـ(الكيسانية) بإضافتهم إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي ، =

كلمـــة الـزهـــري[1] :

يذكر أبو الفرج الأصفهاني في « مقاتـل الطالبيين » ، أنـه لما وصـل خبر شهـادة زيد بن علي بن الحسين[2] إلى الـزهري ، قـال : « لماذا يتعجـل أهل هـذا البيت ؟ فسوف يـأتي يوم يـظهر المهـدي الموعـود منهم »[3]. وفي هـذا التصريح دلالة واضحة على أن هذا الأمر كـان شيئاً مسلمـاً به بين المسلمين ، بحيث أن الـزهري أخـذ على العلويين قيامهم بـالثورات وإراقـة دمائهم ، ولـو أنهم صبـروا ، وانتظروا وعـد رسول الله (ص)، لكفـاهم المهـدي المـوعـود مؤونة هذا الأمر. طبعاً، انتقاد الزهري غير صحيح في نظرنا، ولكن الشاهد هو تسليمه بمسألة المهدي الموعود.

= وكان اسمه (كيسان) ، ويكنى أبا عمرة ، وأن علي بن أبي طالب سماه بذلك ، ومنهم من رأى أن كيسان أبا عمرة هو غير المختار ، (راجع مروج الذهب : ج ٣ ص ٢٧٦) .

(١) الزهري : ولد محمد بن مسلم بـن كلاب بن مرة القـرشي الزهـري سنة (٥٨ هـ)، وكـان أبوه مسلم مـع مصعب بن الزبيـر ، وجده عبيـدالله مع المشـركين يوم بـدر ، ولم يزل هـو مـع عبـد الملك بن مروان ، وهشام بن عبدالملك وفي البداية جعله هشام معلماً لأولاده، كان عاملاً لبني أمية. توفي سنة (١٢٤ هـ) ودفن في ضيعته (أدامي) خلف وادي القرى .
(راجع مجموعة شيخ ورام : ص ٣٠٦ ـ تاريخ ابن كثير : ج ٩ ص ٣٤٠ ـ تهذيب التهـذيب : ج ٩ ص ٤٤٩ ـ التهـذيب للشيخ الـطوسي : ج ٢ ص ٤٣٥ ـ الإمـام زين العـابـدين (ع) للمقرم : ص ١٥٤) .

(٢) كان للإمـام زين العابـدين (ع) ولد بـاسم زيد . وقـد قام زيـد هذا بثـورة في زمان العبـاسيين واستشهـد. وفيما يتعلق بكـون هذا الـرجـل على الحق أم لا ؟ كـلام كثيـر ، ولكن يستفـاد من روايات الشيعة أن أئمتنا (ع) كانوا يجلونه وجاء في رواية « الكـافي » أن الإمام الصـادق (ع) قال : « أقسم بالله تعالى أن زيداً فارق الدنيا شهيداً » . ويعتقـد الشيعة الـزيديـون الموجـودون الآن في اليمن أن زيداً هذا هو الإمام من بعد أبيه زين العـابدين (ع). وقـد كان زيـد على أيّ حال رجلاً تقياً زاهداً حسن السيرة . وتقرر رواياتنا بأن قيامـه كان قيـام أمر بـالمعروف ونهي عن المنكر ، ولم يكن لديه أيّ ادعاء للإمامة .

(٣) لا بد من التنبيه هنـا إلى أنه منـذ صدر الإسـلام، لم يعيّن ـ أبداً ـ زمـان ظهور المهـدي (ع). طبعاً هناك بعض الخـواص والمقربين إلى أهـل البيت يعلمون سلسلة نسبـه وعلامـات ظهوره ، ولكن لا يوجد في الروايات المنقولة عن النبي (ص) ما يشير إلى تأريخ هذا الظهور أبداً .

قيام (النفس الزكية) ، والإعتقاد المهدوية :

كما ذكرنا في فصل سابق ، كان للإمام الحسن المجتبى (ع) ولد باسم الحسن أيضاً ، ولهذا كان يسمى بالحسن المثنى وقد صاهر الإمام الحسين (ع) بالزواج من ابنته فاطمة بنت الحسين ، فُولد له ولد باسم عبدالله ، الذي لُقب بعبد الله المحض ، دلالة على نسبه الخالص . وكان لعبد الله المحض ولد باسم محمد ، وآخر باسم إبراهيم . وكان زمان هذين مقارناً لأواخر العهد الأموي . وكان محمد بن عبدالله المحض ، رجلاً عظيم المنزلة والشرف، ولذلك لقّب بـ (النفس الزكية) .

وفي الأيام الأخيرة من عهد الأمويين اجتمع السادات الحسنيون مع جماعة من كبراء العباسيّين ، وبايعوا (النفس الزكية) على أنه مهدي الأمة . ثم استدعوا الإمام الصادق (ع) باعتباره زعيم السادات الحسينين ، وطلبوا منه أن يبايع هو أيضاً . ولكن الإمام (ع) قال لهم : ما هو هدفكم من وراء هذا الأمر ؟ إذا كان محمد يريد القيام بعنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأنا معه . أما إذا كان يريد القيام بعنوان أنه مهدي هذه الأمة، فإنه مخطىء في ذلك، ولن أبايعه على هذا الأساس[1] .

وربما كان الأمر مشتبهاً حتى على محمد بن عبدالله المحض نفسه ، لوجود التماثل بين اسمه واسم النبي (ص)، ووجود خال على كتفه ، كما كان لرسول الله (ص)، وكان الناس يسمون هذا الخال (خاتم النبوة) . ولهذا كانت بيعة كثير من الذين بايعوه مبنيّة على أساس أنه المهدي الموعود.

ومن ذلك يمكن الإستنتاج بأن مسألة (المهدي الموعود) كانت متجذرة في نفوس المسلمين وأفكارهم ، بحيث أن أي أحد كان يعلن القيام والثورة، مع وجود مسحة من الصلاح والتقوى عليه، فإن المسلمين كانوا يقولون : هذا هو المهدي الذي أخبر به رسول الله (ص)!

---

(١) سبق أن أشرنا في هامش سابق اجتماعهم بالأبواء فراجع . (راجع مقاتل الطالبيين : ص ٢٠٧) . (العسيلي) .

حيلة الخليفة العباسي (المنصور) :

كان ثالث الخلفاء العباسيين يدعى (المهدي) وهو ابن (المنصور الدوانيقي). ويذكر المؤرخون ومن جملتهم (دار مستر) بأن هذا الخليفة العباسي سمّى ابنه بهذا الاسم لهدف سياسي ماكر، وهو أن يثبت قاعدته الشعبية، ويستميل الناس إليه ، بواسطة إقناعهم بأن المهدي الموعود الذي ينتظرونه ما هو إلاّ ابنه (المهدي) هذا . ولهذا ذكر صاحب « مقاتل الطالبيين » وآخرون غيره بأن المنصور كان يعترف أحياناً في لقاءاته مع خواصه ومقرّبيه بكذب هذا الإدعاء .

فمثلاً عندما التقى مرّة بمسلم ابن قتيبة وكان من المقربين إليه ، قال له : ماذا يقول محمد بن عبدالله المحض هذا ؟ قال : يقول أنا مهدي هذه الأمة . قال : إنّه مخطىء فلا هو مهديّ الأمة، ولا ابني هذا[1] .

ومثل هذه الحوادث تبيّن أن روايات المهدي المنتظر، كانت كثيرة ومتداولة بين الناس، وكان مما يسبب لهم الوقوع في الأخطاء والإشتباهات أنهم لم يكونوا يحققون جيداً ، لكي يتبيّنوا توافر جميع الأوصاف والعلامات التي ذكرتها الروايات النبوية، فكانوا ينخدعون، أو يتسرّعون في الحكم بأن فلاناً من الناس هو صاحبهم الموعود !

محمد بن عجلان ، والمنصور العباسي :

كان أحد فقهاء (المدينة) ويدعى محمد بن عجلان ، من الذين بايعوا محمد بن عبدالله المحض ، وكان بنو العباس من المؤيدين لهذه البيعة في البداية، ولكنهم لما استولوا على الخلافة، أخذوا يقتلون أولئك الذين بايعوهم بالأمس من السادات الحسنيين ، وكذلك كل من كان يؤيدهم . وكان أن استدعى (المنصور) هذا الفقيه ، وحقق في أمره ، فثبت عنده أنه بايع (محمد بن عبدالله)، فأصدر أمراً بقطع يده، وقال : « هذه اليد التي بايعت

(١) مقاتل الطالبيين : ص ٢٤٧ .

عدوي يجب أن تقطع ». فاجتمع فقهاء المدينة، وتشفعوا لزميلهم (ابن عجلان)، وكان مما قالوا للمنصور في شفاعتهم : أيها الخليفة، إن هذا رجل فقيه وعالم بالروايات ، وقد توهم بأن ذلك الشخص هو مهدي الأمة الذي بشّر به رسول الله (ص)، فبايعه على هذا الأساس ، وإلاّ فإنه لا يضمر في قلبه أي عداوة بالنسبة لك[1].

وهكذا فإننا كلما ننتقل من عهد إلى عهد في التأريخ الإسلامي ، فإننا نشاهد حوادث وقعت وكان منشؤها الإعتقاد الراسخ بحتمية ظهور المهدي الموعود . وأيضاً فإنَّ كثيراً من أئمتنا (ع) كالإمام موسى الكاظم (ع) ، والإمام محمد الباقر (ع)، وغيرهما، كانوا عندما يفارقون الدنيا ، فإنَّ بعض الشيعة كانوا يشكّكون في موتهم ، ويقولون بغيبتهم معتقدين بأنَّ هذا الإمام الذي يدعي الناس موته هو المهدي المنتظر .

وكان للإمام الصادق (ع) ولد يدعى إسماعيل وهو الذي تنتسب إليه طائفة (الإسماعيلية) من الشيعة. وكان الإمام الصادق (ع) يحب ولده إسماعيل هذا كثيراً . وعندما توفي، غسّله الإمام وكفنه ، ثم استدعى أصحابه ، وكشف الكفن أمامهم عن وجه الميت وقال لهم : هذا هو إسماعيل إبني وقد مات ، فلا يدعي أحد غداً أنه مهدي الأمة، وأنه قد غاب ! انظروا إلى جنازته. انظروا إلى وجهه . اعرفوه جيداً وتحققوا من ذلك ، ثم اشهدوا أمام الناس بما رأيتم[2].

وهكذا ، فإني في كل تحقيقاتي التأريخية ، لم أجد رجلاً واحداً من علماء المسلمين منذ صدر الإسلام وحتى زمان (ابن خلدون) ـ ادعى بأن الأحاديث المتعلقة بالمهدي الموعود (عج) لا أساس لها من الصحة ، بل على العكس ، كان الجميع يعتقدون بذلك ، وإذا كان هناك اختلاف، ففي جزئيات الموضوع ، كأن يكون المهدي هذا الشخص أو ذاك . وهل هو ابن الإمام

---

(١) مقاتل الطالبين : ص ٢٨٢.

(٢) الإمام الصادق (ع) لمحمد حسين المظفر : ج ٢ ص ١١٦.

العسكري أم لا ؟ وهل هو من أبناء الإمام الحسن (ع) أم من أبناء الإمام الحسين (ع)؟ أما أنّ هذه الأمة سوف يكون لها (مهدي)، وأنه من أولاد النبي (ص)، وأولاد فاطمة الزهراء (ع)، وأن مهمته هي أن يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعد أن تملأ ظلماً وجوراً ، فلم يكن يوجد أدنى شك في هذه الأمور بين المسلمين كافة .

قصيدة (دعبل)[1] :

جاء الشاعر المعروف (دعبل الخزاعي) يوماً إلى حضرة الإمام الرضا (ع)، وأنشد بين يديه مرثيته الشهيرة التي مطلعها :

أفاطمُ لو خِلتِ الحسين مجدلا وقد مات عطشاناً بشطّ فراتِ
إذاً للطمت الخد فاطمُ عنده وأجريت دمع العين في الوجناتِ[2]

يوجّه (دعبل) خطابه في هذه القصيدة إلى سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (ع)، ويستعرض مصائب أولادها واحداً بعد واحد ، ويذكر كيفية استشهادهم وأماكن قبورهم . وكان الإمام الرضا (ع) يبكي أثناء إنشاد هذه الأبيات . وظلّ (دعبل) ينتقل من مصيبة إلى مصيبة حتى وصل إلى الإمام موسى الكاظم (ع) فقال : (وقبر ببغداد لنفس زكية . .)[3] .

---

(١) دعبل بن علي بن رزين الخزاعي (ت ٢٤٦ هـ) : شاعر أصله من الكوفة تخرج في الشعر على مسلم بن الوليد . اتصل بالرشيد وهجاه مع سائر الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم حتى المأمون وهو القائل فيهم :

أرى أمية معذورين إن قتلوا ولا أرى لبني العباس من عذر

ومدح الأئمة وخاصة الإمام الرضا (ع) وأجازه . هجا مالك بن طوق أمير الجزيرة فقتله ، وكان يتشيع ، بل من أشد المدافعين عن الشيعة . له ديوان شعر مشهور ومتداول .

(٢) إشارة إلى البيت من القصيدة الشهيرة التائية التي مطلعها :

تجاوبن بالأديان فالزفرات نوائح عجم اللفظ والنطقات

(٣) ويقول فيها البيت :

وقبر ببغداد لنفس زكية تضمنها الرحمن في الغرفات

وهنا طلب الإمام (ع) من دعبل أن يضيف إلى قصيدته هذا البيت : (وقبر بطوسٍ يا لها من مصيبة . .)[1].

فقال (دعبل) : بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله ، لا علم لي بهذا القبر. فقال الإمام الرضا (ع): إنه قبري أنا![2].

وقد وردت في قصيدة دعبل هذا، بعض الأبيات التي تشير إلى الموضوع الذي نحن بصدده، حيث ذكر بأن تلك المصائب سوف تستمر وتتوالى، إلى زمان إمام لا بدّ من ظهوره ، وهو الذي سوف يضع حدّاً لكل ذلك[3] .

وهكذا ، إذا أردنا ذكر الشواهد التأريخية المشابهة ، فهي كثيرة جداً ، ولا يتسع المجال لاستقصائها هنا ، فاقتصرت على ذكر نماذج منها فقط ، من أجل بيان أثر فكرة (المهدوية) في تأريخ العالم الإسلامي .

الاعتقاد بالمهدوية في عالم التسنّن :

إذا أردنا أن نعرف أن مسألة (المهدي الموعود (عج)) ليست منحصرة في الشيعة ، فينبغي أن ننظر لنرى هل يكثر ادعياء (المهدوية) بين الشيعة فقط ، أم أن هناك من بين أهل السنّة من ادعى ذلك أيضاً ؟

إن التأريخ يشهد بأن هناك الكثير من بين أهل السنّة من ادعوا هذا الأمر . وليس المهدي أو المتمهديّ السوداني الذي ظهر في بلاد السودان قبل أقل من قرن من الزمان ، وكوّن جميعة ظلت قائمة إلى قبل فترة من الزمن ، إلّا واحداً من هؤلاء . وقد ادّعى هذا الرجل بأنه هو المهدي المنتظَر وطلب من

---

(١) وقبر بطوس يا لها من مصيبة ألحت على الأحشاء بالزفرات

(٢) (راجع من حياة الإمام الرضا (ع) لعلي العسيلي العاملي : ص ٢٠.

(٣) وهو قوله :

فلو لا الذي ارجوه في اليوم أو غدٍ تقطع نفسي إثرهم حسرات
خروج إمام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات
يميز فينا كل حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمات

الناس أن يبايعوه . وهذه الحادثة تدل على انتشار الإعتقاد بفكرة (المهدوية) في تلك الممالك السنّية ، مما حدا ببعض الناس هناك إلى تصديق مدّعٍ كاذب ، والسير وراءه .

ويوجد أيضاً الكثير من مدّعي (المهدوية) في البلاد الإسلامية الأخرى كـ(الهند) و(الباكستان) حيث ظهر هناك (القاديانيّون)[1] تحت عنوا إدعاء (المهدوية) .

وكلّ ذلك مصداق لما يوجد في رواياتنا من إشارات إلى ظهور الكثير من الدّجالين الذين يدعون (المهدوية) كذباً وزوراً .

بيـــان (حافـظ)[2] :

لا أدري هل كان (حافظ) شيعياً حقاً ، أم أنه كان سنّياً . ولا أتصور أن أحداً يستطيع أن يجزم بتشيع هذا الشاعر المشهور . ولكني أرى في أشعاره إشارات واضحة إلى مسألة ظهور الإمام المهدي (عج). فنقرأ في إحدى قصائده المعربة هذا البيت :

---

(١) القاديانية : فرقة من الغلاة المتأخري النشأة، جماعة غلام أحمد القادياني الهندي المولود حوالي (١٢٨١ هـ). وغلام أحمد تعني عبد أحمد ، أي عبد النبي ، والقاديانية نسبة إلى (قاديان) الهندية ، حيث ولد غلام أحمد . ادعى غلام أحمد أنه المسيح المعهود، والمهدي الموعود، في وقت واحد ، ومما جاء في رسالته التي نشرها سنة (١٣٤٤ هـ) : « إن الله قد بعثني مجدداً على رأس هذه المائة ، واختصني عبداً لمصالح الأمة . . . وسماني المسيح ابن مريم بالفضل والرحمة . . . وجعلني ربي عيسى ابن مريم على طريق البروزات الروحانية ومن أجلّ آلائه أنه استودعني سره الذي يكشف للأولياء ، والروح الذي لا ينفح إلاّ في أهل الإصطفاء . . . وقال لي : أنت وجيه حضرتي ، واخترتك لنفسي . . . واعلموا أن فضل الله معي ، وأن روح الله ينطق في نفسي وصادفت هذه الدعوة نجاحاً في بعض جهات (أفريقية) ويطلق عليها اسم (الأحمدية). (معجم الفرق الإسلامية : ص ١٨٩) .

(٢) حافظ شيرازي : شمس الدين محمد (ت ١٣٨٩ م) : ولد في (شيراز) ، وهو شاعر غنائي فارسي ، عفيف في وصف مشاهد الحب . جمعت أشعاره في (ديوان حافظ) (المنجد في اللغة والأعلام).

أيها الصوفي ، أين ذلك الدجال الأعور الملحد؟
قل له يحترق بغيظه فالمهدي حصن الدين قد جاء

وفي قصيدة أخرى أيضاً معربة يقول :

بشارةٌ أيها القب، فهناك للمسيح نفسٌ يأتي
ومن هذا النفس الزكيّ رائحة (شخص) تأتي
لا تئنّ ، ولا تصرخ من الألم ، لأني
ضربت فألاً، فظهر أن (منقذاً) لا بد أن يأتي
لست وحدي المبتهج (بنار الوادي الأيمن)
فموسى أيضاً من أجل قَبَسٍ إلى هنا يأتي
لا يعلم أحد أين هو ذلك (المنزل المقصود)
فقط هناك صوت جرسٍ ـ من جهةٍ ما ـ يأتي
تسألون عن خبر (بلبل) هذا البستان ؟
وإني لأسمع أنيناً خافتاً ـ من قفصٍ ما ـ يأتي

سوء فهم خطير :

وما دمنا في صدد هذا الموضوع ، فلا بدّ من الإشارة إلى أن فكرة كون الدنيا سوف تشهد مرحلة العدل والعدالة بعد أن تمتلىء بالظم والجور ، قد أوجدت مسألة خطيرة ، وهي مخالفة طائفة من علماء المسلمين لكل ما يندرج تحت عنوان الإصلاح الإجتماعي . حيث يزعم هؤلاء بأن الدنيا ينبغي أن تمتلىء بالظلم والفساد لكي يظهر المهدي الموعود ، ويقوم بثورته الإصلاحية الشاملة! وعندما يرون شخصاً يخطو خطوة واحدة نحو الإصلاح ، أو يرون توجهاً في المجتمع نحو التدين والعمل ببعض أحكام الإسلام ، فإنهم يستاؤون كثيراً، لأنهم يعتقدون أن الأوضاع الإجتماعية يجب أن تسوء وتزداد سوءاً حتى تتهيأ الأرضية لظهور المهدي الموعود . وإذا قام أحد بأي عمل من شأنه جلب اهتمام الناس نحو الإسلام والتديّن ، فإن ذلك يعتبر في نظرهم خيانة لقضية المهدي ، ومزيداً من التأخير لظهوره المرتقب . فهل إنَّ هذا

النوع من التفكير صحيح أم خطأ ؟

سأبيّن فيما يلي نقطة هامة تجيب على هذا السؤال .

ماهيـــة قيام المهدي (ع) :

إن بعض الأحـداث التي تقع في هـذه الدنيـا تتمتع بصبغـة الإنفجـار ، وذلك مثل أن يوجد « دمـل »[1] في بدن الإنسـان فهذا الـدمل يجب أن يتـطور ويصـل إلى حدّ بحيث ينفجـر دفعة واحـدة فيتحقق الشفاء أو « الإصـلاح » في البـدن . وعلى هذا فـأيّ عمل يؤدي إلى الحيلولـة دون انفجار هـذا الدمـل ، يعتبـر عملاً غيـر صحيح . وحتى إذا أردنـا أن نضع « دواءً » فـوقه ، فينبغي أن يكون هذا الدواء من النوع الذي يسبب الإسراع في عملية الإنفجار .

وهكذا ، وبالإستناد إلى هذه الحقيقة، فهناك بعض التيـارات الفلسفية ـ التي تحبذ أنواعاً معينة من الأنظمة السيـاسية والإجتمـاعية ـ تؤيـد الثورة بمعنى الإنفجار ، وتعارض كل عمل من شأنه أن يؤخر الإنفجار والثورة . ولهذا نـرى بعض المناهج والأنظمة الإجتماعية تخالف الإصلاحات بشكل عـام ، وتفضل ازدياد المفاسد والمظالم في المجتمع ، وتراكم العقد والعداوات بين النـاس ، واستمرار اضطراب الأمـور ، إلى أن يصل الـوضع إلى نقـطة الإنفجار والثـورة ومن ثم يمكن إصلاح المجتمع بصورة جذرية !

فهـل ينبغي لنـا ـ نحن المسلمين ـ أن نفكـر بهـذا الشكـــل فيمـا يتعلق بالإصلاح وبـظهور الإمـام الحجة (عـج) ؟ وهل يجـوز لنا أن نـدع المعاصي والذنوب تزداد ، وأنْ نترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ونهمل تربية أطفالنا، بدعوى أن ذلك يعجل ظهور المهدي (ع) ؟

بل لكي نساهم بـأنفسنا في تعجيـل ظهور الحجـة (ع)، فإنّنـا ـ والعياذ

---

(١) الدُّمل : انتفاخ بسيط في بقعة ما من الجسم ، عادة يكون نتيجة تقيح داخلي ورأس يظهر فيه الأحمرار الشديد من الخارج. ودواؤه (المرهم الأسود).

بالله ـ نترك الصلاة ، والصيام ، وسائر الواجبات الدينية، ونشجع الآخرين على ذلك ، بهدف تهيئة مقدمات الظهور ؟؟

كلاّ ، فهذا دون شك خلاف الأصول القطعية في الإسلام ، وفقهنا له موقف واضح في هذا الشأن ، فهو يؤكد بأن انتظار الحجة (ع) لا يسقط أي تكليف من التكاليف الشرعية ، لا الفردية ، ولا الجماعية . ولا يمكننا أن نجد عالماً واحداً من علماء المسلمين ـ سواء أكان شيعياً أم سنّياً ـ يقول بأن مسألة انتظار المهدي الموعود ، تسقط أصغر تكليف شرعي قرّره الإسلام .

هذا نوع من التفكير .

أما النوع الآخر : فهو يدور حول فكرة « النضج » وليس « الإنفجار » . والواقع أن « الثمرة » و« الدمل » كلاهما له سير تكاملي يستمر فيه إلى أن يصل إلى مرحلته النهائية، حيث ينفجر الدمل، بينما تنضج الثمرة وتصبح جاهزة للقطف .

ومسألة ظهور الحجة (ع) تشبه نضج الثمرة أكثر مما تشبه انفجار الدمل .

والإمام الحجة (عج) لم يظهر إلى الآن ، ليس فقط بسبب أن الذنوب لم تتكاثر إلى الحد المطلوب ، بل لأن الدنيا لم تصل بعد إلى مرحلة القابلية والإستعداد لهذا الظهور .

ولهذا نقرأ كثيراً في روايات الشيعة بأنه عندما يبلغ عدد أنصار الإمام المهدي المنتظر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً في العالم كله ، فعند ذلك يظهر الإمام ويبدأ ثورته الإصلاحية[1]، وإلى الآن لم يتوفر هذا العدد من الأنصار ! وهذا يعني أن الزمان يجب أن يواصل مسيرته، بحيث أنه مهما يزداد الفساد في الدنيا، فإنه من الناحية الأخرى ينبغي تواجد أولئك النفر الذين يريدون تشكيل الحكومة العالمية ، وعندهم الإستعداد الكافي لأن يكونوا تحت لواء المهدي

---

(١) راجع منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر (ع): ص ٤٧٥ .

المنتظر (ع) ـ قادة العالم وسادته . وعند ذلك فقط يظهر الإمام وتبدأ الثورة المباركة .

نعم ، إنَّ الفكرة القائلة بأنه (ما لم تحدث « الفوضى)، فإنّ الأمر لا يصل إلى « النظام ») صحيحة ، ولكن لا ينبغي إساءة فهم هذه الفكرة . لأن « الفوضى » لها مستويات مختلفة . فعلى الدوام تظهر الفوضى والإضطراب في الدنيا، ثم يعقب ذلك النظام والإستقرار . ثم يتبدل هذا النظام بالفوضى ، ولكنها فوضى على مستوى أعلى . ثم تتبدل هذه الفوضى بالنظام ، ولكنه نظام على مستوى أعلى أيضاً من النظام السابق وهكذا.

ولهذا يقول علماء الإجتماع بأن حركة المجتمع البشري هي حركة حلزونية ، أي حركة دورانية ارتفاعيّة . ففي نفس الوقت الذي يدور فيه المجتمع البشري ، فإنه لا يدور في مستوىً أفقي ، بل يتجه إلى الأعلى دائماً .

ولا يوجد شك بأن دنيانا اليوم هي دنيا مضطربة تعمها الفوضى ، بحيث أن زمامها قد أفلت حتى من يد القادة العظام ، وزعماء القوى الكبرى في العالم ، ولكن هذا الإضطراب والفوضى على ذلك المستوى العالمي يختلف عما يمكن أن يحصل في قرية أو مدينة ـ مثلاً ـ اختلافاً كلياً ، وكذلك الحال بالنسبة للنظام والإستقرار .

وعلى هذا فنحن عندما نتوجه نحو زمان ظهور الحجة (ع)، فإننا نتجه في هذه الدنيا نحو « الفوضى » و« النظام » في آن واحد . . . نتجه إلى الفوضى لأنه من الطبيعي الإنتقال من النظام إلى الفوضى . ونتجه أيضاً إلى النظام لأنه فوضى على مستوى أعلى .

فهل ظهرت إلى الوجود ـ قبل قرن أو بضعة قرون من الزمن ـ تلك الأفكار الموجودة اليوم بين الناس ؟ فلقد توصل مفكرو العالم اليوم إلى أن الطريق الوحيد لمعالجة شقاء البشرية ووضع حد لآلامها المريرة، هو تشكيل حكومة عالمية واحدة ، ولم يكن لمثل هذه الفكرة أن تخطر مجرد خطور في مخيّلة البشر طيلة العصور الماضية .

ونستنتج من كل ما سبق بأنه كما أن انتشار الظلم والفساد في العالم يقرب ظهور الإمام الحجة المنتظر (عج) ، فإن الدعوة إلى الإصلاح ، ومحاولة إجراء العدالة ، تقرّب أيضاً ذلك الظهور المبارك ، وربما بسرعة أكبر ، وعند ذلك سيكون حساب دعاة الإصلاح والعدالة مختلفاً كلياً عن حساب دعاة الفساد والإنحراف ، فلننظر أنفسنا في أي جانب نكون .

« المهدوية » فلسفة عالمية كبرى :

إن مسألة ظهور المهدي المنتظر (عج) ، لا تختصّ بطائفة من البشر ، ولا بمنطقة معيّنة من الأرض ، بل هي مسألة عامة تستوعب كل الأرض وكل ذلك لأن الدين الإسلامي ـ والتي تعتبر المهدوية واحدة من مسائله ـ دين عالمي ، قد أرسل الله تعالى خاتم أنبيائه للناس كافة ، ووعده أن يظهر دينه على سائر الأديان الأخرى .

ولذلك فإن الآيات القرآنية التي تبشر بمجيء دولة الحق والعدل هي من قبيل هذه الآية الشريفة : **﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾**[1]. وهذه الآية وأمثالها تشير :

أولاً : إلى الأمل بمستقبل البشرية ، وأن الدنيا لن تدمر وتفنى ، كما هي الفكرة السائدة اليوم في أوروبا ، بأن البشرية في تمدنها وحضارتها قد وصلت إلى مرحلة بحيث لم يبق أمامها إلّا خطوة واحدة لتسقط في القبر التي حفرته لنفسها بيدها !

والواقع أن ظواهر الأمور تؤيد هذه الفكرة بشدة ، إلّا أن أصول ديننا ومذهبنا تؤكد أن ما هو موجود الآن من الفساد والإضطراب شيء مؤقت ، وأن هناك حياة سعيدة مستقرة تنتظر البشرية في المستقبل .

ثانياً : إلى أن عهد المستقبل هو عهد العقل والعدالة ، فكما أن الفرد يمرّ في حياته بثلاث مراحل :

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٥ .

مرحلة الطفولة : وهي تتسم باللعب ، والأفكار الصبيانية .

ومرحلة الشباب : التي تتسم بالغضب والشهوة .

ومرحلة الرجولة : التي تتسم بالعقل ، والنضج ، والإستفادة من التجارب السابقة .

وكذلك المجتمع البشري لا بدّ أن يطوي مراحله الثلاث . وإلى الآن مرّ هذا المجتمع بمرحلتين من مراحله :

مرحلة الأساطير والخرافات : وبتعبير القرآن مرحلة « الجاهلية الأولى »[1] .

ثم مرحلة العلم : ولكنه العلم الممزوج بالشباب ، أي مرحلة حكومة الغضب والشهوة ، فعصرنا الحاضر هو قبل أي شيء ، عصر « القنبلة » أي الغضب ، وعصر « الميني جوب » أي الشهوة .

فهل يا ترى من المعقول أنْ لا تأتي على البشرية مرحلة تكون الحكومة فيها ليست حكومة جهالة وأساطير، ولا حكومة قنبلة وميني جوب ؟ مرحلة تتسم بالعلم والمعرفة في ظل العدالة ، والسلام ، والإنسانية ، حيث تكون المعنويات السامية هي الحاكمة في العالم ، لا الماديات المنحطة ؟

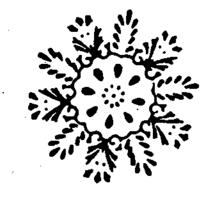
وهل من المعقول أن الله تبارك وتعالى خلق هذه الدنيا ، وخلق الإنسان فيها بعنوان أشرف المخلوقات ، ثم إنه يقوم بعد ذلك بإفناء الحياة قبل أن تصل البشرية إلى مرحلة رشدها وبلوغها ؟

كلّا ، فمضامين الآيات القرآنية والروايات الإسلامية تفيد بصورة لا لبس فيها، بأن البشرية لا بدّ أن تصل إلى مرحلة كمالها ونضجها ، ولا بدّ أن يحكم فيها الدين والعقل ، ويكون الإنسان الذي يعمر الأرض حينذاك ، « إنساناً » كما أراده الله سبحانه يوم خلقه ، ونفخ فيه من روحه .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ، ولا تبرجنّ تبرج الجاهلية الأولى ﴾ سورة الأحزاب ، الآية : ٣٣) .

المحتويات





كــان الشهيــد مرتضــي مظهري نــادرة

زمانـنـا

آيــة اللــه العظمــى سيــد علــي الخامنئي

لو كان في مجال الفلسفة تفوقا لكان ذلك متخصصاً

بالأستاذ مرتضي مطهري

أستاذ الفلسفة فــي طهــران المرحــوم الراشــد

ينبغي البحث والتنقيب عن الأفكار الإسلامية

الخالصة في كتب الأستاذ مرتضي مطهري

آية الله المرحوم السيد الطالقاني